آدم في مفترق الطرق

الطبعة: الأولى.

الكتاب: آدم في مفترق الطرق.

الكاتب: هاني صموئيل.

تصميم الغلاف: محمد مجاهد.

تدقيق لغوي وإخراج فني: محمود ربيع.

رقم الإيداع: 2019/23756.

الترقيم الدولي: 1 ـ 38 ـ 6689 ـ 977 ـ 978.

9 شارع المغفرة المتفرع من شارع العشرين بجوار مدارس حسام الدين

الخاصة- فيصل- الجيزة

موبايل: 01009823984- 01126026691- 01061813345

جميع الحقوق محفوظة

آدم في مفترق الطرق

رواية

هاني صموئيل

كاريزما للنشر والتوزيع

إهداء إلى . . .

- ابنتى هنية،، لك الشكر على كل شيء، أشتاق إليكِ كثيرًا، إلى لقاء قريب.
- إلى كل شخص حي، ثِق أن الحياة شيئان؛ أولهما الحرية وثانيهما الاختيار، كل شيء في الحياة يتوقف وينتج عنهما، كُن حرًا حتى الممات، واختر بعقل واعٍ وقلب نابض ولا تتنازل؛ فالتنازل الصغير سيتسبب يومًا في قتل حرّيتك واختيارك، تذكر أنك دائمًا في مفترق طرق، شئت أم أبيت ستختار.

تنويه..

ربما لستُ راويًا جيدًا، ربما لستُ بمتمكنٍ من اللغة، ربما ستجد الكثير والكثير يحتاج إلى التطوير... هذا كله حقًا، فلست بقاصٍ أو روائيّ، كل ما في الأمر لدي بعض الأفكار، في فلسفة الحرية والإرادة والاختيار، قررتُ مشاركتها إياك، حاولتُ كتابتها في شكل حكاية، قد تستمتع بها أو تُعلّق عليها، أو حتى تشاركني أحداثها وتكون جزءًا منها، في النهاية لكَ الحق فيما ستقرر؛ فأنت وأنا لنا إرادة، ولنا حرية، ولنا اختيار.. فهل يمكننا أن نقرر وأن نختار بحرية كاملة؟! شكرًا.

لا شيء ثابت.. التغير سنّة الحياة، اليوم اختلفَ عن الأمس، والغد سيختلف، ثِق أنك لن تظل كما أنت.

صدق هيراقليطس حين قال:

«لا تستطيع وضعَ رجلِك في نفس ماء النهر مرتين؛ فإن الماء يتغير كما أنت تتغير».

عين شمس، القاهرة، بركة إحسان ١/٤/٢٠١٤م

هربت الدماء من جسده، تسارعَت دقات قلبه، نخرَت مشاعر الخوف داخله؛ لتنهش سلامة نفسه، لا شيء آمن، لا شيء مريح، انتفَضَ جسده وكأن صاعقة كهربائية ضربته ليقفز للخلف بقوة لا إرادية.. حين علَت الأصوات وعمّت الضوضاء المكان وازداد إطلاق النيران أكثر بعشوائية في حرب شوارع، أغلق النافذة سريعًا، حاول قدر الإمكان ضبط أنفاسه؛ فأغمض عينيه متنفسًا بانتظام على مقياس العد من الواحد إلى عشرة محاولًا مسح ما رآه من مخيلته، فتح عينيه ببطء شديد، تنفس الصعداء مستدرًا ومتجهًا إلى تلك الصور التي تزيّن الجدران أمامه، اقترب منها واكتسَت ملامحه حينها بالوجع الشديد، شردَ في تلك الصورة التي تجمعه بأمه، هادئة، جميلة وبريئة.. تبتسم فيها ابتسامتها المعهودة التي لم تفارقها رغم الوجع ورغم كل شيء، كانت تردد دائمًا «ابتسم يابني فلا شيء يستحق أن ننسحقَ لأجله؛ فالابتسامة والسعادة شيئان نستحقّهما دومًا».. هي من اختارت وأوصَته بأن يعلّق تلك الصورة لها حين تموت، اقترب منها وكأنه يراها أمامه، تحسّس الصورة ووجهها، ثم تنفس متسائلًا «ماذا أفعل؟»، صمت قليلًا وكأنه ينتظر الرد منها! ثم

أكمل «أعتقد أنه قد حان وقت العودة يا أمي، وقت البحث، قرار نهائي لا مفر منه، سأعود إلى قريتي، حافظتُ على عهدي بما يكفي يا أمي، ولكني لم أعد قادرًا على البقاء هنا»، هكذا همسَ بَرَكَة بداخله، يفتقدها كثيرًا، لم يبقَ منها سوى تلك الذكريات وبعض الصور المعلّقة على الجدران، يفتقدها بشدة، يشعر بعدها بغربة ووحدة قاتلة، يشتاق إليها، يشتاق إلى مزاحها وملامحها البريئة والابتسامة التي لم تكن تفارقها رغم أوجاعها، ملعون الموت الذي يفرقنا، هذا الحق المطلق الذي لا نستطيع فهمه أو مواجهته، ذرفَت عينُه بعض الدموع، ثم حدّث نفسه قائلًا: «أشتاق يا أمي إليكِ، اليوم سأعود إلى حيث أنتمي، كنتِ أنتِ هنا انتمائي وبعدكِ صرتُ غريبًا وحيدًا، يكفي اغترابًا، هنا حرب في كل مكان، لا أمان ولا ثقة، منذ بدأَت الانتفاضة، الثورة، لا أدري ماهيتها! منذ حينها والأحوال تغيّرَت كليًا يا أمي، ربما هذه سنة الحياة، المهم يا أمي لا وقت لدي هنا؛ فالشرطة لم تعد قادرة على ضبط الأمور منذ فض اعتصام رابعة، وساءت الأمور هنا، اشتباكات.. دم... قتلَى في كل مكان، والمدينة هنا لا أحد يكترث لأحد، قررتُ اليوم العودة لقريتى، لا أعلم لماذا؟! ولكن على الأقل القرية أمانٌ أكثر، دفء أكثر، لا زالت تحوي أخلاقَ الماضي وشهامة الرجال، الإنسانية لا زالت تسكن في القرية، سأعود إلى حيث لا أدري، إلى مكان لم يخطر ببالي قط؛ فأنا أحتاج

إلى البحث عن حبيب.. قريب، أحتاج إلى أسرة يا أمي»، عاد إلى الخلف بضع خطوات وجلس على الأريكة المواجهة لصورة أمه، ضحكَ في باطنه؛ فظهرت ملامح ضحكته مرتسمة على وجهه، رغم شروده، يملك سرًا، أو ربما السر هو الذي يمتلكه! سر! بَرَكَة هذا الشخص الهادئ البريء الوحيد يعلم الآن أن حياته كلها تقوم على سر كبير، وهو.. من يكون؟! صدمة كبرى لم يتوقعها يومًا أنه ليس ابنها! كيف وهو ذاق من حنيّتها وارتاح في أحضانها؟! كيف وهو من كان ينمو على حبها؟! كيف وهي التي عبرَت به كل المحن والأوجاع.. لم يتحمل فكرة أنه يملكُ سرًا، المعرفة في الأساس وجع؛ فالجهل في كثير من الأحيان نعمة! المعرفة طريق مليء بكل عقبة وأخرى، بكل مرارة وأخرى، المعرفة نار كما تضيء وتدفِئُ، فإنها تحرق بلا رحمة أو شفقة، لم تكن أمه؟! كيف وهي تمتلك تلك المشاعر والأمومة الفياضة؟! كانت أمه وكان هو طفلها المدلّل... ابتسم وهو شارد، ثم همس في نفسه: «أخبرتِني يا أمي حتى تشعري بالسلام داخلك، أنك لم تخفِ عني شيئًا من حقي معرفته، لو خيرتِني حينها لتمنّيتُ عدم المعرفة، أخبرتِني أن أنسى! أن أعود لحياتي الطبيعية، فأنتِ أمي وأنا طفلك. تناسَيتُ وحيِيتُ، أما الآن وأنا وحيد يا أمي في فوضى عارمة في البلاد أبحث عن سند، عائلة، مال، أي شيء أشعر بأمان جانبه، حينها فقط عاد إليّ هذا السر، ربما أحتاج الآن

إلى البحث فيه مرة أخرى، لا أدري إن كنت قادرًا على المعرفة، على إيجاد أسرة، أقارب أو أحباء، لا أدري، هل لي حقوق، وإن كان.. هل قادر على إعادتها؟ ولكن يكفي أن أعرف من أنا؟!

قرر البحث عن تلك القرية التي تُدعَى «بني آدم»، بدأ تلكَ الرحلة عن طريق الإنترنت وجمع كل المعلومات الممكنة عن القرية وموقعها الجغرافي وكيفية الوصول إليها، وقرّر حينها السفر إليها والبدء في اكتشاف نفسه.

***

بالمقعد رقم ١٢ بالعربة الرابعة، قطار درجة ثانية مكيفة المتجه من القاهرة إلى أسوان، على قدرِ ما معه من مال يغطُّ بَرَكَة إحسان في نوم عميق، استسلَمَ لنومه، هذا الوحيد في كل شيء، فلا أصدقاء ولا قريب... لا أحد، غطّ في نوم عميق رغم قلقه، فلا أمان الآن، والعربة مزدحمة ممتلئة كعربة تحوي بهائم معدة للذبح! فلا ضبط ولا ربط، إن كان الوضع في البدايات منفلتًا بعض الشيء فالآن منفلتٌ تمامًا، ولكنه كعادته استسلمَ للنوم حتى لا يفترسه التفكير، أغمض عينيه وسبح في نومه محتضنًا حقيبته التي لا تحتوي إلا على بعض الملابس القليلة واللاب توب خاصته وبعض المذكرات الخاصة، مرّ الوقت سريعًا؛ فالنوم الوحيد القادر على كسر سرعة الضوء.

استيقظ على صوت الشخص المجاور له:

- لقد وصلنا محافظة أسيوط يا أستاذ، إنها محطتك.

خرج بَرَكَة بصعوبة بالغة من الازدحام، تنفس الصعداء وتوجه إلى رجل الأمن الواقف على مقربة منه، أفلَت الحقيبة من يده على الأرض، وابتسم له مستفسرًا منه:

- السلام عليكم، إذا سمحت موقف سيارات بني آدم كيف أصلُه؟

لم يردّ الرجل السلام، عادة المصريين.. أو هكذا صارت عادة مؤخرًا، ربما من ضغط الحياة وازدحام اليوم، لم يعد للسلام وقتٌ أو احتياج، أجابه سريعًا دون النظر له:

- استقل أية سيارة أجرة وستصل بك إلى حيث تريد.

قطب بركَة حاجبيه ولم يُكمل استفساره، ولم يشكره أيضًا، حمل حقيبته وخرج من المحطة مستقلًا سيارة أجرة، مرّت عشر دقائق حتى وصل موقف بني آدم، استقل الميكروباص الواقف منه.

- إلى أين تذهب يا أستاذ؟

فوجئ بَركَة بالسؤال من الشخص المجاور له بالمقعد خلف السائق.

- بني آدم يا فندم، أهناك شيء ما؟

- لا يا أستاذ، فقط أحاول المساعدة، ربما رأيتُك تائهًا؟ وجهك غريب، غير مألوف! لستَ من بني آدم، أليس كذلك؟! هكذا شعرتُ؛ فرغبتُ بطرح السؤال لمساعدتك، أعتذر لك.

ابتسم بَركَة له وهز رأسه يمينًا ويسارًا مجيبًا:

- لا، لا ضرر فيما فعلت، إنني غريب حقًا.
- امم، هل تخبرني إلى أين تذهب؟ لربما يمكنني المساعدة.

ابتهج بركة، لعل الرجل يوفر عليه مشقة البحث هنا.

- نعم، أتمنى هذا، أرغبُ في الوصول إلى الأستاذ يوسف النعماني.

حكَّ الرجل رأسه ونظر لبرَكَة نظرة استفهام وتساؤل وتحقيق و.....إلخ، ثم أجاب:

- يرحمه الله، لقد تُوفّي منذ أكثر من ثلاث سنوات في ثأر، كان رجلًا صالحًا، دائمًا يركض في فعل الخير، لم يتسبّب في أذى لأحد إطلاقًا، بل كان خدومًا بشهادة الجميع، فليرحمه الله، ولكن فيما كنت تحتاجه؟ أيعقل أنّك لا تعرف بموته وتسأل عنه؟!

مطرقةٌ وهوَتْ على رأس بَركَة حين علم بموت من يبحث عنه! صدمة كافية لتغيّر كل الخطط، ربما لإلغاء رحلته من الأساس وهو لم يبدأها بعد، شيء غير متوقع، مات ومنذ ثلاث سنوات! ما هذا الحظ السيء؟! ليتلاعب الفكرُ به وتنهال

الأسئلة لتنهش سلامة عقله.. «هل مات سرّي معه؟! هل انتهَت رحلة معرفتي بنفسي قبل أن تبدأ؟! لقد بدأتُ الحين تقبل الأمر، والرغبة عندي ازدادَت في المعرفة؛ فيأتي هذا الخبر المحبط لي! ماذا بعد؟ هل أعود إلى حيث أتيتُ.. إلى حيث وعيتُ ونشأت؟ أم هناك بديل آخر كما كانت تقول أمي؟ «.. حكّ رأسه ليحاول ضبط أفكاره، ثم عاد ليوجه تساؤلاته للرجل:

- ثأر مَن؟! وكيف مات؟! أخبرني كل شيء عنه إن أمكن.

تململ الرجل وحاول إغلاق الحديث وكأنه يرغب في التراجع، لماذا يتحدث فيما لا يعنيه؟! نظر إلى هاتفه وكأنه انشغل في متابعة الفيس بوك، وأجاب دون النظر لبركة:

- لا أدري شيئًا أكثر مما أخبرتك والله يا أستاذ.

شعر بركة برغبة الرجل في إغلاق الحديث وكأنه حدثٌ جلَل؛ فأشاح عنه نظره شاردًا فيما سيفعل.. «ولِمَ لا أبحث عن البديل؟! ربما يعرف هو أيضًا أسراري، البديل الآخر، لا شيء ينتهي؛ النهايات مجرد بدايات لأشياء أخرى؛ فلا طريق واحد يؤدي لما نُريد، هناك دائمًا عدد لا نهائي من الطرق، العقبة لدينا نحن حين نترك أنفسنا ننظُر طريقًا واحدًا فلا نعُد قادرين على رؤية طرقًا أخرى»، عاد للابتسام وهمَس داخله: «ما أجملها حكمتك يا أمي!»، ثم عاد إلى البحث رافعًا رأسه لأعلى وأكمل

همسه: «فإن كان يوسف مات، أرجو الله أن يكون فارس ما زال على قيد الحياة»، ثم أعاد نظره للرجل متسائلًا:

- إذا سمحتَ سؤال أخير، أرغب في الوصول إلى فارس مجدي شلَش، رجاء ساعدني.

قالها وتوسّلَت عيناه الرجلَ أن يجيبه؛ فأشفق الرجل عليه وأجابه:

- نعم.. فارس مجدي، حين تترجل من السيارة في الموقف ستجد أمامك مباشرة شارع الخواجة، انطلِق بداخله مسافة عشرين مترًا؛ لتجد حارة صغيرة على يسارك، ادخُلْها للنهاية ستجد منزل فارس، لقد مات أبوه أيضًا.

ثم أغلق الرجل بيده فمه وكأنه لا يتحكم في حديثه ومعلوماته المنطلقة للجميع.

لينظر له بركة ويعلَم أنه لن يتحصّل على معلومات أخرى، تنهد واستراح؛ فلا يهمّ العم مجدي، المهم أن فارس لا زال حيًا، فربّما تبدأ رحلة المعرفة من عنده.

- شكرًا لك، وماذا بعد يا بني آدم؟!

همسَ بها داخل نفسه، حينها اكتمل العدد المطلوب وانطلَقَت السيارة، خرجت من الموقف متجهة إلى بني آدم، وفي أقل من عشر دقائق كانت قد خرجَت من مدينة أسيوط لتتخذ السيارة

طريقًا فرعيًا مرصوفًا وقد أهلكه الزمن ولم تسعفه الصيانة الرديئة؛ فالحُفَر والنُّقَر تملأه، والسيارة تهبط وتعلو مسببة الألم لكل ركابها، أو هكذا شعر بَرَكة؛ فالركاب الآخرون قد اعتادوا الوضع منذ زمن، الاعتياد سحر، الاعتياد راحة، الاعتياد هو المنفذ الوحيد لتقبّل الأشياء، ربما كان غريبًا مؤلمًا لبَرَكة، لكنه حاول الانتباه للطريق والتأمل فيه، الطريق يشقّ الأرض بطول ثلاثين كيلومترًا؛ لتجد لافتة عفَى عليها الزمن، وقد انتشر الصدأ على سطحها الذي لم يعد مسطحًا، بل اعوَجّ بشكل كبير كقطعة صفيح سقط عليها عدد كبير من الأحجار؛ فشكّلها حسب قوته، ترتكز على قائم انحنَى مع الأيام والإهمال، حوَت بداخلها جملتين مرسومتين:

قرية بني آدم

ترحب بكم

الفصل الأول

بنـي آدم

قرية بني آدم ، ١\٢\١٩٩٥م

صحـراء جـرداء.. تظهـر فجـأة كتلـة سـكانية صغـيرة وكأنهـا بقعـة زيتيـة عـلى جلبـاب أبيـض، بعـض المنـازل المتناثـرة شرق الطريـق الرئيـسي للقريـة، وبعـض الأراضى المكتسـية بلـون الأرض الزراعيـة الخـضراء كاسرَةً حـدّة اللـون الأصفـر الجبـلي، يبـدأ الطريـق المرصـوف بلافتـة مسـطحة كبـيرة ترتكـز عـلى قائـم معـدني فـضيّ اللـون ترتسـم داخلهـا عبـارة...

قرية بني آدم

ترحب بكم

يشـق الطريـق القريـة نصفـين، شرقًـا وغربًـا، غربًـا يحـوي جـزءًا أخـضر موازيًـا للطريـق بعمـق لا يتخطّـى الكيلومـتر زراعـة تعتمـد عليهـا القريـة، ثـم شريـط أصفـر جبـلي كبـير جـدًا يمتـد حتـى الطريق الصحـراوي الغـربي، شرقًـا يحـوي منـازلَ القريـة باختلافاتهـا، بعـض

المنـازل قديمـة بنيـت ببعـض الطـوب والخـوص، وأخـرى بالطـوب والأخشـاب، وبعـض المنـازل التـي بُنِيَـت عـلى هيئـة قصـور وفِلَـل، تركتهـا الإرسـاليات الأجنبيـة التي تواجَـدَت لفـترة في القريـة، تركُوها عنـد رحيلهـم لَمـن خدموهـم، كانـوا خدَمًـا يومًـا حتّـى ألقَـت لهـم السـماء قصـورًا بـلا أي ثمـن، تركهـا رجـال الإرسـاليات لهـم، منـازل وأراضي، اغتنـوا جميعهـم، وأصبحَت القريـة طبقات اجتماعية؛ أسـياد.. عامـة.. فقـراء وخـدم بعدمـا كان الغالبيـة في طبقـة اجتماعيـة واحـدة!

القريـة لا تتخطـى ثلاثـة كيلومـترات طـولًا في عـرضٍ لا يتخطّـى الكيلومـتر ونصـف، قريـة صغـيرة، كانـت تعتمـد بشـكل كليّ عـلى الزراعـة حتـى منتصـف التسـعينات؛ حيـث تحوّلَـت للاعتـماد بشـكلٍ كليّ عـلى التجـارة، وتبـدّل بهـا الحـال.

دروب القريـة صغـيرة لا يتخطّـى عرضهـا الثلاثـة أمتـار، بـل وهنـاك دروبٌ أكثـر ضيقًـا، للقريـة فقـط طريقـان رئيسـيّان يتفرعـان مـن الطريـق المرصـوف، منهـما (شـارع الخواجـة)، هكـذا تداولـه أهـل القريـة، ربـما أسـموه هكـذا نسـبة إلى الإرسـالية التـي تواجـدَت في القريـة منـذ زمـن، ربـما ردّ الجميـل لهـم لما بذلـوه مـن جُهـدٍ في تعليـم الأطفـال والكبـار وتطبيبهـم، ربـما! عـلى أيـة حـال، هـذا هـو الشـارع الأشـهر في القريـة.. يقـع بامتـداد هـذا الشـارع غربًـا موقـف انتظـار للسـيارات الميكروبـاص، أمـا شرقًـا فهـو الـدرب الرئيـسي للقريـة، يشـقها نصفـين، شـمالاً قصـور وفِلَـلًا، جنوبًـا خليـطٌ بـين منـازل

صغيرة جدًا لا تتخطّى مساحتها أربعين مترًا، بعضها بُنِي خليطًا بالطوب والخوص وبعض الخشب القديم في الأسقف، وبعض القصور والفِلَل.

البداية بناصية شارع الخواجة الشرقية، سرايا السيد سيف المنصوري سالم أحد أعيان القرية، ومن أكبر بيوت عائلة السوالم، سورٌ مزينٌ بأفخم التشطيبات، لا يتخطّى ارتفاعه مترًا ونصف يعلوها بعض الفيرفوجيه بأشكال وردية مكتسية اللون السماوي، يقبع خلفها خط من الشجر يرتصّ بتناسق بارتفاع لا يتخطّى المترين ينشر اللون الأخضر عليه، تشغل المباني داخل السرايا نصف مساحة الأرض، والنصف الآخر حديقة رائعة، يحتوي السور على ثلاث فتحات؛ بوابة رئيسية على الطريق الرئيسي المرصوف، ويمينها بوابة صغيرة، وأخرى رئيسية على شارع الخواجة، تتخطّى مساحة الحديقة القيراط.. حديقة تشبه قصور الملوك في عهد الملَكِيّة، تسحر العينين، تسرقُ الفؤاد، يلعبُ فيها طفلين؛ أكبرهم سالم يبلغُ من العمر خمسة عشر عامًا، يكتفي بثانوية فنية، يمنّي والده النفس بأن يتمكن من اجتيازها، فقط يرغب في الشهادة له، وأخوه الصغير مهاب يبلغ من العمر خمس سنوات، يعاني من شلل الأطفال، ويتحرك دائمًا بكرسي متحرك وعكازين لا يفارقانه، نابغ في التعليم، أشجار الحديقة ترتصّ بشكل إبداعي وبارتفاع متناسق، أرضيتها تكتسي

بنجيلة طبيعية خضراء يتخلّلها بعض الممرات بأشكال مستطيلة من الركام الملوّن المتراصّ في أماكنه، تتقاطع الممرات معًا لتصنع دائرة قطرها ثلاثة أمتار، تحوي في باطنها نافورة مياه، وعلى محيطها كراسي للجلوس والاستمتاع بهواءِها العليل، يجلس عليها الحاج سيف المنصوري.

سيف المنصوري سالم.. كبير بيت المنصوري، أحد أكبر بيوت عائلة السوالم، رجل ضخم البنية، كرشُه أمامه كامراة في شهرها السابع، والعصا في يده لا تفارقه، أنيق بجلبابه الواسع الفضفاض، والشال الأسود الذي لا يفارق كتفه، شاربُه عريض وملتفّة أطرافه كشِرَاع سفينة قوي، حاجباه كثيفان، ممتلئُ الوجه، قمحيّ اللون.

يحكي مع خادمه الأمين وعشرة السنوات الطوال العم مجدي شلَش، يضحكا ولكنهما لا يغفلا عن الأطفال؛ فلا يغيب ناظرهما عنهما وهما يمرحا ويبتسما لهما، يبدأ الرواق الرئيسي لدخول السرايا، يزين جوانبه ورود من كل صنف ولون، نمَط متكرّر لجميع السرايات المتواجدة في هذا الدرب، يجاور السرايا من الشرق حارة صغيرة لا يتخطّى عرضها مترين، تستمر بعمق السرايا لتجد منزلًا صغيرًا، بُنيَ من الطوب، فقط دور أرضي يتكون من غرفة وحيدة وصالة صغيرة، ثم حوش ضيق لتربية بعض الدجاج البلدي، يسكن فيه العم

مجدى شلش وابنه فارس الذي يبلغ من العمر سبع سنوات، ثم بعد تلك الحارة الضيقة وهذا المنزل المخنوق المتواري عن الأنظار تبدأ سلسلة قصور وسرايات، أولها سرايا السيد يوسف النعماني سالم أغنى أغنياء القرية، بل والمحافظة نفسها، يعمل موظفًا بهيئة البريد بمحافظة أسيوط، يليه جامع الرحمن الرحيم، أما على الجانب الآخر فيبدأ على ناصية شارع الخواجة أكبر منازل القرية سرايا الحاج البلتاجي عبد العظيم سالم عمدة بني آدم، الثلاثة كبار عائلة السوالم، ومن كبار بني آدم.

على الجانب الغربي للطريق، وفي الجهة المقابلة موقف الميكروباص، يقابله كشكٌ صغير، يحوي سوبر ماركت صغير لبيع بعض المتطلبات للأهالي وعمل المشروبات للمنتظرين بالموقف، تعمل به سيدة فقيرة الحال، أهداها العمدة البلتاجي قطعة الأرض تلك لتسكنها ولتتعايش منها، لديها طفلة صغيرة لا تتخطّى العامَيْن تُدعَى هدى، توفّي زوجها منذ سنة بأزمة قلبية مفاجئة، وترك الأم وابنتها في مواجهة الحياة دون سند.

قرية بني آدم... الحكايات والأحوال...

دار العمدة البلتاجي، عائلة السوالم، بني آدم ١\١\١٩٩٨م.

نشب في القرية منذ سنتين عراكٌ كبيرٌ بين عائلتين؛ عائلة النواصر وعائلة بيت لطفي، كانا حتى بداية هذا العراك يتشاركان القوى والنفوذ، وكانا الندّ القويّ مع عائلة السوالم ببني آدم، وكعادة القرى.. ف بني آدم إن اختلفَت في حال اللهجة الأقرب للمدينة عن الصعيد واتجاه القرية للاعتماد على التجارة وليست الزراعة، لكنها لا زالت غارقة في فيضانات الثأر، يثور فيضانها سنويًا بدماء قتلى.. وأمهات ثكلى.. وزوجات أرامل.. وأطفال أيتام.. فلا أحد يستطيع إيقافه.

شغَلَ هذا الواقع المرير كلٌّ من: يوسف النعماني، والعمدة البلتاجي عبد العظيم.

العمدة البلتاجي عبد العظيم.. عمدة القرية، يتخطّى عمره الستين عامًا، قصير القامة، عريض المنكبين، شاربُه علامة مميزة لضخامته، شخصية محبوبة من أهل القرية، صغيرهم قبل كبيرهم وضعيفهم قبل أقواهم، عادِل، قليل الحديث، مصلح اجتماعي، يرتدي دائمًا جلبابًا أسودَ ويُلقِي على كتفَيه عباءةً بنية اللون، ويستند على عصا ورثها عن أبيه، لديه من الأبناء ابنٌ وحيد.. الدكتور نادر البلتاجي، ترك القرية واستقر بالقاهرة، ولكنه توفّي

بعدما أصابه المرض اللعين، ولم يتمكن من الصمود أمامه؛ فرحل في هدوء، كان دائمَ الترحال والسفر، واستقر به الحال في قاهرة المعز، متزوّج من السيدة نورا محمود عبد الباري، والتي توفّيت خلف زوجها بوقت قليل بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية، رحل الأب والأم وقد تركا خلفهما ابنًا وحيدًا (منصور) هذا الطفل الأشقر ذو العينين الخضراوين والشعر المجعّد، لم يتخطّ عمره الثلاث سنوات، وضع الجد العمدة كل همه في تربيته... يحيا العمدة وحيدًا في بيته، يشغل منصب العمدة منذ أكثر من عشر سنوات ورثها عن أبيه، وكان يمنّي القلبَ بأن يُورّثها لابنه، ولكن لم يشأ القدر، تقبل العمدة بصدر رحب وقلب مؤمن بقدر الله، وبدأ في إعداد حفيده ليكون العمدة القادم؛ فهو آخر من تبقّى في فرع البلتاجية بعائلة السوالم.

يوسف النعماني.. رجل خمسيني متيسر الحال، يمتلك من المال ما يكفيه ويكفي أولاده وأحفاده، يعمل موظفًا بهيئة البريد بمحافظة أسيوط، ولكنها ليست المصدر الوحيد للدخل.

سمين البدن؛ حيث يتخطّى وزنه ال ١٠٠ كيلو من الدهون، فارع الطول يتخطّى ال ١٨٠ سم، شعره خليط بين الأبيض والأسود، وغالبًا يقوم بصبغه بلون أسود كامل؛ لعلّ الشباب يعود مع سواد الشعر، لا يروق له ارتداء البذلة أو القميص والبنطلون إلا بالعمل فقط، فقط لأنه مُجبَر، لكنه يعشق

الجلبـاب.. ذاك الاخـتراع الجميـل، سـترة ورحرحـة وراحـة رائعـة، تلبيسَـة بيضـاء، يعلُوهـا جلبـاب بلـون كحـليّ أو أسـمر أو زيتـي، هيبـة مـا بعدهـا هيبـة.

لا يفوتـه فـرضٌ مـن فـروض العبـادة.. الخمـس صلـوات لا يـترك منهـا صـلاة، مسـاعدة الفقـراء، والصدقـات، زكاتـه لا يهملهـا أو ينسـاها، مسـاجد القريـة أو حتـى كنائسـها، لا يمـر عليـه إعـادة ترميـم أو مناسـبة إلا وتـبرّع لهـم، محبـوب مـن الجميـع، شـخص خـدوم ويسـاعد قـدر الإمـكان، نظيـف اليـد، لديـه مـن المعـارف والمسـئولين مـا يمكّنـه مـن المسـاعدة للجميـع، ولم يكـن يتأخـر عـن ذلـك، دائـم التواجـد لوضـعِ الحـلّ السـلميّ والسـلام في أي خـلاف في البلـدة، شـخصية مركبـة بفلسـفة جديـدة.... الفـرع الثالـث القـويّ المتمّـم لمثلـث عائلـة السـوالم.

سـكنت فكـرة الثـأر وتوابعهـا كصـداع في رأس يوسـف، لا يفارقـه ليـل أو نهـار وهـو يـرى خـيرة الشـباب أجسـادًا هامـدة.. لا روح.. لا حركـة، والقريـة التـي تكتسـي يوميًـا سـوادًا ووجعًـا، كيـف لأهـل بنـي آدم الانغـماس في هـذا المـرض اللعـين الفتّـاك؟! فـلا رحمـة لأحـد منـه، انشـغل حتـى كاد يجـنّ جنونـه وقـرّر محاربتـه، بـدءًا مـن علاقاتـه الجيـدة بـكلِّ مـن العمـدة والمركـز ومديريـة الأمـن بتكويـن مجلـس معتمـد للقريـة خـاص بالتهدئـة وإمكانيـة التدخـل في المشـكلات الكـبرى لحلهـا، ونبـذ روح التعصـب، وزرع بـذور السـلام والطمأنينة،

وقد كان، اعتُمد المجلس وحصل على عضويته كلٌّ من العمدة البلتاجي، ومأمور المركز، وإمام المسجد، وكاهن الكنيسة بالقرية، ويوسف النعماني الذي كان أكثرهم نشاطًا وحركة، وقد تمكن بتحركه الدائم بلا كلل ولا ملل من إيقاف تلك الحرب الطاحنة بين عائلتي (النواصر وبيت لطفي)، تجمّع المجلس والعائلتان كاملتان بكبير كل منهما والمتضررين من العراك، تجمعوا بقاعة العمدة حيث أنها أكبر قاعة بالقرية وقادرة على احتواء الأعداد الكبيرة، تكدست القاعة بأكملها.. ففي الأمام من داخل القاعة يجلس كل من العمدة.. يوسف.. الشيخ.. الكاهن.. المأمور، وعلى يمينهم كبير عائلة النواصر، وعلى يسارهم كبير بيت لطفي، ثم من أمامهم إلى آخر القاعة يتكدّس باقي الرجال، أمام القاعة يتكدّس أهالي القرية بالطريق المرصوف، ويمتلئ شارع الخواجة على آخره، خبر الصلح انتشر في القرية كانتشار النار في الهشيم، الجميع يتحدث.. الجميع سعيد؛ فالجميع تتضرر من ذلك الثأر، فلم يطمئنّ أحد طيلة فترة العداوة، لم يكن هناك هدنة أو أمان؛ فالنيران كانت كنهر لا يتوقف، منذ أكثر من عامين بدأت تلك المشكلة بين العائلتين، راح ضحيتها أكثر من عشرة رجال من كل عائلة، ومازال الدم لا يرحم ولا يتوقف، ولا يجعل أحدًا يهنَأ لا باطمئنان أو راحة، أو مستقبل له ملامح ترى.

بدأت المشكلة بسبب اشتباك بين أطفال يلعبون معًا، خرج

على إثرها شباب من هنا وشباب من هنا نشبَ بينهم عراكٌ صغير، تمكّن الحشد الذي تجمّع من تفريقهم، وما لبث أن انتهى الموضوع حتى تلاسَنَت سيدات من هنا وسيدات من هنا معًا؛ فاشتعل العراك مرة أخرى، اشتعل وزادها اشتعالًا تلاسنُ السيدات اللاتي كُنّ كالبنزين الذي أشعل محطة وقود كاملة، اشتعلَ ولم يتوقف حتى بضعة أيام سابقة، تمكّن فيها مجلس الصلح من محاولة تقريب وجهات النظر واستمالة قلوب وعقول الكبار لإجبار الشباب المندفع على الهدوء وإتمام الصلح، واستجاب كبار العائلتين... كما حملَت أيام العداوة والخصام أحداثًا مريرة وكبيرة، هكذا كان يوم إتمام الصلح؛ حيث حمل الشخص المسيء من عائلة النواصر كفنًا على كفيه بدءًا من أول شارع الخواجة سائرًا به في اتجاه القاعة حيث التجمع، يسير على يمينه ويساره رجال الأمن طيلة الشارع، ويرتصّ أهالي القرية على الصفَّين تاركين ممرًا للسير، حتى وصل أمام القاعة وقدّمَ كفنَه لكبير عائلة بيت لطفي، ثم رقد بجوار خروف مقيّد على الأرض، وحمل كبير عائلة بيت لطفي سكّينًا وذبح الخروف كُنيَةً عن إتمام الصلح، ثم تحرّك الجميع داخل القاعة، وقف كلٌّ من إمام المسجد وكاهن الكنيسة بالترتيب لإلقاء كلمتهما؛ للحث والتشجيع على إتمام الصلح، المسامحة ووضع بذور السلام بين الجميع، ثم ألقى العمدة كلمته وتلاه يوسف النعماني، ثم أنهى

الكلمات مأمور المركز، وقبل الختام:

- شكر خاص للرجل صاحب الكلمات الطيبة.. للرجل الذي يتعب دون مصلحة، لم يكل لحظة أو طرفة عين، عانَى من الرفض مرارًا وتكرارًا، أصابته كلماتنا اللاذعة، عانَى من جهلِنا وغباء طريقتنا، لم ينَلْ منه اليأس مِنَّا لحظة واحدة، تحرّك ليلًا ونهارًا هنا وهناك حتى وصل لمراده لأجل الجميع، أرغبُ في شكره شكرًا خاصًا، الحاج يوسف النعماني سالم.

هكذا تحدّث كبير عائلة النواصر، وأيّدَه كبير بيت لطفي، وصفّق الجميع لما تحملُه الكلمات من شكر واجب لهذا الرجل، ثم تمّت مراسم الصلح، وانتهَت الجلسة بمصافحة الجميع للجميع، إنجازٌ يحسَب.. صلحٌ لم يكن أحدٌ يتوقّعه أو يفكر فيه من الأساس، وأخيرًا هدأَت بني آدم.

دار العمدة البلتاجي.. عائلة السوالم، بني آدم ٢\٣\٢٠٠٠م.

اجتمع الثلاثة الكبار بعائلة السوالم، كلٌّ من يوسف النعماني وسيف المنصوري بقاعة العمدة البلتاجي؛ لبحث هذا الأمر العالق بينهم، سيف المنصوري يرغب في وضع يده على مائة وخمسين فدانًا في الظهير الصحراوي للقرية، وقد عرَضَ الأمر على يوسف النعماني والبلتاجي رغبةً منه في أن يتشاركوا معه في حماية تلك الأرض والمشاركة بمبلغ ماليّ ضخم بعض الشيء؛ لشراء ماكينات وطُلمبات لاستصلاح تلك الأراضي؛ فهناك مشروع يراودُه منذ فترة وقد حان وقت التنفيذ، فقط يحتاج إلى بعض المعونة، وأفضل من يعين هم كبار عائلة السوالم؛ فلديهم من النفوذ ما يكفي لوضع اليد، وفي حال مشاركتهم حينها عامل المال سيتوفر... يجلس الثلاثة في محاولة منهم للتوافق، وقد اقتنع يوسف بالفكرة؛ فهو يرى أن المستقبل مع زيادة التعداد السكاني للقرية؛ فحينها سيكون الحل الوحيد لأهالي القرية هو الزّحف ناحية الظهير الصحراوي للقرية للسكن به، حينها سيكونون هم الأكثر استفادة من بيع الأرض بأسعار باهظة، مشروع استثماري جيد، اتفق كلٌّ من يوسف وسيف، فقط البلتاجي رفض رفضًا قاطعًا، حاول يوسف إقناعه بالعقل وبالتحليل والمنطق، لكنه لم

يُفلِح رفضُ البلتاجي بقوة، حاول سيف بالضغط النفسي

- نحن عائلة، أترغبُ في تفكيكنا؟ أترغب في أن نقوم بشراكة شخص غريب وتركك؟!

حاول، ولكن لم يفلح أيضًا، هاج واستشاط غيظًا سيف المنصوري؛ فهو يرى أنّ برفض البلتاجي سيتوقّف المشروع لاحتياجه لمبلغ كبير لن يتمكن من توفير سيولته هو ويوسف فقط، اغتاظ جدًا وارتفع صوته، وارتفع صوت البلتاجي:

- هل تعتقد أنه يمكن نسيان ما حدث يا سيف؟ ما حدث سيظل في عقلي لن يفارقه ما دُمتُ حيًا، فلتسمع هذا يا ابن عمي.. لك مني العلاقة الحسنة والتعامل الجيد، أكثر من هذا لا يوجد؛ فلا شراكة بيني وبينكم، هذا ما عندي.

تحول وجه سيف المنصوري لوجه وحش كاسر، وكاد أن يشتبك مع البلتاجي لولا تدخّل يوسف وفضِّ الاشتباك، ورحلَ بسيف تاركًا البلتاجي وحده مسترجعًا هذه الذكرى العالقة بذهنه طوال الوقت، منذ ما يقارب الثلاثين عامًا، وبالتحديد عام ١٩٧٠ م في ليلة رأس السنة، الحادي والثلاثون من شهر ديسمبر، وفي منتصف ليلة شتاء قارس في منزل صغير لا يزيد عن غرفتين وصالة وحُوش بهائم، كانت القرية كلها نيام، الظلام يخيّم على كامل شوارعها ومنازلها عدا هذا المنزل الصغير؛ تخرج منه إضاءة

مصباحٍ بلديّ، وبالتحديد من حُوش البهائم الخالي تمامًا سوى من ثلاثة أشقّاء يحفرون حفرة عميقة، كانوا عبد العظيم سالم الأخ الأكبر عمدة بني آدم، يليه النعماني سالم، وأصغرهم المنصوري سالم، كانت الساعة قد تخطَّت الواحدة منتصف الليل، فجأة صرخ عبد العظيم وهو في باطن الحفرة على عمق أكثر من خمسة أمتار:

- وجدت التماثيل.. وجدت التماثيل.

تهلل الأخوَان وقاما بإخراجه والتماثيل، ثم قاموا بإخفائها أسفل مصطَبَةٍ من الطوب بصالة البيت، وعاد كل منهم لبيته وخلَدُوا الثلاثة للنوم، وقد اتفقُوا على قيامهم صباحًا لتسليمهم للخواجة -شرشل- واستلام المال.

في تمام الساعة الثالثة.. استيقظ المنصوري متجهًا من منزله إلى المنزل الحاوي للتماثيل، دخل واتجه ناحية التماثيل المخبَّأَة، متحركًا على أطراف أصابعه كلصٍّ يتلفّت يمينًا ويسارًا قلقًا، وإذْ به يصطدم بالنعماني أخيه الأكبر، ينظر كلٌّ منهما للآخر وهو يرمقه بنظرة "إنك خائن"، يتهامس ويعاتب كل منهما الآخر، ويطول الحوار بصوت منخفض حتى يتفقا ويخرجا التماثيل ويذهبا لشرشل ويقبضا المال ويرحل الخواجة، ثم يعودا للبيت ويخلدا للنوم، حتى يستيقظ الجميع صباحًا ويُصدَمُوا باختفاء التماثيل، ويصنع الأخوَان وهمًا يقنعان به أخاهم الأكبر عبد العظيم بأنه

مـن المؤكـد هنـاك آخـر كان يتربّـص بهـما وهـو مـن سرق التماثيـل، ومـن الممكـن أن يكـون الخواجـة هـو مـن أتَـى وسرق التماثيـل ثـم رحـل، ولمَ لا؟! وتمـر الأيـام حتـى يكتشِـفَ عبدالعظيـم خيانـة أخويـه؛ فيقاطعهـما حتـى مماتـه، حتـى تعـود أوصـال الرحـم مـرة أخـرى مـن خـلال يوسـف الـذي يعيـد العلاقـة بينـه وسـيف مـع البلتاجـي، لكـن دون الدخـول في تعامـلات تخـصّ المـال أو العمـل...

عاد البلتاجي من شروده وألمه قائلًا:

- الـدم الفاسـد يمـلأ جسـدك يـا سـيف، فهـل أعـودُ أنـا لأسـلِّم لك ظهـري؟ إن كان عـلى يوسـف أنـا أأتمِنُـه، أمـا أنـت فـلا أمـان لـك كأبيـك وعمـك، لديك الاسـتعداد لتقتـل ولـدَكَ إذا كان عائقًا لك!

قالها ثم تنفس الصعداء وأحنى رأسه على رأس عصاه.

عـلى بعـد خطـوات قليلـة بالجهـة الأخـرى مـن شـارع الخواجـة بداخـل سرايـا يوسـف النعـماني وصـل كلٌّ مـن يوسـف وسـيف، جلسـا وأحـضرَت لهـم الخادمـة مـشروب ليمـون كـما طلـب منهـا يوسـف لتهدئـة سـيف، جلـس الاثنـان والصمـت يخيّـم عليهـما، المـشروع الآن في مهـبّ الريـح فـما هـو الحـل؟ تشـبث الاثنـان بفكـرة المـشروع والأرض، امتـلاك أراض دون دفـع جنيـه واحـد فرصـة لـن تتكـرر، المـال فقـط للماكينـات والمـشروع، قطـع الصمـت صـوت سـيف المنصـوري المرتفـع:

- ماذا يريد البلتاجي؟! ألا يستطيع أن ينسَى، ما ذنبنا نحن؟ ألا يفهم أن مَن مات أخذ معه ما حدث؟ ما هذا العقل الغبي؟! ألم ندعمه نحن ليشغل منصب العمودية؟ ألا يكفي هذا؟!

رددها وارتشف مشروبه على دفعتين، نظر له يوسف وهو ينحني اتجاهه:

- لديه الحق، فما حدث من آبائِنا كان سيئًا، أما المشروع سيكتمل يا ابن العم، لديّ شخص أعرفه من أعيان قرية العزايزة في مركز الغنايم، يفصلنا عنهم فقط ساعة، سندخله شريكًا ولن يمانع.
- ومن هذا؟
- محروس الغنام، أغنَى أغنياء العزايزة، يرغب في أن يستثمر هنا في بني آدم؛ فهو يراها قرية تجارية ولها المستقبل، سأحدّثه وأدبّر لكما لقاءً للتعارف، وخيرًا بإذن الله.
- إن كان ثقة فحدثه الآن تليفونيًا ودبّر لنا موعدًا، لديّ قلق بشأن الأرض، لئلّا تدخل إحدى العائلات أو الأعيان ويضع يده عليها قبلنا.
- لا تقلق، دع الأمر لي.
- ألَدَيْكَ الثقة الكاملة في محروس الغنام هذا يا يوسف؟!
- كما أثق بك يا سيف، هذا الرجل تربطُه قرابة بمدير أمن

أسيوط، هذا أولًا، أما ثانيًا فهو من أعيان قريته، ذائع الصيت والسمعة شريفة، رجل صالح، وقد رشّحه لى مدير الأمن بنفسه لنتشارك الاستشارات، وتقابلنا أكثر من مرة، ومنذ ذلك الحين توطّدَت بيننا أواصل الصداقة والودّ والمحبة، اطمئِنّ وضع في بطنك بطيخة صيفية كما يقولون.

- إذن دبّر لنا اللقاء بأسرع ما يكون، اجعَلنا نعيد الفرحة التي أفسدها البلتاجي بتعنته وغبائه وتمسّكه بما عفَا عليه الزمن، فلا شيء يبقَى، ما رحل رحل ولا عودة له.
- ألا يتفهم هذا؟

شارع الخواجة، قرية بني آدم، ٦\١\٢٠٠٠ م، عيد الفطر المبارك

أمام السرايات المتراصة والزينة التي تملأ شارع الخواجة بكل بهجة يلعب الأطفال احتفالًا بالعيد، ملابس جديدة وبُوم بُوم، وأكياس الشيبسي، مع فارق اللبس والعيدية، فينقسم الأطفال لقسمين؛ أولاد الأسياد.. سالم وأخوه مهاب أولاد سيف المنصوري، ويحيى وأخته فرحة أبناء يوسف النعماني، ومنصور حفيد العمدة البلتاجي، أما القسم الآخر فارس ابن العم مجدي، وهدى ابنة نعيمة عبد القادر صاحبة الكشك، استمر اللعب وأجواء العيد حتى عكّرته الجملة التي قيلت:

- يا غبيّ، فلتلعب جيدًا، أأَنتَ غبي أيها الجبان؟!

جملة ألقاها سالم، هذا الطفل العفيّ، ألقَى جملته وهو يقبض بيديه في رقبة فارس، هذا الطفل الضعيف الجبان كما يلقّبوه، انفجر بركان غضبه، ولكنه لم يتخطَّ تعابير وجهه، لم تنفعل يداه أو تتحرك أقدامه، لم يتمكّن لسانه من الرد حتى ولو بكلمة بسيطة، وما زاد الألم الجملة الأخيرة:

- لم يتبقَّ سوى ابن الخادم هذا، هل نسيتَ من أنت ومن نحن أيها الجبان الغبي؟!

ألقاها يحيى يوسف النعماني، هذا الطفل الذي لم يتخطّ الرابعة عشر من عمره، ألقاها كمن يلقِي حجرًا في مياه راكدة، يلقيه ببساطة، ولكنه يعكّر هدوءها؛ فلا تعود المياه كما كانت، انطلقَت الثورة داخلة تأكل أحشاءَه، استشاط على نفسه؛ فلا قدرة لديه على المواجهة، يعلم قدرَ نفسه، يعلمها جيدًا، يكفي أنه كبُرَ في مجتمع يراه أقل من سالم ويحيى، بالإضافة إلى توصية العم مجدي "أنهم أسيادي وأسيادك، لا تنسَ هذا"، جملة محفورة بذهنه لا تفارقه، وكأنها ملاكه الحارس؛ حتى لا يُخطئ، يعلم جيدًا قدرَه، يعرف أن ملابسه هي ملابس سالم القديمة، يعرفُ أن حذاءَه حذاء سالم القديم، يعرف أن كل ما يمتلكه هو في الحقيقة ما تركه سالم بعدما استنزفه، يعرف! أن المعرفة وجع.

انزوَى جانبًا وجلس أرضًا، أثنى ركبتيه، وأشبك يديه، ثم غطسَ برأسه داخلهما وأجهَش في بكاءٍ صامت، يكفي ضعفه لنفسه، حتى جاءَه منصور هوّن عليه قدر ما تمكن وأخذه ليكملا اللعب داخل حديقة منزله، طفل لا يتخطّ الخمسة أعوام ينزع عن طفل آخر وجعَ التفرقة الطبقية، الطفولة حينما لا تتلوّث تكون أعظم الأديان والأخلاق.

على الجانب الآخر يجلس مهاب معلقًا نظره بتلك الفتاة الصغيرة التي تركض هنا وهناك.. هدى، طفلة جميلة رقيقة، يشعر مهاب تجاهها بشيء يجذبه لها.. ولها فقط، ولا يدري

لماذا! لعلّ السبب أنها تعامله جيدًا! أو أنها بلا أب، أو ربما لأنها فقيرة.. لا يدري، ولكنه يرغب في رؤيتها، تمنّى لو تمكن من اللعب.. للعب فقط معها.

- هيا يا أطفال، تعالَوا إليّ، كل عام وأنتم بخير، هيا أسرعوا لتأخذوا العيدية.

التفَتَ الأطفال جميعهم إلى الصوت، يوسف النعماني يقف أمام السرايا يبتسم، يفتح ذراعيه مناديًا للأطفال، ركض الجميع تجاهه..

- هذه عيديتك يا هُدى، كل عام وأنتِ بخير يا حبيبتي، وهذه لك يا سالم، وهذه للأستاذ مهاب.

- ونحن يا أبي!

نطقا بها في نَفَسٍ واحد كلٌّ من فرحة ويحيَى؛ فابتسم لهما يوسف وحضنهما.

- أنتما لكما كل شيء يا أحبّتي، هيا بنا للداخل، سأريكما ما أحضرت لكما من هدايا.

ثم تحرك للداخل وسبقه طفلاه بسرعة بمجرد سماع صوت أمهما التي وقفَت داخل البوابة.

- ألم أخبركما مئات المرات بألّا تلعبا مرة أخرى في هذا الشارع ومع هذه الأطفال، هيا للداخل.

جـزّ يوسـف عـلى أسـنانه مـن شـدة ضيقـه، ولكنـه امتنـع عـن الحديـث رغبـة في عـدم الدخـول لحديـث يعلـم منتهـاه؛ فجميلـة زوجته لـن تتغـير، تخطـى البوابـة للداخـل وهـو ينفـث ضيقـه.

- كل عام وأنت بخير يا حاج يوسف.

التفَـتَ يوسـف إلى الصـوت القـادم مـن بـاب المدخـل، ليجـد فلاحًـا مـن فلاحِـي القريـة ممـن يقترضـون منـه المـال بفائـدة محـدّدة وتُسـدّد عـلى هيئـة أقسـاط شـهرية، أجابـه:

- وأنتَ بخير، أأنتَ مرة أخرى؟

- أرجـو أن تُتيـح لي الجلـوس ولـو لوقـت قليـل معـك، وأعـدك أنهـا آخـر مـرة، كل عـام وأنـت بخـير.

نظـر لـه يوسـف بإشـفاق لحالـه؛ فالرجـل في حالـة يُرثَـى لهـا مـن ملابـس وهيئـة وفقـر، أدخلـه إلى الاسـتقبال وجلسـا، بكَـى الرجـل بحرقـة متوسـلًا يوسـف أن ينتظـر عليـه لبضعـة أسـابيع أخـرى؛ لسـداد الأقسـاط المتأخـرة عليـه، ولكـن الرفـض التـام هـو الـرد، أصر يوسـف عـلى موقفـه، بكـى أكثـر وأكثـر، مـا أصعب بـكاء الرجـل! ما أصعبهـا الدمـوع؛ ففيهـا تنهـار قوتـه، لا يبكـي الرجـل إلا في حالتـين؛ يبكـي حـين يكـذب أو يبكـي حـين تنهـار كل حصونـه، ولا يتبقّـى لـه حيلـة، فـإن كان ألم الـولادة لا شيء يضاهيـه، فبـكاء الرجـل لا شيء يعادلـه، بكـى مسـتعطفًا إيـاه؛ فهـو رجـل ضعيـف فقـير لا يمتلـك

شـيئًا، فقـط يمتلـك المـرض، وقـد صرف كل مـا معـه مـن مـال.

- بحق هذا العيد المبارك، أعني.. انتظر فترة أخرى.

هكـذا تحـدث الرجـل ثـم تحـرك خارجًـا يجـرّ الخيبـة معـه واعـدًا بأنـه سيسـدّد الأقسـاط خـلال يومـين، تركـه يوسـف يرحـل متقبـلًا الانتظـار يومـين وليـس أكثـر، يكفـي مـا انتظـره لأكثر من سـتة أشـهر تأخـير، تحـرك الرجـل حامـلًا شـكواه ووجعـه وألمـه معـه وخـرج.

تأثـر يوسـف بعـد أن رحـل الرجـل، تأثـر بدمـوع الرجـل ووجعـه، وشـغَلَه التفكـير، جلـس عـلى الأريكـة شـاردًا فيـما سـيفعل وفي معانـاة ذلـك الرجـل، وقـد انقضَّـت عليـه الآراء التـي أخـبره إياهـا العمـدة بمـدى حرمانيـة الربـا، وبـدأَت الحـرب الطاحنـة داخـل رأسـه متسـائلًا ومجيبًـا نفسـه:

- ولكنـي لا أتسـبّب في أذى لأحـد، إننـي أُعطِـي المـال كسُـلفَة لفـترة مـن الزمـن، ثـم أسـتردّها بفائـدة محـددة، كأننـي بنـك يقرضـك.

ابتسم مكملًا:

- إننـي أسـاعد قـدر الإمـكان، إننـي إذا اسـتثمرتُ تلـك الأمـوال في عمـل لعـادَت عـليّ بفائـدة أكـبر، فـما أفعلـه هـو عمـل كعمـل البنـوك! ثـم إن الاسـتثمار فلسـفة.. فلسـفة قـد تُقبَـل أو تُرفَـض، التجـارة لا حـلال فيهـا أو حـرام، إنهـا خدمـة تُقـدّم بمقابـل، هكـذا أفعـل وسـأفعل ولـن أتوقـف؛ فالاسـتثمار لا عواطـف

بـه، الجميـع يعمـل ويسـتثمر ليسـتزيد، ويسـتزيد تأمينًـا للأيـام القادمـة لـه ولأولاده وأحفـاده، فـلا أحـد ينظـر لأحـد ولا أحـد يهتـم لأحـد... هـذه هـي الحقيقـة.

هكـذا ختـم حديثـه الداخـلي، رافضًـا نصائـح العمـدة، ولكـن انقضَّـت مـرة أخـرى عليـه ملامـح الرجـل ودموعـه وضعفـه،

- هـل أتـرك لـه مـا تبقّـى؟ هـل أتـرك لـه جـزءًا محـاولًا مسـاعدته قـدر الإمـكان؟! ولكـن هـذا الرجـل تلـك ليسـت المـرة الأولى لـه، لقـد تركـتُ لـه جـزءًا مـن قبـل وهـو لا يتّعـظ؛ فهـو يـصرف مـا معـه عـلى الخمـر والقـمار! هـو لا يسـتحق المسـاعدة، وإن تركـتُ لـه مجـددًا؛ فذلـك سـيفتح عـليّ بابًـا لـن أعـودَ قـادرًا عـلى غلقـه فيـما بعـد، فربـما يحـذو الجميـع حـذوه آملـين في أن أتـرك لهـم مـا لي مـن مـال لديهـم! تلـك الأمـوال أمـوالي وأمـوال أولادي، رزقـي وتعبـي، لا.. إن كان يسـتحق كنـت سـأترك لـه مـا تبقَّـى عليـه، ولكنـه لا يسـتحق، لا أرغـب في فتـح طريـق لا أرغـب في سـيره، ولكـن ألَمَ الرجـل ووجعـه ودموعـه التـي ذرفهـا شـعرت بحقيقتهـا، نعـم... لكنـه رجـل ثعلـب، يفعـل هـذا في كل مـرة.. ومـع الجميـع.

هـز رأسـه يمينًـا ويسـارًا يوسـف محـاولًا طـرد تلـك الأفـكار مـن عقلـه، ثابتًـا عـلى اسـترداد أموالـه؛ فهـذا حقـه، وهـذا الرجـل لا يسـتحق، ولكنـه لـن يتحمـل معانـاة هـذا الرجـل، ربـما سـيترك لـه مبلغًـا ممـا عليـه، هكـذا اقتنـع عقلـه، تغـيّرَت حينهـا ملامـح وجهـه

وكأنـه حصـل عـلى الحـل المريـح؛ فابتسـم!

- بالتأكيـد لـن تتنـازل لـه عـن أي مبلـغ كعادتـك، نعـم.. سـتحصل عـلى المبلـغ كامـلًا وإلا سـتقدمه للحبـس، يجـب أن تفهـم، فهمت! وهـذا كلام نهائـي لا فصـال فيه.

الْتفَـتَ للصـوت ليجـد جميلـة أمامـه وقد خرجَـت من الحائـط الذي تتنصّـت خلفـه، تبدّلَـت ملامحـه، ودون دخـول في جـدال عقيـم أجاب:

- إن شاء الله، فليقدم الله ما به خير.

وقد عزَم في فكرِه بأن يترك للرجل الدَّين.

جميلـة عـوض أمـين... سـيدة تتخطّـى مرحلـة الأربعـين، ولكنهـا لا زالـت تتمتـع بجـمال صـارخ، سـيدة وتتعامـل بهـذا المبـدأ، تتذكـر دائـمًا أنهـا ابنـة عـوض أمـين مـن أغنـى أغنيـاء القريـة وزوجـة يوسـف النعـماني مِـن أغنَـى أغنيـاء المحافظـة، لا تسـتطيع نسـيان ذلـك ولا يمكنهـا تقبّـل التعامـل كبقيـة البـشر، دائـمًا تتعامـل بتعـالٍ وكبريـاء، ومـا يسـاعدها أكثـر بنيانهـا الجسـدي، مثاليـة القـوام، يتخطّـى طولهـا ١٦٥ سـم، لا تقبـل ارتـداء الملابـس كباقـي السـيدات في سـنّها مـن القريـة؛ جلبـاب أو عبـاءة بألـوان سـوداء أو كحليّـة، ولكنهـا ترتـدي دائـمًا مـا يتماشَـى مـع وضعهـا الاجتماعـي؛ فهـي ترتـدي فسـاتين بألـوان مختلفـة، حديثهـا دائـمًا مـن أنفهـا! لا تفارقهـا لزمتهـا الشـهيرة «يجـب أن تفهـم، فهمـت!»

سرايا يوسف النعماني، بني آدم ١\١٢\٢٠٠٠م

يجلس سيف المنصوري قُبالَة يوسف النعماني وجميلة، يخيّم الحزن على الجميع، صدمة أصابت الجميع، أفقدتهم القدرة على التعبير؛ فلا كلام يعبّر ولا حزن يوفِّي.

اكتسَت ملامح يوسف بالحزن لفقدانه صديق العمر، مات العمدة البلتاجي منذ ثلاثة أيام، أسنَدَ رأسَه المليئة بالهم الثقيل على يديه المتشابكة وكأنها تتشبّث ببعضها البعض لكي تتمكن من حمل همه الثقيل معه، ترك عينيه تغمض، أخذ نفَسًا عميقًا ثم أخرجه؛ لعل هذا يريحه قليلًا، ثم عاد بذاكرته لتلك اللحظة المشؤومة... استيقظ الجميع منذ ثلاثة أيام على صوت صراخ آتٍ من سرايا البلتاجي، صراخ وفي قرب الفجر، كيف هذا وماذا هناك؟! ماذا حدث؟! ما هذا البيت الذي لا يفارقه الصراخ؟! لا يفارقه حزن وصور معلقة على كل جدار تحيِي ذكرى مَن رحلَوا، كم عددهم؟! كثير جدًا، في وقت قليل رحل أفراد الأسرة واحدٌ تلو الآخر؛ نادر.. ثم زوجته.. والآن البلتاجي، ماذا فعلتم حتى يبتليكم الله هكذا؟! لا أحد بقِيَ سوَى هذا الطفل الصغير منصور! فتح عينَيه ورفع رأسه لينظر الطفل بجواره وهو لا زال غارقًا في التفكير كغريق يصارع للهروب من الأمواج وهو في

منتصف البحر، دقّق النظر في الطفل وهمس داخله:

- منصور، ماذا ستعاني يا بني؟ كل من كان يستطيع نصرك رحل وبقِيتَ وحيدًا، ماذا صنعت أيها الصبي حتى يبتليك الله بالوحدة؟!

أخذَ نفسًا عميقًا ثم أخرجه، أغمض عينيه وأعاد رأسه للرّاحة على تشابك يديه، وأكملت الأمواج التي تقذفه لبعضها البعض، "كم تحمّلتَ يا بلتاجي من وجع الفراق؟! كم تحمّلتَ من الهموم؟! كم عدد الصفعات التي تلقَّيْتَها؟! كيف تحمّلت؟! قذفتك أمواج الحزن والموت من صخرة لصخرة، زوجتك ثم ابنك تليه زوجته، والآن أنت، هل أَنهكَتْكَ الحياة فرفعتَ رايتَك؟! استسْلَمتَ يا رجل أم أنك لم تعد تتحمّل؛ فانهَرتَ وتقبّلتَ أن ترحل هكذا؟!"، نفض رأسه بقوة محاولًا التخلص من همه الثقيل والفكر الذي يحاصره كجزيرة نائية، تحدّث بصوتٍ عالٍ لعل التحدث ينقذه:

- الرجل لم يخرج بعد من الحزن الذي انتابه على وفاة ابنه وزوجته خلفه، همٌ ثقيلٌ وابتلاء لا يمكن تحمله، أحقًا يبتليَ الربُّ عبادَه في حدود ما يتحملون؟! إذن.. لِمَ لا يستطيع البعض التحمل فينحرف أو يجن أو يموت؟!

أجابه سريعًا سيف:

- لله الأمر يا يوسف، نرضَى بقضاء الله ولا نعترض.

ثم خيم الصمت على الجميع.

أعاد كل شخص المشهد أمام عينيه بمخيلته، حين استيقظ الجميع مهروعِين تجاه السرايا، وكانت الطامة الكبرى؛ لا صوتَ ولا نبضَ للعمدة، تحرك يوسف مسرعًا تجاه منزل الطبيب الموجود بالوحدة الصحية للقرية، أيقظه من النوم واصطحَبَه للكشف على البلتاجي، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير..

- البقاء لله.. العمدة مُتوفَّى منذ أكثر من ساعتين.

سقطت الكلمات على الجميع كصاعقة كهربائية لم تعطِ فرصة لأحد للتفكير أو الكلام، كأنها قبضت الأرواح وهربت، لا زال المشهد يتكرر أمام أعين الجميع وفي مخيلتهم.. كوابيس لا تفارقهم... الموت قريب، نهشَ أسرة كاملة ولم يترك سوى طفل لا يدرك بعد، من سيتولاه؟!

- لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، الموت ليس له عزيز، وحدُّوا الله.

قطع بها سيف المنصوري صَمْتَ الجميع.

- ونعمَ بالله، وكأنّه كان يشعر، قد باع لي السرايا منذ أيام وأخبرني أن أهتم بمنصور وأن أتمّم البيع بعد وفاته وأجعلها

وديعة لمنصور، الحزن يكاد يفتك بقلبي لأجلك يا بلتاجي.

هذا ما تمكن يوسف من قوله وهو ينظر لسيف ثم صمت، لم يستطِع إكمال بقية الجملة أو ما قيل كاملًا، فقط تذكّره في مخيلته حين أخبره البلتاجي:

- أعلم أن نهايتي قريبة؛ فالأحزان أطفأت روحي، والموت يناديني، سأبيع لك السرايا يا يوسف، أنت فقط من أأتَمِنُه؛ فسيف لا أمان له وسيطمع في منصور، ولا أمان على الصبي من أحد، منصور في رقبتك.. اعتنِ به كيحْيَى وفرحة.
- الولد سيظل معنا وسوف أرعاه بنفسي، لا تحمل همَّ هذا يا يوسف.

هكذا نطقَت جميلة؛ فالجميع رفض تحمّل مسئولية الطفل، فلا أقارب إلا قليلين، ورفض الجميع! ولِمَ يتحملون مسئولية طفل وكل ما يمتلكه أصبح في يد يوسف النعماني؟! لم يعد الطفل فريسة مغرية لأحد، لم يعد هناك سوى يوسف النعماني نفسه وجميلة زوجته.

«كل شيء يحدث بسبب.. ولسبب»

جوزافين

ساق البامبو . . سعود السنعوسي

الفصل الثاني

شبرا مصر

شارع جزيرة بدران، شبرا مصر، منزل إحسان عبد المنعم ٥\٥\٢٠٠١م.

- تستمر الحياة، الحياة لا تتوقف، يجب أن نتعلم التكيّف والتأقلم؛ فالحياة لا تنتظر أحدًا! تكفي الدموع.. تكفي الأحزان، تماسكِ وابدئِي مرة أخرى يا عزيزتي.

هكذا تحدث إحسان إلى زوجته نادية.

إحسان... رجل تخطّى من العمر الخمسة والأربعين، خرج على المعاش المبكر لتدهور حالته الصحية، ولم يعد قادرًا على ممارسة مهام عمله، كان فيه مديرًا لمدرسة ابتدائية، خرج ليستريح، يعيش وحيدًا مع زوجته نادية، رجل فاضل، يحترم الجميع والجميع يحترمه، أصلع الرأس، نحيف الجسد، لديه شارب خفيف، حليق الذقن، أحنَى الزمن ظهره قليلًا، ولكن لم يحنِ فكره، حركته ثقيلة بفعل المرض الذي انتشر كهجوم استعماري فاشي.

منذ ستة أشهر تُوفّي والد نادية أثَرَ حادثة سير؛ ممّا أثّر في حالة نادية النفسية التي ساءت أكثر، خاصّة تأثرها بعدم الإنجاب، لم

يخـتَر إحسـان ولـو مـرة واحـدة أن يتـزوج غيرهـا أو أن يتـزوج مـرة أخـرى.

نادية... قصـيرة ونحيفـة، شـعرها أسـود اللـون، ناعـم الملمـس، قمحيـة البـشرة، عينـان بنيتـان واسـعتان، جميلـة، صوتهـا رفيـع ورقيق، ورثَـت عـن والدهـا الأخـلاق الكريمـة والكـرم والحـب للجميـع، أنهَـت دراسـتها بكليـة الهندسـة وعمِلَـت مهندسـة معماريـة بإحـدى الـشركات، أصابهـا الاكتئـاب بعـد وفـاة والدهـا.

نظرت إلى إحسان وهى مترددة، ثم تحدثت:

- إحسـان، أنـت وفِيٌّ مخلـص، وأعلـم كـم قاسـيتَ مـن أجـلي! رفضـتَ الـزواج ورفضـت تركِـي، قاومـتَ الجميـع وأفكارهـم ولا زلـت جانبـي، لـو كان غـيرك لَمَـا فعـل هـذا، ولكـن لـديّ طلـب وحيـد وأرجـو ألّا تمانـع في تنفيـذه، هـذا الطلـب هـو الوحيـد القـادر عـلى إعـادتي إلى الحيـاة مـرة أخـرى.

أجابها سريعًا وبقوة ووضوح:

- لم أفعـل شـيئًا، هـذا الطبيعـي.. فـإن كنـتِ أنـتِ مـكاني كنـتِ سـتفعلين مـا فعلـت، بـل وأكثـر، اختيـارِي مـا هـو إلا انعـكاس لاختيـارِك، هـذا مؤكـد لي، لـكِ مـا تتطلبـين، إلّا أن تطلبـي منـي التفكـير في الـزواج، أنـتِ زوجتـي.. شريكتـي، مـن جمعنـي بهـا الله، وهـو مَـن مَنَـع الأنجـاب، وهـو مـن لـه حكمـة في هـذا وأنـا

آمنت وتقبلت، إذا كان لكِ طلب آخر؛ فسأبذل قصارَى جهدي لتحقيقه، أخبريني إياه.

صمتَت قليلًا وأخذت نفَسًا عميقًا، كأنها ستفقد القدرة على التنفس فيما ستتحدث، وانهمرت الدموع على وجنتيها دون توقف.

- أتمنى أن تتزوج، رغم أن هذا يذبحني ببطء، ولا أعترض على منع الله عني الإنجاب؛ فهذه حكمته وقد تقبلتُ بكل إيمانٍ ورضَا، له الحمد، لكني في النهاية سيدة، أرغب في شعور الأمومة، هذا الشعور يكاد يقتلني كلما رأيت أمًا تداعب طفلها، كلما سمعتُ طفلًا ذكر "أمي"، يكاد الحرمان يقتلني، أكاد أُجنّ يا إحسان، وبعد وفاة أبي سأُجنّ أكثر إن ظلمتُك معي أكثر من هذا، كل ما أرغبه أن أشعرَ هذا الشعور؛ فإن تقبلتَ أرغبُ في أن نتبَنَّى طفلًا أقوم برعايته.

صمتَت عن الكلام واستمر بكاؤها، تحرك إحسان عن كرسيّه بصعوبة بالغة، ثم احتضنها وقبّلَ رأسها وأجابها:

- لكِ ما تريدين يا عزيزتي، في الغد نتحرّك أنا وأنتِ إلى دور رعاية الأيتام في الشارع الخلفي ونتعرف على الأطفال، ولكِ ما تريدين، جزاكِ الله عنه خيرًا ورحمة.

- صدقًا يا إحسان، أموافق أنت؟

- موافـق يـا عزيـزتي، هـل مـن عاقـل يقـول للخـير لا، هـل مـن عاقِـلٍ يخـبر لا لشـخصٍ أراد أن يوهـب آخـرًا حيـاة، هـل تعرفـين عـن زوجـك هـذا؟

ثم ابتسم، قفزت نادية عن كرسيها طفلة فرحة.

- بالطبـع لا، أعلَمُـك جيـدًا، أعلمـك أكثـر مـن نفـسي، أطـال الله لي في عمـرك.

احتضنَتْه وقبّلَته وضحكَت كطفلة صغيرة.

شبرا مصر، القاهرة، دار الأمل لرعاية الأيتام ٦\٥\٢٠٠١م.

ابتسـمَت نادية للمسئول ابتسامة لم تكن حقيقية، ابتسامةً مثل أغلب الابتسامات المصطنعة، تحمل خلفها همًا كبيرًا جدًا، كانت ترغب في الانفجار والبكاء، ولكنها تمالكَت أعصابها قدر ما تمكنت، انتهَى السلام وتحرّكَت للرحيل من الدار هي وزوجها إحسان الذي كان يحاوطها بذراعه لعلّه يهوّن عليها أوجاعها، يعلم ما بداخلها، يكفِي نظرة عابرة لعينيها ليكتشف كل المشاعر والكلمات المختبئة خلفهما، يعلمها جيدًا، لم تكن نادية مجرد زوجة، بل كانت كل شيء؛ زوجته.. ابنته.. أمه.. حبيبته، كانت الحضن المريح والروح التي يستمد منها الحياة، تذكر.. منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا حين وقفَ لأهلِه بقوة رافضًا فرضَهم عليه بأن يرتبط بابنة خاله، مفضّلًا تلك التي أحبّها بقلبه، وعهِدَ إلى نفسه واليها بأنه لن يشارك غيرها الحياة حتى الممات، تذكر حين أصروا على رفضهم لها وتمسّكهم بابنة خاله، وكيف أنه رحل وتزوج نادية، وتحمل المعاناة وحيدًا في البحث عن غرفة صغيرة تأويهم فوق أحد الأسطح، شرب المُرَّ والهوان، وكيف كانت أصيلة تحمّلَته وحملَت معه الهم، وساندته حتى تمكنوا من الوقوف على أقدامهم دون الاحتياج لأحد، تذكر كيف

عايـرَه الجميـع؛ والدتـه.. والـده.. الأقـارب، كل مـن كان رافضًـا لزواجـه بأنـه لم ينجِـبْ طفـلًا يحملُـه عندمـا يشـيخ، أو طفـلًا يخلّـد اسـمه، والآن ابنـة خالتـه تنعـم بحيـاة رائعـة وثلاثـة أطفـال، تذكّـر حـين حـاول الجميـع اسـتغلال منـعَ الله الإنجـاب عـن زوجتـه وإعـادة طلبهـم بالبحـث عـن عروسـة أخـرى للـزواج والإنجـاب، ولكنـه أصرّ بالمُـضيّ قِدَمًـا في رحلتـه، وأن يظـلّ عـلى عهـده مهـما كلّفـه مـن ثمـن، لـن يشـارك أحـدًا آخـر في حياتـه حتـى المـمات غيرهـا.

عـاد مـن شروده ولا زال يحـاوط خصرهـا بيـده ويسـيرا ببـطء، وقـف، نظـر لعينيهـا التـي بـدأت في الرقرقـة بالدمـوع، يعلـم أنهـا سـتنفجر بـكاءً دون الحاجـة إلى سـماع صـوت بكائِهـا، وقـف أمامهـا ومسـح بيديـه دموعهـا التـي بـدأت تنسـاب، ثـم نظـر إلى عينيهـا مبـاشرة قائـلًا:

- أعلـم أنـكِ أحببـتِ الأطفـال جميعًـا داخـلًا، وأعلـم أنـك لم تجـدِي الطفـلَ الـذي تجديـن معـه ضالتـك، ولكـن.. أنـا أعاهـدك.. سـنظل نبحـث حتـى تجِدِيـن، لـن أتـركِ تبكِـين وأنـتِ تعلمـين مـدى صِـدقَ كلمتـي، تعلمـين أم لا؟!

وابتسـم، فتوقفـت عـن البكاء وارتمـت في حضنـه مبتسـمة وأجابته:

- أعلم.. أعلم.

القطار، بني آدم، القاهرة، بعد منتصف الليل، ١٠\٥\٢٠٠١م.

بالمقعد رقم 34 بالعربة السابعة بالقطار ينام الطفل منصور في أمان تام مستلقيًا على قدمِ عمه يوسف النعماني كقطة صغيرة، يحتضنُه وتمتلِئُ عيناه دموعًا طفيفة فضّلَ حبسها عن إطلاقها، يتحرك القطار بسرعة، ولكن ليوسف كأنه لا يتحرك، اللحظة تمرّ عليه كدهر، غالبَ الفكرُ عقلَه.. شتّته عن النوم، لم يُغمَض جفنُه منذ أول أمس، آثار الإجهاد والإرهاق طبعَت لونًا أسودَ أسفل عينيه، رغب لو تمكن من قول لا؛ فبعض ال "لا"، بعض الصدام، بعض العنف وبعض التشبث بالرأي مطلوب، وخاصةً في مواقف كهذه، كيف استسلَم؟! كيف لم يحاول مرات أخرى؟! يشعر وكأن ذنب هذا الطفل سيظل عالقًا في رقبته طيلة الحياة، وحتى بعد الموت، ولكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ حاول قدرَ ما أمكنه وأكثر.

- الرب شاهد أني لم أقصّر يا منصور تجاهك، الرب عالم.

قالها بصوت يكاد يسمعه هو فقط، وكأنه يرغب في أن يسمعه الطفل ويعِي جملته، عاد برأسه إلى الخلف ساندًا إياه على الكرسي مثبتًا نظره في سقف عربة القطار، ثم شرد بعيدًا.. بعيدًا جدًا.

*****

- إياك أن تفعل هذا مرة أخرى أيها الطفل الغبي.. إياك.

قالتها وهي تضرب منصور على ظهر يده، لم يمنعْها صوت بكائِه، لم يمنعها من تعنيفه، ظهر حينها يوسف قادمًا من الخارج؛ ليخلّص الطفل من يديها، متحدثًا إليها بغضب:

- ماذا بكِ؟! أجننتِ؟! ألم نتحدّث أكثر من مرة بألّا تضربيه؟! إنه طفل يتيم، ألَا تفهمين؟!

- وهل لأنه يتيم أتركه يجور على حق أبنائي؟! هنا الحق وكل الحق فقط ليحيى، إن أردتَه أنت أن يحيا هنا فحقّه أقل منهما، لن أترك أحدًا يجور على أبنائي في حريتهم أو ألعابهم، أو أي شيء آخر، يجب أن تفهم.. فهمت!

اعتدل ليصبحَ وجهه لوجهها، ثم أجابها:

- هذا طفل لا يعي ما تقولين.

ثم أشار لفرحة وهي تبكي جانبًا، وهو يجزّ على أسنانه ولا زال ينظر لجميلة:

- تعالِي يا طفلتي، قبّلي منصور وأخبريه أنك تحبينه.

هكذا فعلَت فرحة، اقترب حينها يوسف من زوجته بغضب وأخبرها:

- أرأيتِ؟! إنهم مجرد أطفال، نحن من نزرع فيهم الحب والكره،

القُـرب والبعـد، الالْتحـامَ والتفرقـة، مجـرد أطفـال، أوراق نحـنُ مـن نملأَهـا، إمـا بكتابـة جميلـة، أو بعشـوائية مقـززة، فهمـتِ؟!

غضبـت جميلـة أكثـر؛ فـلا ترغـب في أن يعلّمهـا أحـد، لا تقبـل الهزيمـة في أي حـوار أو نقـاش، غضبَت ثـم نظرت إلى يوسـف، ضاقَت عيناهـا، جـزّت عـلى أسـنانها ورفعَـت سـبابتها في اتجاهـه، وأخبرتـه:

- لم يعـد للطفـل هنـا أي مـكان، أقاربـه كثـيرون، مَـن أراد رعايتـه فليتفضـل، أمـا نحـن فـلا مجـال لـه هنـا، وسـأكرّرها مـرة أخـيرة كـما أخبرتُهـا لـكَ الكثـير مـن المـرات، هـذا الطفـل غـير مرغـوب وجـوده هنـا، إمـا أنـا والأطفـال، وإمـا هـو! سـأذهب لأبي الليلـة وسـأبيت هنـاك، وفي الغـد سـأعود، إذا وجدتُـه فسـتكون النهايـة، يجـب أن تفهـم.. فهمـت!

لم تنتظـر الإجابـة وقبضَـت عـلى يـد فرحـة ويحيَـى الـذي نظـر لمنصـور بغضـبٍ ورحلَـت بهـم!

احتضَـن يوسـف منصـور وأزاح عنـه حزنـه بإعطائـه مبلغًـا يجلـب بـهِ بعـض الحلـوى، ثـم أوصَى عليـه الخادمـة ورحـل إلى سـيف المنصـوري، أخـبره بـما حـدث ولا يـدري الآن مـاذا يفعـل! واقـترح عليـه أن يأخـذ الطفـل ويرعـاه وينـال ثـواب تربيتـه، ولكـن الرفـض كان هـو الـرد الواضـح النهائـي لسـيف؛ فـلا يرغـب بأطفـال أخـرى تزاحـم أطفالـه.

طفل صغير بلا أب ولا أُم ولا جَدٍّ، طفل بلا قريب ولا مهتم، لم يرتكب شرًا، لم يعاند إلهًا، لم يطمَع في شيء، ماذا فعلَ لينقلب عليه الجميع؟! ماذا فعل هذا الطفل البريء حتى لا يجد من يحنو عليه؟! هكذا دار في ذِهن يوسف، الجميع رفَض استضافته ورعايته، هذا الطفل في رقبتِه.. لقد وعد البلتاجي، أيحنثُ بوعده الآن! شرد حتى أعاده للواقع صوت سيف المنصوري وهو يقترح:

- الرأي الأفضل الذي أراه هو أن تقوم بإيداعه في دور رعاية للأيتام، هذا هو المكان الأنسب له؛ فهناك سيتلقى الرعاية والاهتمام المناسب.

نظر يوسف بتعجب له:

- أنتركه في دار رعاية أيتام، أيصِحُّ هذا يا سيف؟!

عاد سيف وبقوة، وكأنه يدرك أن يوسف سيقتنع...

- نعم، بل ودار رعاية بعيدة عن هنا، هذا هو المكان الأنسب، هذا الطفل سيكون مطمعًا للجميع بسبب ما ترك له جده من مالٍ وأراضٍ وأبنية، الحل الأنسب هو وضعه في دار رعاية، وأن ترسل له مبلغًا من المال كل فترة زمنية لتسديد احتياجه والتبرع للدار، حينها سيضاعفُون رعايتهم واهتمامهم به، وتعود جميلة للمنزل وتُحلّ كل الإشكالات التي تؤرقك، ماذا قلت؟!

وضع يوسف يدَه فوق فمه، وارتفع بنظره لأعلى يفكر فيما سمع، وفي بضعة ثوان أعاد نفسه للوضعية الأولى، ثم هز رأسه مجيبًا:

- هذا هو الرأي الأصلح.

*****

عاد من شروده وغضبه وبؤسه ووجعه حين أيقظه الكمسري طالبًا رؤية التذكرة، أخرجها له وابتسم، ثم نظر للطفل الذي استسلَمَ للنوم تمامًا، ولِمَ لا وقد حمل هذا الطفل ما لا يحتمله أحد؟! اقترب بوجهه من رأس الطفل، ثم همس في أذنه:

- أرجو أن تسامحني يا صغيري، وأعدُك أنني لن أتركَك وحيدًا، هذا وعدي وعهدي.

ثم انخفَضَ برأسه وطبَع قبلته على جبين الصغير.

مر الوقت بعد طول عناء ليوسف، وصل إلى القاهرة، خرج من المحطة حاملًا على يده منصور الذي لا زال غارقًا في نومه محتضنًا حقيبته، اتّجهَ إلى جانب الطريق مشيرًا إلى سيارة أجرة، استقلّها متجهًا إلى دار الحياة لرعاية الأيتام بشبرا.

شبرا مصر، القاهرة، دار الحياة لرعاية الأيتام ١٠\٥\٢٠٠١م

لافتة كُبرى أعلى بوابة حديدية وسور مرتفع دُوّن عليها (دار الحياة لرعاية الأيتام)، ترجّل يوسف والطفل من السيارة، ألقَى نظرة على اللافتة ثم أكمل مسيره للداخل.

هذه الدار السادسة والتي لم تجِد نادية ضالتها بعد، سرق الأطفال قلبها، ولكنها لم تجد من تراه ابنها لبقية العمر، شيء ما يخبرها أن الطفل الذي تبحث عنه، ولم تجده بعد، ربما بسببه غلق الله رحمها لترعاه! حان وقت بكاءِها كالعادة، وكالعادة يهوّن وجعها إحسان، تعبا الاثنان من الحركة وانتهى الكلام مع المسئول عن الدار السيد مرجان السيد، تقدّم معهم الرجل لإيصالهم حتى بوابة الدار، متمنيًا لهم التوفيق فيما يتمنّون، وقد تحصّل منهم على تبرع لا بأس به، وفي اتجاههم إلى الحديقة الخارجية أثناء عبور الممر للوصول للحديقة صادفهم يوسف النعماني، ألقى السلام واستفسر منهم على مكتب المدير المسئول، الذي أجابه:

- نعم؟ أنا السيد مرجان السيد، يسعدني خدمتك.

تقدم يوسف مصافحًا إياه بحرارة شديدة وابتسامة كبيرة وارتياح شديد، كمن ارتمَى في أحضان والده بعد عودته من سفر طويل..

- أنا يوسف النعماني، حدثتُك أكثر من مرة هاتفيًا من أجل إيداع الطفل منصور نادر البلتاجي، تحدثنا أكثر من مرة وأخبرتُ سيادتك بكامل التفاصيل وكما اتفقنا، أتيتُ اليوم به وبكامل الأوراق.

هز الرجل رأسه مبتسمًا:

- جيد، اتبعني للمكتب.

ثم ابتسم وقدّم اعتذارًا لنادية وزوجها ملقيًا عليهما السلام وتوديعهما للرحيل، ثم أعاد نظره لمنصور ودعَكَ بيده فروة رأس الطفل، وتحركا عائدان لمكتبه.

- وما هو اسمك أيها البطل الصغير؟

- منصور نادر أيها العم.

وصلا المكتب ودخل الجميع، أما نادية وزوجها قررا التجوّل مرة أخرى في حديقة الدار يمرحا مع الأطفال قليلًا قبل الرحيل.

مر من الوقت أكثر من ساعة، اليوم لا رغبة لدَى نادية في الرحيل وترك الأطفال كعادتها في كل دار تذهب إليها، تلك المرة قرّرَت عدم الرحيل دون طفل، يكفي ملامح الحزن التي كسَت وجهها. فاضت فيها مشاعر الأمومة التي حُرمَت منها ما مضَى ولا ترغب أن تُحرم منها ما بقيَ، الأطفال بريئة وجميلة، ولكنها لم تجد ضالتها بعد، ولا ترغب في العودة فارغة كمن سافر عمرًا

بطولـه وعـاد خـاليَ الوِفـاض، جلسَـت جانبًـا لتفكـر مـا هـو القـرار الـذي سـتأخذه؟

عـلى الجانـب الآخـر خـرج السـيد مرجـان مـن مكتبـه قابضـاً بيـده عـلى يـد منصـور، والطفـل يبكـي في هـدوء يتبعهـما يوسـف وهـو منكـس الـرأس كأنـه تمثـال لا حيـاة فيـه، دبّ فيـه الحركـة السـيد مرجـان حـين سـأله:

- سننتظر من سيادتك التبرع الشهريّ الذي وعدتَ به.

ابتسم يوسف ابتسامة تمثال، مجرد ابتسامة، وأجاب:

- بالطبع مع بَدءِ كل شهر سيصلك المبلغ.

وبـدأ في الرحيـل، انحنـى بتنهيـدة طويلـة عـلى منصـور، وأمسـك ذراعَيـه ناظـرًا لعينيـه:

- سـتكون هنـا في أمـان يـا صغـيري، سـآتي مـن حـين لآخـر لأطمئِنّ عليك .

احتضنـه بقـوة وتَرَقرَقَـت عينـاه، ثـم وقـف للرحيـل، أوقفَـهُ فقـط تشـبّث الطفـل بيـده الـذي ارتفـع صـوت بكائِـه بشـدة؛ ممـا اسـترعى انتبـاه الجميـع، وبالطبـع ناديـة وزوجهـا إحسـان الـذي تحـرك في اتجـاه الطفـل ببـطء وثقـل حركتـه، وركضـت ناديـة بعاطفـة الأمومـة التـي اجتاحـت كيانهـا لرؤيـة هـذا الطفـل الأشـقر ذي العينـين الخضراوَيـن، احتضنَتْـه دون إِذْنٍ وأمطرتـه قُبُـلَات أُمٍّ لطفلهـا الوحيـد، شيء مـا

شـدّها لهـذا الصبـي دون سـابق معرفـة، شيء مـا يجذبهـا منـذ وقعـت عيناهـا عليـه منـذ أكثـر مـن سـاعة، حاولَـت تهدِئتـه، ثـم نظـرَت ليوسـف مسـتفسرة منـه إن كان والـده، محنـي الـرأس لا زال، عينـاه امتـلأَت بالدمـوع، أجابهـا أنـه مـن قريتـه وأنـه يتيـم الأب والأم، ولا أحـد تبقـى مـن عائلتـه عـلى قيـد الحيـاة، وقـد أتـى بـه للـدار هنـا؛ لتعتنـي بـه، لم يكمـل حديثـه حيـث قاطعتـه ناديـة:

- هذا ابني، أنا أتكفّل به، أعطني هذا الشرف يا سيدي.

قامـت بلهفَـةِ أُمٍّ عـاد إليهـا طفلهـا بعـد غيـاب سـنوات طـوال، ثـم انحنَـت عـلى ركبتيهـا وأمسـكت بيـد يوسـف وأمطرتهـا قبلات توسـل أن يسـمح لهـا أن تتكفّل بهـذا الطفل، غالبَتْهـا عاطفتهـا، شيء ما داخلها أراد الطفـل منـذ أول وهلـة رأتهُ فيهـا وهو يدخل مكتب السـيد مرجان.

صمَـت الجميـع، لا أحـد يتحـدث، شردَ يوسـف لحظـات، مـاذا لـو أعطاهـا الطفـل وتابعـه؟ فسـيكون مطمئنًّـا عليـه وتحـت ناظـره، ويجـد هـذا الطفـل أسرةً وونيسًـا؛ فمـن الظاهـر أن السـيدة طيبـة، هكـذا حـدّث نفسـه، وهكـذا أراد إقنـاع عقلـه؛ ليكـفّ عـن شـعوره بالذنـب وتأنيبـه لنفسـه، نظـر للسـيد مرجـان وتسـاءل:

- هل متاح؟

- إذا أردتَ يمكـن أن نضبـط جميـع الإجـراءات هنـا، دخـول الولـد وخروجـه، مـع انتظارنـا أيضًـا للتـبرع.

قالها وابتسم ابتسامة موظّف جشع، وردّ له يوسف الابتسامة، ولكنها ابتسامة هَمٍّ وقد انزاح.

شبرا مصر، القاهرة، منزل إحسان عبد المنعم ٧\١٢\٢٠٠١م

- ما رأيك في هذا الجاكِت يا بركة.

قالتها نادية وهي تجثُو على ركبتيها، وتشاهد الجاكِت على جسد بركة وهي تبتسم وتداعبه؛ ليجيبها الطفل ببراءة الأطفال النقية التي لم تلوّث بعد:

- أنا منصور يا عمة.

لتظهر ملامح الحزن على وجهها، وتقترب أكثر منه وتجلس أرضًا وتحملُه فوق قدمها، وتحدثه بود:

- أنا ماما، ألم نتفق؟! ألستَ تحبّني كما أحبك أنا؟

- نعم أحبك.

- إذن كما اتفقنا تناديني بـ"ماما"، وأنا أناديك بـ "بركة"، إنه اسم جميل مثلك، ما رأيك؟

- موافق يا ماما.

تعود ملامح الفرح وتتنشَّط الدماء في جسدها؛ فتعود الخدود للتورد مرة أخرى وتحتضن بركة بقوة، وتمطرهُ قبُلات أُمٍّ حقيقية، يجلس جانبًا إحسان يتلصّص متابعتهم بنظرة جانبية من خلف

نظارته الطبية والجريدة التي يمسكها دون النظر إليها، ليقوم ويحتضنهم ويشاركهم تلك اللحظات التي تمنّاها كثيرًا، وأخيرًا حقّق الله أمنيته مع المرأة التي يحبها، تحقّق وجود صبي دون الحاجة لزوجة أخرى أو افتراق.

- أليس من حقي أيضًا حضن يا بركة، ألا تحبّني مثلًا؟! إنني حزين.

ويتصنّع وجهًا حزينًا ليركض تجاهه بركة ويحتضنه ويقبّله، ينظر إحسان لنادية التي تبكي فرحًا فيشاركها البكاء؛ لتقترب نادية وتحتضنه وبركة.

- ألم أخبركِ أنني لن أتركِ مهما كلّف الأمر؟ أرأيتِ كيف وهبنا الله ابنًا وبهذا الجمال؟ أرأيتِ نتيجة الصبر والإيمان والثقة؟

لتجيبه نادية:

- نعم رأيت، أنت أعظم من رأَت عيني، يكفي دعمك الدائم، لا أحد يكترث لأحد في تلك الأيام وفي مثل هذه الأوجاع، أنت حب صادق، فليحفظك الله لي وليطيل عمرك لنا.

ليقاطعها إحسان ويتساءل:

- أخبريني.. لماذا اخترتِ أن نسمي الطفل بركة ولا يبقَى كما كان منصور؟!

تنهدت، ثم أجابته بتروٍّ:

- لا أرغب في أن يظل شيء مما مضَى مع هذا الطفل، لا أرغب أن تنغّص عليه حياته القديمة وخسارة فراق جميع أهله حياته القادمة، أرغب في أن يبدأ حياة جديدة كليًا، منزل، أسرة، تعليم، حتى اسمه، كما أن بركة اسم جميل؛ فهذا بركتِي، ألم تراودك تلك الأفكار أنتَ أيضًا؟!

قالتها وغمزت له بعينيها؛ لينظر لها ويبتسم:

- تعلَمِي ما بداخلي دون كلمة واحدة! ولكن أخبريني.. لمَ ظَلَلْتِ محتفظة بالحقيبة التي أتى بها بركة حين رأيناه أول مرة، أليسَت تلك ممّا مضى؟!

لتبتسم له وتحتضن بركة، وتجيبه:

- لا أعلم، ولكن ربما أحتاجها يومًا ما، ويكفي أن بركة يريد الاحتفاظ بها، من الواضح أنها من أبيه أو أمّه، غير بعض الكراسات لطفل يكبرُه غالبًا يدعَى فارس مجدي شلش، هكذا مُدوّن عليها، لا أعلم لمَ يحتفظ بركة بها، يكفيني حديثًا عن الماضي، وإن كان على الحقيبة سأتخلّص منها بعد أن ينام بركة.

نظرت لبركة وتصنعت وجه الأطفال.

- هيا بنا نلعب.

ليبتسم لها الطفل وإحسان، ابتسمَ الجميع وقضوا وقتهم في اللعب حتى حان موعد نومهم؛ لينام بركة في وسطهم، فمن انتظر حلمًا بعيدًا لا يتركه حين يكونُ بين يديه، فكما يحلم الجائع بكسرة خبز، هكذا كان إحسان ونادية.

شبرا مصر، القاهرة، منزل إحسان عبد المنعم ٧\٤\٢٠٠٢م

- إنا لله وإنا إليه لراجعون.

ألقَى يوسف كلمته وهو يشد بيده على يد نادية، معزيًا إياها في ذكرى الأربعين الخاصة بزوجها إحسان، الذي توفي منذ فترة قريبة، انحنَى يوسف محتضنًا الطفل بقوة وهو يبكي ناظرًا له:

- اصغِ إلى كلمات أُمِّكَ يا منصور.

ليجيب الطفل:

- بركة يا عم يوسف.

وينظر مباشرة لنادية وهو يبتسم وكأنه يخبرها، كما اتفقنا، جميلة براءة الأطفال.

ابتسم حينها يوسف ناظرًا لنادية، ثم تساءَل:

- بركة؟ اسم جميل، لكننا لم نتفق على تغيير الاسم!

لتجيبه:

- هذا أفضل للطفل، أن يبدأ حياة جديدة باسم جديد وأسرة جديدة.

- امم، معكِ حق هذا أفضل، أرجو أن تهتمي به، وسيصلك

شـهريًا مبلـغٌ جيـد، وقـد وضعـتُ لـك مبلغًـا جيـدًا في البنـك باسـمكِ؛ لتتمكنـي مـن الاهتـمام بـه.

أجابتـه ناديـة بـأن الطفـل في قلبهـا؛ فهـو رسـالة الله لهـا تعويضًـا عـن والدهـا وزوجهـا الآن، فـالله لم يتركهـا للوحـدة، وقـد أعَـدّ الطفل مسـبقًا ليكـون ونيسـها وطفلهـا، اطمـأَنّ قلبـه ونهـض ثـم خـرج، تحـرك هابطًـا الخمسـة أدوار، ثـم سـلك في طريـق الرحيـل متجهًـا لمحطـة السـكة الحديـد برمسـيس، مـرّت بجـواره سـيارة مسرعـة تسـبّبَت في اتسـاخ ملابسـه مـن مـاء متجمـع في حفـرة، توقّـف مكانـه واغتـاظ كثـيرًا لاتسـاخ جلبابـه، لا يمكنـه تكملـة السـير أو السـفر بجلبـاب متسّـخ هكـذا، فكّـر مليًـا مـاذا يفعـل؟ ثـم عـاد أدراجـه إلى شـقة السـيدة ناديـة، ضغـط الجـرس، فتحـت لـه وأدخلتـه، اعتـذر لهـا ولكنـه شرح مـا جـرى، رحبـت بـه، جلـس في غرفـة الاسـتقبال أخرج حافظـة نقـوده واضعًـا إياهـا عـلى طاولـة القهـوة، فأحـضرت لـه جلبابًـا ممـا كان يرتديهـا إحسـان وأعطتـه إيـاه وأوصلتـه لغرفـة بركـة ليقـوم بتغيـير ملابسـه، واقترحَـت أن يغفـو قليـلًا حتـى تقـوم بغسـل ملابسـه وإعادتهـا لـه، ويمكنـه حينهـا الرحيـل، وافـق عـلى الفكـرة وخلـد للنـوم ناسـيًا حافظـة نقـوده.

انتهَـت ناديـة مـن غسـل وكَـيّ الملابـس لتعـود لغرفـة الجلـوس للاسـتراحة قليـلًا؛ لتجـد بركـة يلهـو بحافظـة النقـود، غضبَـت عليـه قليـلًا ثـم احتضنتـه، لا ترغـب في مضايقـة الطفـل ولا ترغـب أيضًـا

في تركه بدون تربية جيدة، أخذَت منه حافظة النقود لتضَعَها في الجلباب، ولكن انتابَهَا الفضول لمعرفة ما تحتويه، من يكون هذا الرجل؟! أحقًا يخبرها اسمه الحقيقي؟! وهل ما أخبرها إياه عن بركة كان حقيقيًا؟! ولِمَ لا يخبرها بمعلومات واضحة محددة عنه؟ هل يسكن في سوهاج كما أخبرها؟! أخرجت بطاقة الرقم القومي؛ لتجد اسمه كما أخبرها فعلًا يوسف النعماني سالم، اتسعت حدقة عيناها حين وجدت محل السكن أسيوط قرية بني آدم! كذب عليها كما توقّعَت، هناك سر ما لابد أن تكتشفه، وبدون وقت للتفكير قرّرَت نسخ البطاقة والاحتفاظ بالصورة، ثم عادت لتحتضن بركة، احتضنتُه بشدة وقوة لفترة طويلة؛ لتهجم الأفكار عليها وتستسلم لها: "ماذا هناك خلفك أيها الطفل؟ ماذا فعلتَ أيها الصغير؟! هل من أسرار عنك؟ أو مكانك أو أهلك، ماذا يخفُوا عنك وأنت طفل صغير؟!"، لتتنهد وتهز رأسها للتحرر من تلك الأفكار وتنظر للطفل وتضمُّه بقوة أكثر لحضنها، لتهمس لنفسها: "لن أترك أحدًا يؤذيك أو حتى يمسّ شعرة من شعر رأسك ما دُمتُ على قيد الحياة، لا تقلق يا بني".

شبرا مصر... عين شمس، منزل إحسان عبد المنعم ١\٧\٢٠٠٢م

شغلت نادية تلك الأفكار التي راودَتها فيما يخص يوسف النعماني، ظلت لفترة طويلة مشغولة البال، لا تكَلّ ولا تمَلّ من طرح التوقعات والخيال الذي انغمَسَت فيه خوفًا على الطفل التي رغبَت فيه طوال عشرين عامًا منذ علمَت بعدم القدرة على الإنجاب، لا ترغب الآن في فقدانه، جلست تائهة، تحمل على أقدامِها برَكَة يغطُّ في نوم عميق، وأمامها مسلسل "أبنائي الأعزاء شكرًا"، ولكنها لا تنتبه له، عينان زائغتان في سقف الشقة ولكنها لا تنتبه، فقدت الإحساس بالمكان من شدة التفكير والخوف مما قد يصيب الطفل، تعلُّقها الزائد به جعلها تتوجس المخاطر في كل شيء وكل معلومة، صار الطفل بالنسبة لها كل شيء، وبالأخص بعد فقدان إحسان؛ فهو الحارس لهم، ففي وجوده لم تكن تهتم أو تعول همًا لشيء، الآن هي حائط الصد، حائط الأمان لنفسها وطفلها، ماذا تفعل؟! هل تصارح يوسف حين يأتي بأنها تعلم أنه ليس من سوهاج وتطرح سؤالها عليه، لماذا كذب؟! هل هناك سرٌّ ما؟! أو ربما يكون فعلًا من سوهاج كما أخبرها، فربما يكون محل الإقامة ثابت منذ فترة ولم يجدّد بطاقة الرقم القومي الخاصة به! ربما، حينها كيف سينظر لها، ربما يسترد الطفل

ويسيء الظن بها؟! وربما يكون كاذبًا وحينها لن يجيبها بصدق، وما الحل الآن؟!، بالإضافة إلى اختفائِه منذ آخر زيارة والتي تخطَّت أكثر من شهرين ولا تعلم طريقة للوصول إليه، كثرَت التوقعات وازدادت الطرق وتعرقلَت أكثر، ماذا تفعل؟! أخذَت شهيقًا كبيرًا كغريق يبحث عن أكسجين ليتنفس، نظرت لصورة البطاقة التي كانت قد حصلت عليها خلسة منذ فترة، نظرَت إليها كثيرًا وتساءَلَت، ماذا ينبغي أن أفعل؟! كيف أعرف كل ما يخصك؟! قرّرَت التحدث لمدير دار رعاية الأيتام، لعلّه يجيبها، أحضرَت الهاتف من جانبها وشرعَت في طلبه؛ ليجيبها، قدّمَت نفسها له فتذكرها، حاولت سؤاله عن يوسف النعماني، ولكنه لم يكن يملك أية معلومات جديدة عن التي أخبرهم إياها يوسف نفسه، حاولَت بقدر الإمكان ولكنها لم تصل لمعلومة واحدة مؤكدة، تعايشَت مع الأفكار والتوقعات والتي كانت تزداد شراسة كلّما مرّت الأيام واختفاء يوسف، حتى تغيّر محل عملها من شبرا إلى عين شمس؛ فقررت نقل سكنها، حاولَت التواصل مع يوسف، ولكنها لم تفلح وانقطعت الأخبار أو التواصل بينهما، حتى قرّرَت أن تتفرغ بكامل أفكارها وقوتها للاهتمام ببركة؛ ليبدأ فصل جديد للطفل في حياة مختلفة، انتهَى عصر منصور نادر البلتاجي إلى بَرَكَة إحسان عبد المنعم.

لا تستهِن بأحد، مَن كان يومًا طفلًا صغيرًا سيكبر ليصير شابًا يافعًا، ومن كان قويًا سيخور جسده، لا يبقَى أحدٌ كما هو أبدًا.

الفصل الثالث

بني آدم بعد مرور ثماني سنوات

طريق بني آدم _أسيوط، ٢\١\٢٠١٠م

كـبُر أطفـال شـارع الخواجـة، الطفـل لا يظـل طفـلًا، والكبـير لا يظـل كبـيرًا، والمسـئول قـد لا يظـلّ مسـئولًا، أنـتَ لسـتَ كأمـس، مكانـك، شـكلك، ملامحـك، قـد يصـل الأمـر حتـى إلى قيمِـكَ ومبادِئِـكَ وسـلوكِك، الـكل يتبـدل، بالأمـس هنـا بطـول شـارع الخواجـة كانـت الأطفـال تتجمّـع، تركـض هنـا وهنـا، تلعـب ألعابًـا لا تُحـصَى ولا تُعَـدّ، منهـا عـلى سـبيل المثـال وليـس الحـصر (كهربـاء، كـورة شراب، سـبع طوبـات، قفاشـة الملـك، نيكيسـة... إلـخ)، لم تعـد هنـاك أيـة لعبـة مـن تلـك، تغـيّرَت الحيـاة وتغـيّرَت الأجيـال، وتغَـيّرَت الأفـكار، عـلى امتـداد شـارع الخواجـة بجـوار موقـف السـيارات لـ "بنـي آدم" كشـك صغـير بـه سـوبر ماركـت مِلْـكٌ لسـيدة فقـيرة تديـرُه ابنتهـا هـدى التـي لم تتخـطَّ الـسبعة عـشر عامًـا، تُـوفّيَ والدهـا وعمرهـا لم يتخـطّ العامـين، تركهـا وأمّهـا في مواجهـة حيـاة كاملـة، تـبرّع حينهـا العمـدة البلتاجـي بقطعـة الأرض لهـما؛

لتعمل بها الأم خدمَات ومشروبات وبعض المستلزمات الخفيفة بالسوبر ماركت لسائقي الموقف، أو حتى الركاب، وتتعايش من خلاله وقد صار، كبرَت هدى لتحلّ مكان والدتها، كانت بالأمس تركضُ مع الأطفال وتلعبُ وتمرح معهم، اليوم تعمل على خدمتهم، الزمن ما هو ألا صانع التفرقة والتميز الطبقي، تقوم بصنع المشروبات لثلاثة كانوا بالأمس يلعبون معها، واليوم هم يجلسُون في الطاولة الخشبية على ناصية الموقف وهي تخدمهم! أكبرهم سالم سيف المنصوري، يجلس واضعًا قدمًا على قدم، مستريحًا على كرسيّه، يحمل بيدِه اليُمنَى شيشة متنفسًا دخانها، ينهش في كل نظرة جسدها!

سالم سيف المنصوري... أكبر أبناء سيف المنصوري، تخطّى الثلاثين من عمره، شاب عمليّ بشكل مخيف، لا يتعَب ولا يكلّ، في مجال التجارة يعتبر أفضل من يعمل به ببني آدم، تخطّى في العمر الثلاثين عامًا ولا يزال أعزبًا، قاسي الطبع، حاد الملامح، لا يفكر في شيء بالعاطفة، تغلبُه دائمًا فكرة الحسابات والمكسب والخسارة، ورثَ عن والده التجارة، بل وأصبح يستشيره والده سيف المنصوري في كل شيء، وأصبح المحرّك الأساسي له.

يجاوره يحيى يوسف النعماني، يجلس متعاليًا على الجميع، لا يرى سوَى نفسه وأولاد عمه، يعتبر الجميع خدَمه، وجودهم فقط لراحته هو ومَن مثله.

يحيى يوسف النعماني... شاب في نهاية العشرينات من عمره، لم يكن مميزًا في مشواره الدراسي؛ فتحصّل بالكاد على دبلوم فني زراعة، تمكّن من الحصول عليه بمساعدة من والده ومسئول لجنة الامتحانات، جسد رفيع، يتراوح طوله من 170 ل 175 سم، شعره ناعم وطويل بعض الشيء، دائمًا حركته مميزة بانحناء في الكتف الأيمن للأمام؛ فهي تأثر نفسي بوالدته؛ التعالي والكبرياء؛ مما أصابه بتعوّج بسيط في الكتف، يحيى دائم المشاكل والعراك مع الجميع؛ حيث تأثّر كثيرًا بسلوك أمه العدواني والتعالي؛ فدائمًا يرى نفسه سيدًا والجميع عبيد، ينظر للجميع بنظرة فوقية، دائم الشجار؛ مما كان يستدعِي أباه بالدخول وحل المشكلات التي يتسبّب هو فيها، حاول يوسف النعماني مرارًا وتكرارًا إصلاحه ولكن لا فائدة، عنيد وأعوج، متزوج ولديه من الأطفال طفلٌ وحيد، افتَتَح محلَّ مفروشات كبير بالقرية، وفرع آخر في المدينة بالمشاركة مع كريم نصر النعماني.. من بيت النعماني في عائلة السوالم، وابن عمه، بجوار العمل الأساسي الذي أخذه عن أبيه وهو إعطاء فلوس بفائدة محددة، ولكنه غير والده؛ فهو لا يرحم ولا يرى ولا يتفهم ألا فقط المال.. ثم المال.. ثم المال، ما كان يحدّه فقط هو أنه لا يتحكّم في مال والده؛ فجميع الأموال في النهاية تصب إلى والده.

وأخيرًا ثالثهم كريم نصر النعماني، يكتمل دائمًا هذا المثلث

بشكل شبه يومي، كما كان الأجداد، ثم الآباء، والآن الأبناء.

كريم نصر النعماني.. نصر النعماني الأخ المُتَوفَّى ليوسف النعماني، كان عضوًا دائمًا بمجلس الشعب حتى تُوفّي منذ أواخر التسعينات، تاركًا ابنه الوحيد كريم، صاحب أكبر محلات بالتقسيط في بني آدم وأسيوط كاملة، شابٌّ وسيم يرتدي دائماً ملابسَ كاجول وملابس رسمية في الأوقات الرسمية، الشعر الناعم الطويل، العينان العسليتان، الجسد المتناسق الممتلِئُ بالعضلات، النظارة الشمسية التي لا تفارقه نهارًا أو ليلًا، وسيارته الفارهة، شخص من عالم آخر، حلم كل فتيات بني آدم، لِمَ لا وهو يمتلك كل شيء؟! حقًا كل شيء، مال وجاه، عائلة، نسب وحسب، جمال وقوة.

يجلسون الثلاثة بشكل شبه يومي تقريبًا، اجتمعوا اليوم للبَدْءِ في مشروع جديد يجمعهم؛ محل أقساط في بني آدم، كانت الفكرة فكرة كريم نصر النعماني، وقد لاقَت استحسان يحيى وسالم، لِمَ لا والفكرة مدروسة وصالحة لقرية مثل بني آدم؟ وعائدها كبير جدًا، اتفّقُوا على كل شيء، لم يعد هناك سوى بدء التنفيذ، والعائق الوحيد هو يوسف النعماني! يحيى يعلم أن المال عائق في وجوده كشريك في مشروع كهذا، ويرغب بشدة في اقتناص الفرصة، وأثناء شروده اقتربَ منه كريم وطمأنَه بأنه سيتكفل بحل تلك المشكلة؛ فمنذ زمن وهناك مقاطعة بين كريم وعمه يوسف، لا

يتقبل يوسف كريم ولا يتعامل معه منذ فترة طويلة تمتد لأكثر من خمس سنوات، ويراه شابًا متجبّرًا، لا يرحم فقيرًا أو ضعيفًا، وأن ما يسمّى أقساطًا ما هو سِوَى نصبٍ تحت مُسمى شريف، بابتسامة وهدوء تقبل كريم، بل قرّر دفع الجزء الخاص بيحيَى وتقبّلَ أن ينتظر بضعة شهور حتى يتمكن يحيى من توفير المبلغ الخاص بنصيبه في المشروع، لِمَ لا ينتظر ويساعده؟! ليس فقط لأنه ابن العم والصديق، ولكنه الداعم له في ارتباطه بفرحة، وسط هذا الحوار شرد سالم منهما مهتمًا بالنظر متفحصًا بشكل كامل وبالتفاصيل جسَدَ هدى، تتبعها عيناه يمينًا ويسارًا، أسفل وأعلى، كبرَت هدى وأصبحَت أنثى كاملة الأنوثة، بدأ في الانتباه لها منذ فترة ليسَت بالبعيدة، لم يقطَع عليه تركيزه سوى كلمات يحيى:

- إنها كاملة الأنوثة، أراك تفكّر، هل صحيح؟! ألم تجد سوى تلك؟!

لينتبه سالم فيعود إلى جلسته المتسلّطة بعد أن كان قد استسلم لبعض الأحاسيس مجيبًا يحيى وهو يغمز له:

- سأحولها للملكة، لا تقلق.

ثم يبدأ في النهوض، ويقدّم لهما اعتذارًا ليرحل إلى عمل هام قد نسيه، وإن ظلّ هنا فإنّ هذه الفتاة ستُنسِيه ما ينتظره؛ فضحك الجميع ورحل، ليعود الحوار للبَدْءِ من جديد بين يحيى وكريم،

يرغب كريم في الارتباط من فرحة، ويظل يوسف النعماني عائقًا كبيرًا في إتمام الارتباط، ليعِدَه يحيى بأنه لن يهدأ له بال ألا وعقد الزواج في يد كريم، ويكفِي أن هناك استلطَافٌ بينه وفرحة، طالبًا منه الصبر؛ فالصبر جميل طالما النتيجة محتومة؛ ف فرحة لكريم وكريم لفرحة.

طريق بني آدم _أسيوط، ٢٠\١\٢٠١٠م

تخطّى فارس مجدي شلَش من العمر العشرين عامًا، لم يكُن يفتخر بمهنة والده، كانت بالنسبة له سلسلَة حديدٍ ثقيلة تطوّق رقبته، توصِمُه بالعبد، لا يفعل أو يتكلم أو يُستشَار، فقط كل ما عليه هو أن يعمَل وأن يخدِم مقابل قوت يومه، شرخٌ كبير يزداد يومًا وراء يوم بين فارس ووالده مجدي شلَش الذي وجد نفسه منذ الصغر خادمًا كأبيه لدى بيت سيف المنصوري، اعتاد على هذا، لا يعلم ما هذا الطبع المتمرد القاسي الذي تطَبَّع به فارس منذ صغره، حاول ترويضه ولكنه لا يفلح، ابن عاق.. هكذا يراه، وأب سيء ضعيف.. هكذا يرى فارس أباه، جلسا الاثنان كثيرًا محاولة منهم للتوصّل إلى حل يُرضِي كلّا منهما، يرغبُ فارس في ترك والده الخدمة والبدءِ بمشروع خاص صغير، ويرى والده أن تلك مهنته لا عَيْبَ فيها، وأنها مُرضيَة بالنسبة له؛ ليقبل فارس أن يظل والده في عمله بشرط، أن يتركه ليكمل دراسته، وسيتكفّل بمصروفاته، سيعمل عملًا خاصًا، ويجني ما يحتاجه من مال، ولن يساعد والدَه في أي شيء يخصّ خدمة بيت سيف المنصوري، هكذا وصلا لاتفاق، وسارت الحياة، وتمكّن من إيجاد عمل لعددٍ من ساعات الليل في مركز اتصالات بالقرية مع أحد الأشخاص.

فـارس مجـدي شـلش... متوسـط الطـول 170 سـم، نحيـف، لا يتخطّـى وزنـه أكثـر مـن سـتين كيلوجـرام، ذو بـشرة قمحيـة، عينـان بنيتـان، شـعر طويـل مجعّـد، طالـب بكليـة الحاسـبات، مقبـول الملامـح، الحالـة الماديـة عـلى خـطّ الفقـر، يكفـي اليـوم يومـه، لا وجود لـه وسـط الجميـع، يُصنّـف خادمًـا ابـن خـادم، هـذا مـا يُوصَـف بـه، وفي بعـض الأحيـان المتمـرّد والجبـان.

لم تَـسرِ الأمـور كـما اتفّـق فـارس ووالـده؛ ففـي كثـير مـن الأحيـان يمـرض العـمّ مجـدي ممّـا يضطـر فـارس للقيـام بـدلًا منـه بخدمـة بيـت سـيف المنصـوري والبهائـم المسـئول عنهـا والـده، عمـلٌ يُنقِـصُ قيمتـه التـي يشـعر أنهـا في الحضيـض مـن الأسـاس! حـاول كثـيرًا التحـرّر منـه ومـن عملـه، ولكـن الظـروف الماديـة القاسـية حالَـت بينـه وبـين تمـرده، خلقَتْـه جبانًـا، فـلا يخـرج فكـره عـن داخلـه، لا يخـرُجُ غضبـه عـن نظـرة عينيـه، هكـذا وجَـدَ متنفسّـه، يغضـب فينتقـم داخلـه، يغضـب فيلعنهـم داخلـه، حربُـه دائـرة لا تتوقـف، ضحاياهـا وأسراهـا ومخلفاتهـا كلهـا داخلـه، ينتـصر وينهـزم، ينفعِـل ويتحـاور، يثُـور ويهـدأ، كلهـا داخلُـه ومـا بيـده أكثـر مـن هـذا؟!

يـوم كأغلـب أيامـه؛ اسـتيقظ باكـرًا جـدًا قُـرْبَ الفجـر؛ ليُنهـي أعـمال والـده بسـبب مرضـه، اسـتيقظ متجهًـا إلى حـوش البهائـم في آخـر السرايـا مـن الداخـل، قـام بإطعامهـم، في كل خطـوة وفعـل يلعنُهـم ويسـبهم في داخلـه، يكـره فكـرة أنـه الخـادم ابـن الخادم لأسـياد

لا يطيق أن يتواصل من الأساس معهم! يكرهُ سيفَ المنصوري وولده سالم، يكرهُ تلك النظرة التي ينظرون بها إليه، يكره تلك الطريقة والعجرفة الكاذبة، يكره هذَين الكائنين كما يكره فقره، فلا يرى فارقًا بينهم، فرضَ عليه الفقر وفرضَ عليه خدمتهم! أنهى أعماله أو ما فُرضَت عليه، فإن كان بيدِه لتمرّدَ ورَحَل، يعود مباشرة لمنزله الصغير المجاور للسرايا الكبيرة، يعود ليغتسل، ثم يرتدى ملابسه في غرفته، يقف أمام مرآته التي لا يرَى منها سوى ظِلٍّ خفيف له، محاولًا تصديق أنها مرآة! يقف أمامها كل يوم ليعيد ترتيب شعر رأسه وهندمَةَ طقم ملابسه الذي لا يغيّره من الأساس، بنطاله الجينز الكحلي وشميز أبيض بنصف لياقة وذراع كامل، فقط روتين يُعَاد يوميًا لإقناع نفسه بأنه يحيا، والسؤال المعتاد الذي يطرحه كل يوم، لا ينساه أو يتململ من تكراره، ينظر للمرآة ثم يقترب منها بعين ضيقة متسائلًا:

- هذه هى الحياة؟! هذا هو العدل؟! هكذا رسمتَ مستقبلي يا الله حين خلقتني؟! لماذا خلقتَنَا من الأساس أسيادًا وعبيدًا؟! ولِمَ اخترتنا أن نصبح نحن العبيد؟! لا أستطيع تقبل هذا، لم أعد أحتمل مِثلَ سيف المنصوري وسالم، إنهم الجحيم بعينه لي.

ثم يتنهّد مبتلعًا أكسجين الغرفة كلها، كأنه حاقدٌ حتى على الهواء والطبيعة، يخرج إلى الممرّ الضيق للوصول إلى الشارع حاملًا بعض الكتب الخاصة بدراسته، يخرج فينحرفُ يمينًا للوصول إلى

الموقف، يسرع خطواته؛ لقد تأخّر كالمعتاد حين يقوم بالأعمال بدلًا من والده، وصل وانتظر ميكروباصًا يظهر للتحرك، انتظرَ طويلًا؛ فعدد النازحين للمدينة والدراسة أو العمل يوميًا أكبر بكثير من عدد السيارات، وقف وهو ينظر بعين زائغة، حاقدة، السيارات الخاصة تتحرك أمامه، لطلبة الجامعة زملائه، كلما مرت سيارة أمامه اغتاظ! ولكنه حاول أن يعتاد على الوضع حتى تأتيَ اللحظات التي سيغيّر فيها واقعه، وقف وانتظرَ طويلًا!

على بُعدِ أمتار تتخطّى الثلاثين مترًا أمام منزل يوسف النعماني أدار يحيى السيارة استعدادًا للتحرك، ضغط كلاكْس السيارة كثيرًا من المرات غير عابئٍ بمدَى الأذى الذي يسبّبه ضوضاءه على سكان الشارع، أعاد ضغط كلاكْس سيارته مناديًا فرحة؛ فقد تأخّرَت عن ميعاد اختبارها، أعاد مناداتها أكثر من مرة؛ لتنبيهها بأنه يجب عليهم الرحيل، لتجيبه فرحة وهي تقفز من باب الحديقة بأنها لم تتأخر بعد، هو من يستعجل كل شيء.

فرحَة يوسف النعماني... رقيقة، جميلة، قصيرة، لا تتخطّى ال 150 سم، ورفيعة، بيضاء بدرجة كبيرة جدًا، نموذج في جمال الفتاة العصرية، تدرس في الصف الثالث بكلية طب بشري، شخصية تمتاز بطيبة والدها، وجمال والدتها، شخصية متزنة فيما تفكر أو تفعل؛ فهي لا عاطفية بدرجة مطلقة ولا عقلانية بدرجة مطلقة، ولكن لديها حالة من الاتزان بين القلب والعقل، فرحة

هـي قلـب وعقـل وروح والدهـا؛ فيوسـف لا يسـتطيع أن يمـرّ يـوم دون أن يراهـا، مـا تطلبـه يكـون مسـتجابًا وقيّـد التنفيـذ دون تفكـير.

فتحَـت بـاب السـيارة الأمامي وقفـزت إليهـا، وابتسـمَت في وجهه:

- هيـا بنـا يـا أخـي، مـا أنـا ذاهبـة إليـه اختبـار وليـس فسـحة، وهـذا يعنـي أن تبتسـم لوجـه الله، أحتـاج لطاقـة إيجابيـة، ليـس هـذا الوجـه الكئيـب.

قالتهـا وابتسـمَت لـه؛ لينظـر لهـا يحيـى بتكشـيرة أكـبر مجيبًـا إياهـا وهـو يلقـي بنفسـه بطريقـة التصويـر البطـيء داخـل مقعـد السـائق:

- أنـا لا أصلـح معـكِ أو مـع والـدك، أنتـما تشـبهان بعضكـما البعـض، فهنيئًـا لكـما، أخبريـه أن يهتـم هـو بإيصالـك مـن الغَـد؛ فأنـا لسـتُ متفرغًـا لـكِ يـا ملكـة البيـت.

قالهـا وتحـرك بالسـيارة، لتداعبـه فرحـة محاولـة منهـا لإخراجـه مـن تقمّصـه دور الرئيـس المشـغول دائـمًا، طلـب حينهـا منهـا أن تسـتغلّ وقـت الطريـق في مراجعـة أي شيء، لكنهـا لم ترغـب بهـذا؛ فلديهـا قناعـة تامـة بـأن الوقـت الـذي يسـبق الامتحـان لابـد مـن أن يكـون وقـت اسـترخاء، لا انشـغال فيـه ولا ارتبـاك ولا إفسـاد المعلومـات في عقلهـا بإضافـة معلومـات جديـدة، وصلـت حينهـا السـيارة لنهايـة شـارع الخواجـة ليبـدأ في الطريـق الرئيـسي، لمحَـت فرحـة بسرعـة فـارس واقفًـا ينتظـر بالموقـف بجـوار الكشـك الموجـود، وهـدى

تخـدم المتواجديـن مـن سـائقين وأشـخاص في العمـوم، أخرجَـت رأسـها مـن فتحـة بـاب السـيارة وأشـارت بيدهـا اليسرى ليحيَى بـأن يتوقـف، وبيدهـا اليمنـى سريعًـا ألقَـت السـلام لهـدى محاولـة منهـا للَفْـتِ انتبـاه فـارس؛ لتجيبهـا هـدى السـلام، تتوقّـف حينهـا السـيارة بشـكل مفاجـئ؛ لتصطـدم فرحـة بالمـرآة وتعـود لمقعدهـا تتـألّم قليـلًا؛ لتجـد يحيـى يبتسـم ابتسـامته التـي لا تفهمهـا ابتسـامة أو غضـب، ويتسـاءل لِمَ طلبـتِ التوقـف؟! ابتسـمَت حينهـا في وجهـه محاولـة منهـا لامتصـاص غضبـه المعتـاد، وأجابتـه مشـيرة إلى مـكان تواجـد فـارس:

- فـارس هنـاك يقـف منتظـرًا سـيارة للذهـاب إلى الجامعـة، واليـوم لديـه اختبـار هـام أيضًـا، فلنصطحِبْـه معنـا في السـيارة، مـن أجـل خاطِـرِي؛ فلتعُـد للخلـف لاصطحابـه.

لم تكـن فرحـة تسـتقلّ أية سـيارة أجـرة سـواء في القريـة أو المدينة... (فعـادة يوسـف النعـماني أنـه يقـوم بإيصالهـا إلى الجامعـة أو يـترك يحيـى للقيـام بهـذا؛ ففرحـة كانـت قلـب وروح يوسـف، ولم يكـن يتركهـا لتقـودَ عربـة أو تسـتقل المواصـلات العامـة)، هكـذا تعلّمَـت مـن والدهـا، أن تسـاعد قـدر المسـتطاع، وخاصـة فـارس ابـن العـم مجـدي شـلَش، كان يوسـف يحبـه كثـيرًا ويحترمـه ويـراه شـابًا مجتهـدًا ونشـيطًا ولـه مسـتقبل كبـير ينتظـره، تحوّلَـت الابتسـامة أو نصـف الابتسـامة لـدى يحيـى لغضـب كامـل، وحاجبَـين يرتسـمان ال 111 وانتفخَـت أنفـه وانتابتـه حالـة الغضـب كاملـة مـن طلبهـا، ومِـن أجـل مَـن؟!

مـن أجـل خـادم، كيـف ليحيـى يوسـف النعـماني أن يقـفَ لفـارس مجـدي شـلش الخـادم! عنّـف فرحَـة قـدر مـا تمكـن محـاولًا الـشرح لهـا أن تتفهّـم وضعهـا وأن تنتقـي مَـن تتعامـل معهـم، أو مـن تُقـدّم لهـم الخدمـات، ظلـت فرحـة محتفظـة بهدوئِهـا، تعـرف مفاتيـح شـخصية أخيهـا يحيـى وكيـف تتمكـن مـن إقناعـه، مفـاوض محـترف، كـما يقـال "ابـن الـوز عـوّام"، أليسـت ابنـة يوسـف النعـماني، تمكّنَـت فرحـة مـن إقنـاع يحيـى باصطحـاب فـارس؛ ففـارس يـدرس في كليـة الحاسـبات بجـوار كليـة طـب التـي تـدرس بهـا، وهـا هـي تقـدّم لـه العـون لربـما تحتاجـه في يـوم فتجـده، اقتنـعَ يحيـى عـلى مضَـض، وعـاد بالسـيارة إلى الخلـف، لكنـه توقـف بعيـدًا عـن فـارس بقليـل، رآهمـا فـارس، فاقـترب وقـدّم التحيـة، أشـار لـه يحيـى بتعـالٍ ليشـاركهم السـيارة ويوصلُـه في طريقهـم، الطريقـة أثـارَت اسـتفزازًا لفـارس، واستشـاط غضبًـا داخلـه، ولكـن مـا أظهـره ابتسـامة صفـراء عميقـة مقدمًـا لـه الشـكر عـلى المسـاعدة، حاولـت فرحـة تلطيـف الأجـواء فـأصرت بـأن يصعـد ليتحـركا؛ يكفـي تأخـيرًا لهـا ولـه، تحوّلَـت ملامـح فـارس كلّيّـة، فرحـة بالنسـبة لـه الهـواء الـذي يبقيـه عـلى قيـد الحيـاة، السـكّر الـذي يخلـق طعـم الشـاي الجميـل، المـرأة التـي تجسّـد كل معـاني المـرأة، أمامهـا قلبـه يـذوب؛ فلـم يسـتطِع الرفـض أو حتـى المقاومـة، كيـف وهـو أمـام عينيهـا تسـقطُ كل معـالم قوتـه، الحصـون والدفـاع، كيـف وهـو لا يـرى شـيئًا آخـر حـين يراهـا، وكأنهـا كلّ العـالم وجميـع

المخلوقات، تقبّل وسريعًا، استقل السيارة التي انطلقت مسرعة بالخروج من القرية كتعبير عن تذمّر يحيى، وكأن سرعة السيارة تحرّكت من خمسين كيلومترا في الساعة وليست من الصفر! سكن فارس بالكرسي الخلفي، ولم تنخفِض عينه لحظة واحدة عنها، تارة في المرآة وتارة عليها، يتأمل وجودها، شعر رأسها ويتخيّل نفسه يداعبها، يتأمل ملامح وجهها الطفولية، الابتسامة، العينان، الأنف، الشفاه، يتأمل صوتها وحديثها مع أخيها يحيَى الذي لا يطيقه، فما أجمل تلك اللحظات التي يجلس فيها فارس بالقرب منها! بل ويمكنه تبادل الحديث معها، ما أجملها صدفة لا يعكّرها ألا هذا الكائن البوهيميّ الجالس معهما بصوته الغبي وهيأته المنفِرَة؛ فاللعنة على هذه الحياة وهذا الزمن مَن جعلوا مثل هذا ال "يحيى" سيدًا له، تمنّى لو كان مكانه؛ لكان تغيّر الحال والوضع، لكان تغيّر كل شيء، لكان صرّح لها بحبه، لاحتضنها وقبّلَها قُبلَةً لا تنتهي، ولكنها حلمٌ بعيد، هل يمكن حدوثه؟! أم يحدث فقط في الأحلام والقصص! شرد خياله بعيدًا وتخيّلَها بين ذراعيه يرقصا، يتأمل عينيها كيف خُلقَت بهذا الجمال وتلك الرقة، أهناك نساء مثلها، أم أنها الاستثناء الكامل من النساء؟! تبتسِم؛ فتضيء الحياة بكاملها، يلتفّ ذراعه حول خصرها وتحتضِن يده اليسرى يدَهَا اليُمنى يرقصا، تنحني على ظهرها فيقترب منها جاذبًا إياها، يحتضنها فتحتضنه، يبتعدا فيقترب

لاحتضانها، تتلاقَى الأعين ولا تخجل، تتلامس الأيدي ولا ترهَب، يقتربا فيبتسما؛ فالقرب هو الهدف... موسيقى، ابتسامات، رقص، حب.... شرد بعيدًا، حين اقتربت منه كثيرًا وعيناها تنظر مباشرة لعينيه تحكي كل الكلمات دون خجل.. دون خوف، فينطق بكل ما يجول في خاطره، يستسلمُ لعينيها ويقترب أكثر وأكثر حتى تتلاقَى الشفاه، فارس مجدي خادم البهائم، يحتضن فرحة يوسف بنت السيد، يالا اللعنة على تلك الحياة، يُنهِي قبلته الطويلة؛ لتخبره أنها تحبّه منذ بدأ وعيها؛ فيجيبها بصوت عال وأنا أحب... فجأة خطفته من أحلامه وآماله صوت صرخة كانت كنبُّوت هوَى على رأسه وبقوة، صرخت فرحة:

- ماذا هناك؟

استفاق على واقع مرير؛ السيارة تصطدم بسيارة قادمة بقوة من الطريق المعاكس وتستعد لدخول تقاطع أمامهم، اصطدما بقوة فتطايرَت أجزاء من السيارتين بعيدًا، بل ارتفعَت السيارة نفسها في الهواء ما يقرب من متر عن الأرض، ثم هوَت متقلّبة أكثر من مرة، يتطاير أجزاء الزجاج في جميع الاتجاهات، الصراخ والبكاء يتزايد، يحاول الجميع الإمساك بما يمكن إمساكه، حتى تتوقف السيارة عن الانقلاب مرتطمة بعمود إنارة أمامهم، وقد هدأت ثورة السيارة الهائجة، توقفت... ومعها توقف الجميع عن الصراخ.

وجد فارس نفسه على جانب الطريق على بُعدِ خطوات من السيارة المهشّمة بالجوار والدم ينزف وبشدة، وقد صبغ وجهة وذراعيه، فلا يدري مصدر نزيفه، حاول الوقوف ولكنه يسقط، حاول مرارًا حتّى تمكّن بصعوبة بالغة وألم شديد، ينظر يمينًا ويسارًا.. يتحرك ببطء وألم وينادي فرحة بدون ألقاب:

- فرحة... فرحة... فرحة.

هرع جميع مَن على الطريق إلى المساعدة، توقفَت السيارات على بُعدِ من الحادثة وأقبل الجميع للمساعدة، اقتربَت مجموعة من فارس للاطمئنان عليه ومساعدته، لكنه لم يعبأ بهم، يشعر بدوار، والرؤية تهتزّ، ولكنه لمحَ بطرف عينيه رؤية غير مكتملة الوضوح، لمح يحيى وقد ظهر فجأة من خلف السيارة وهو يصرخ ويركض بعيدًا عنها ويتألّم بشدة، ثيابه ممزقة أشد تمزقًا والدماء تغطّي وجهَه كاملًا؛ فلا ملامح له، كان يهرع بعيدًا عن السيارة؛ فالنيران الْتهَمَت الأخضر واليابس، والألسنة تتطاير ولا يستطيع أحد الاقتراب، حتّى الحشد الذي تجمّع محاولًا تقديم المساعدة، هرع الجميع إما إلى يحيى أو فارس، النيران تتعالَى أكثر فأكثر، والسيارة ستنفجر في لحظات معدودة، تحرّك الجميع مبتعدًا عنها، فارس لا يدري؛ فهو في نصف وعي، يحاول التركيز لما يحدث، الناس تحاول جذبه بعيدًا، تتسارع دقات قلبه، تزوغُ نظراته يمينًا ويسارًا وحالة من الفزع انتابَتْه، وفي لحظة من التركيز الباهت

منـه تسـقط نظـرات عينيـه عـلى السـيارة؛ فيجـد فرحـة في مقعدهـا، لمـح جانـب وجههـا والسـيارة مغلقـة وهـي غـير واعيـة، اقـتربَ منهـا أكثـر فأكثـر متحامـلًا عـلى نفسـه مزيـحَ الجمِيـع عنـه، متعافيًـا قـدرَ مـا أمكنَـه عـلى بـاب السـيارة حتـى انتزعـه، انحنـى ممسـكًا بهـا وهـو يـصرخ مـن الألم، ثـم تحـوّل مبتعـدًا بهـا عـن السـيارة التـي انفجـرت في لحظـات وكأنهـا تنتظـره!

سرايا سيف المنصوري، بني آدم، ١\٤\٢٠١٠م

اقترب فارس وهو يحمل هَمّ هذا اليوم اللعين، كيف سيقضيه؟ كيف سيتحمّل نظرات وسخافات هذا المدعو سالم؟ وقف فارس أمام البوابة الكبيرة وأغمض عينيه، ثم أخذ نَفَسًا عميقًا وأخرجه بقوة، وقف حائرًا بين الجلوس على الكرسي الموجود داخل البوابة في هذا البيت الذي حين يدخله يشعر وكأنه في محرقة نازية، أم يخرجُه إلى الخارج ويجلس في الطريق يشتمّ الهواء الخارجي لعله يزيل عنه ذاك الاختناق، أو أن يتحلّى بالقوة ويعود لبيته.

- يا بني ألقِ السلام، السلام لله، كئيب أنت!

قالتها هدى وهي تَخرجُ من السوبر ماركت، حاول الابتسام والْتفَتَ إليها ساخرًا.

- أهلًا أيتها السيدة، أيعجبكِ هذا؟!

لينقلب وجهه بسرعة كبيرة ويعود إلى ملامح الاختناق مكملًا:

- اتركيني وشأني يا هُدى، يكفيني هذا اليوم الذي لن ينقضِي قبل أن يُقضَى عليّ.

- يا بني أرغبُ في أن أهوّن عليك قدر المستطاع، انظر

لنفسك.. عجوزٌ قارب على الموت، لا تحمِل الهَمّ يا جاري، هوّنها ولتقُل يا رب.

ابتسم نصف ابتسامة، ثم جلس على الكرسي وأجابها:

- إنه قدَر.. قدَرٌ علينا فقط لا سوانا، أرغب وأتمنّى أن يتغيّر قريبًا؛ فلا قدرة لديّ على التحمل مجددًا.

- إذن تقبّلَ ما كتبَ الله لك، اجعلها تعبر بسلام يا صديقي.

زفر فارس بضيق شديد، وأجابها:

- إن شاء الله.

حينها خرج من داخل البوابة الكلب «بوتشي» وجروُه الصغير لبداية اللعب مع صديقهم المفضل فارس، تغيّر مزاج فارس مائة وثمانين درجة فور رؤيتهم، وابتدَأ اللعب معهم، ابتسمت هُدى.

- يكفيكَ هذان؛ يستطيعان تغيير مزاجَكَ مائة وثمانون درجة أيّها الكئيب، أراك بعد قليل، سأرحل لأحضر بعض الطلبات من أسيوط المدينة، سلام.

- سلام.

ثم غرق في اللعب مع الكلاب.

على بعد أمتار قليلة خلف الجدران بداخل استراحة سيف المنصوري جلس سيف المنصوري وابنه سالم لبحث الاقتراح

الـذي طرحـه سـالم منـذ فـترة قريبـة؛ ليدخـل عليهـم مُهـاب الابـن الثـاني ليشـاركهم حوراهـم.

مهـاب سـيف المنصـوري... شـاب يعـاني مـن شـلَلِ الأطفـال منـذ وعـيَ لتلـك الحيـاة وهـو يتحـرّك مسـتندًا لعكازيـن، صديقيـه منـذ البـدء، ربـما أصابـه ذلـك ببعـض الشـعور بأنـه أقـل مـن غـيره!، ربـما قيّدَتـه تلـك الإعاقـة في أن ينطلـق، شـخصٌ بسـيطٌ، ضعيـفٌ، مـتردد في اتخـاذ قراراتـه، ولكنـه طيّـبٌ إلى أبعـد الحـدود.

جلـس الثلاثـة يتحـاورون فيـما بينهـم، يرغبـون في ضـمّ جـزء مـن حديقـة المنـزل الكبـيرة إلى المنـزل، وبنـاء اسـتراحة ضيـوف كبـيرة ومُلفِتـة للنظـر، يرغبـون في أن يمتلـك بيـت سـيف المنصـوري أكـبر وأجمـل وأفضـل اسـتراحة في القريـة بالكامـل، فـإن كان سـيف المنصـوري وهـو شـيخ البلـد، وقريبًـا سـيكون العمـدة كـما يأملـون، فيرغبـون في أن يكـون حديـثَ الجميـع، كان هـذا الاقـتراحُ اقـتراحَ سـالم؛ فهـو يـرى بـأن اسـتراحة يوسـف النعـماني واسـتراحة العمـدة الحـالي أكـبر مـن الاسـتراحة التـي لديهـم، وهـذا لا يعجبـه، لاقـى الاقـتراح استحسـانَ كلٍّ مـن سـيف ومهـاب، وجلسـوا اليـوم للنقـاش حـول هـذا، نـادى سـالم بصـوت عـالٍ عـلى فـارس الـذي خـرَقَ الصـوت آذانـه، ولكنـه تجاهلـه ولم يبـدِ أي اهتـمام، مـردّدًا في داخلـه: «اللعنـة عـلى سـالم ووالـده»، ملقيًـا اللـوم عـلى والـده الـذي ازدادت أمراضـه وهـو مـن يتحمّـل تبعـات ذلـك، تجاهـل الصـوت وأكمـل

اهتمامه بالكلب وجروِه الصغير، عاد سالم المناداة مرة واثنين بصوت عالٍ، وتجاهله فارس في كل مرة، اغتاظ سالم وهو يعي جيدًا أن فارس يسمعه، ولكنه لا يبالي كعادته.. خادم متمرد، نهض حينها من على كرسيه متجهًا إلى البوابة الخارجية، وصل إليه، جذبه من لياقته ونظر بغضب:

- حين أناديك تأتِي إلى الداخل في أقل من ثانية، فهمت؟!

قالها والشرر يتطاير من عينيه؛ ليذوب قلب فارس داخله، وتتحوّل وجنتيه للون الأحمر، وتسارعت دقات قلبه، وتحرك مجرورًا خلف سالم إلى داخل الاستراحة، تركه سالم وعاد إلى كرسيه، ثم أشعل سيجارة وأشار إلى فارس بسبابته بتعالٍ

- أخبر الخادمة أن تُحضِر أكواب الشاي سريعًا.

ثم حرّك سبابته بمعنى «انصرف»، تهمهم فارس همهمة الضيق وكأنه خرج إلى الهواء الطلق في عز الصقيع دون ملابس، بل ونزل إلى الماء، أجابه بضيق وعلى مضَض بأنه ذاهب، وإن أراد شيئًا آخر فعليه بإبلاغ الخادمة بنفسه؛ لأنه يحرس باب المنزل، ثم تحرك للخارج، نهض حينها سالم بغضب جاذبًا إياه بعنف من كتفه، حينها نهض سيف مسرعًا محررًا فارس من يد سالم صافعًا إياه بالقلم على خده، وأمره بأن يتعلم آداب الرد وليعُد إلى حراسته للبوابة؛ ليركض فارس خارجًا وانطلقَت دموعه

الحبيسة، ثم أمر سيفُ سالمَ بالجلوس، وأن يُخرِجَ فارس من تفكيره؛ فهذا في النهاية ابن الخادم، وإكرامًا لأبيه وخدمته، أراد سالم الرد، ولكن أجبره سيف على غلق الحديث في هذا وأن يترك هذه الأفعال الصبيانية، وأن يعودوا للحديث في توسعة الاستراحة، تقبّل سالم وعادوا لحوارهم الذي بدأوه منذ قليل، لم يكُن هذا الأسلوب وتلك الطريقة يتقبّلها مهاب، ولكن ليس باليد حيلة، عجزُه دائمًا عَقَبَة في كل فكرة تأتيه أو فعل يأمل في فعله، آه لو كان قادرًا على الحركة، ولكنه تقبّل وضعَهُ وتعايش، وأقصَى ما كان يفعله هو التقرب من فارس ومعاملته معاملة حسنة كصديق، وبادَلَه فارس المحبة واقترب منه، كان يتحدّث دون حرَجٍ أمامه، بل ويخرج ما بداخله ويعتبره صديقه الحق، اعتذَرَ مهاب من والده في رغبته للخروج قليلًا للحديقة ثم العودة، وحرّك كرسيه خارجًا ومتوجهًا لفارس محاولًا تهدئته والاعتذار له عمّا حدث، تقبّل فارس وابتسم؛ فهو لا يرفض طلبًا لمهاب مهما كان، ابتسم فارس ليعودَ مهابُ إلى الغرفة؛ ليجد أباه وسالم في طريقهما للخروج من الاستراحة، وقف هو أمام باب الاستراحة؛ فتجاوزه كلٌّ منهما في اتجاه الكلب المتواجد عندهم منذ حوالي ١٠ سنوات وتربّى في البيت معهم، والآن لديه جرو صغير، وقف سيف بجوار الكلب الذي وقف إلى جواره وهو يبتسم ويلعب معه، سيف يتحسّس رأسه وهو يتجاوب بالحب معه، أما سالم فتحرّك

إلى خلف الحديقة، ثم عاد وهو يحمل حبلًا طويلًا متوجهًا إلى سيف والكلب، نظر لهم مهاب نظرة استفهام!

- ماذا هناك؟ ماذا يحدث؟!

لم يجبه أحد، حتى فارس نهض من على كرسيّه أمام البوابة وهو ينظر غير فاهم لما يحدث، ربط سالم الحبل على هيئة حبل الإعدام، ثم أعطاه لسيف الذي ألبسه للكلب، استجاب الكلب وأدخل رأسه بداخل دائرة الحبل بكل أمان ووفاء وحب واستسلام، توجه حينها سالم وألقى بطرف الحبل الذي معه على فرع شجرة قوي، والتقطَهُ من الاتجاه الآخر، ونظر إلى الكلب بابتسامه وردّها الكلب بابتسامة وحب صادق، تحرّك حينها سيف من اتجاه الكلب إلى اتجاه سالم، وفى لمح البصر جذبا الحبل بقوة، ارتفع فيها الكلب وهو ما زال يبتسم؛ فاختنق وغابَت ابتسامته، حاول النباح مستنجدًا بهم؛ فهو لا يستطيع التنفس، يستنجد بهم؛ فهم من يأمن لهم، من يستسلم لهم، من أظهرَ لهم جانب الوفاء والصدق والحب، لم يظهر لُهُم في يوم قوته أو جبروته أو شراسته، بل كان حارسًا وفيًا لهم، شرسًا لأعدائهم، حصن أمانهم، استنجَدَ بهم، ولكن لم ينجدوه، بل كانوا قاتلِيه، استدار الحبل في مكانه واستدار معه الكلب عدة دورات، وحاولَت أرجلُه الرفْسَ في كل الاتجاهات، حاول بقوته الفرار، ولكن لم يعد قادرًا على التنفس؛ إنه يموت، سقطَت دمعة عينه، وهو يلمح

بطرف عينيه جروَه الصغير الذي ركض اتجاه البوابة، ركض من هول المنظر، أو ربما فهم ما تعنيه نظرة أمه؛ فحتى الحيوان لديه مشاعر، يحب، يخاف، يقاوم أو يهرب، يتواصل مع بني جنسه، لعلّ نظرة أمه كانت «اهرب يا صغيري، اركض بأقصى سرعة؛ فلا أمان هنا، ولا يمكنني مساعدتك، اركض من مكانك.. ممن تحتمي بينهم، لا تثق فيهم بعد الآن، اترك مكانَ نشأتِك لعلّك تجد خارجًا من يحنو عليك، لعلك تجد شخصًا أمينًا تأتمنه، اركض يا صغيري، وسامحني؛ فلم أعد قادرة على حمايتك»، توقّف هيجان الكلب وفارَقَ الحياة، وتنهّد كلٌّ من سالم ووالده وقد أنجزوا المهمة على أكمل وجه في دقائق معدودة، تخلصوا من الكلب وأصبحَت الحديقة جاهزة، وسيبدؤُون في صنع مجدهم باستراحة لا رأَى أحدٌ ولا سيرَى مثلها.

على الجانب الآخر... صرخ مهاب رافضًا ما يفعلون، كيف يقتلون روحًا بريئة؟! كيف يغدرون بمن ائتمنهم؟! كيف تهُون عِشرَةُ عشْرِ سنوات؟! كيف قابلوا وفاء كلبهم بالغدر؟! صرخ وحاول الركض في اتجاههم؛ فسقط عن كرسيه، صرخ حتى بُحّ صوته، صرخ؛ فلا يمتلك ألا الصراخ، صرخ وصرخ وصرخ.. صرخ لاعنًا عجزه، صرخ لعلّ صرخته تنقذ هذا الكلب البريء.. صرخ وهو الضعيف، ظلّ طوال العمر حبيسًا لهذا الكرسي اللعين، لتلك العكاكيز العديمة الفعل، هاجَ ولا قدرَة له سوى قطع

النجيلة أمامه والصراخ، ولا مجيب، وما هو قادر على فعله سوى ذلك، ملعونة الحياة وملعونة المعاني وملعون كل شيء.

على الجانب المقابل وعلى بعد خطوات بجوار البوابة الحديدية، تجمّدَ جسد فارس والْتصَقَ في البوابة الحديدية التي كان يجلس بحوارها وجحظَت عيناه واقشعَرّ جسده، خطفَتْهُ الصدمة والخوف، تسارعَت أنفاسه ودقّات قلبه، يشعُر وكأن المكان يركض حوله بسرعة جنونية، لا يستطيع التحمل، لا يدري ماذا يفعل، فتحَ فَاهُ ولكنّه صمتَ لا شيء آخر صدر منه، حاول توجيه رأسه ناحية الجَرْوِ الصغير الذي ركض لتوّه في اتجاه الشارع، حاول حتى استطاع، تحرّك لكن بأرجل ثقيلة كمن كُبّلَت قدميه، ولكن صدمَت الجرْوَ عرَبَةٌ مارة أمام السراي؛ فمات في الحال، تحرك حينها سالم في اتجاه فارس بكل ثقة وبرودة أعصاب وثبات انفعالي، وحين وصل أمامه توقف، هرب حينها قلبُ فارس أكثر وأكثر ولم يعد لديه القدرة على احتمال قدمِه لجسده أكثر؛ فقد علم حقًا ما يستطيع سالم فعله، الآن علِمَ الحقيقة، أخرج سالم علبة سجائره وأشعل سيجارة، ثم نفخ دخانها في وجه فارس مبتسمًا وأمرَهُ برَمْي جثث الكلاب على الترعة القِبْلِيّة في البلدة، ثم نظر مباشرة لعين فارس وابتسم ابتسامة خفيفة ورحل خلف والده الذي أعاد ضبط عباءته وخرج من السرايا لقضاء حوائجه.

لا صـوت يعلـو فـوق صـوت المـوت، لا صـوت يعلـو فـوق صـوت القـوة، لا صـوت يعلـو فـوق صـوت الظـلام، إن أردْتَ الحيـاة فالحيـاة لا ترغـب في الضعفـاء، أو البلهـاء، لا مشـاعر، لا صـدق، لا شـفقة، الحيـاة ترغَـبُ في القـوي، لا ترغـب في عاجـز، أو حـالم، الحيـاة تطـاوع لمـن يمتلكهـا ويقتنصهـا بالقـوة، هـذه هـي الحيـاة الآن، صمـت الكلـب حتـى الأبـد، ومعـه جـروه الصغـير جـزاء وفائـه، صمـت فـارس فـلا رأي ولا حـق لـه، صمـت مهـاب؛ فالعجـزُ قـدَرُه.

سرايا سيف المنصوري، بني آدم ٢٠\٤\٢٠١٠م

قاربَت الساعة على الثامنة مساءً، ملّ مهاب من مشاهدة التلفاز ولا رغبة لديه في المذاكرة حاليًا؛ حالته النفسية لم تُشفَ بعد ممّا حدث للكلاب، مرّوا عليه كسنوات أليمة، ضربَ الوجعُ كاملَ جسده، بل نخرَ في عظامه، ساءَت حالته النفسية رغم محاولة أخوه وأبوه الحديثَ معه والاعتذار عمّا حدث، ولكن لا زال الوجع والشعور بالذنب تجاه رفيق سنواته، الكلب وجروه الصغير، تُنغّص عليه يومَه ونومَه، ولكنه حاول الخروج من الحالة تلك؛ فلا معنى لها الآن، ماتَ الكلب وجروه ولا طريقة لإعادتهم، كعادته، لا بكاء على اللبن المسكوب، وما رحل لا رجاء في عودته، اعتاد السلبية وتقبّل الأمر الواقع؛ لعلها منفذه للحياة، لعلّها نعمة تجاوزِه الأمور والاستمرار في حياته، لعلّها النفق الصغير الذي مكّنه من تقبّل وضعه، ومن تجاوز أزماتِه النفسية، السلبية وتقبّل الأمر الواقع كانت نجدتُه في سنوات حياته السابقة؛ لذا تمسّك بها، حان الآن وقتُ الخروج من الحزن والوجع، لم يقصّر مع الكلب وجروه، ولكن قضاءَهم كان أقوى ولكلّ أجلٍ كتاب، هكذا أقنع عقله حتى يتحرّر من وحش الاكتئاب الذي حاول التغلغُلَ في دمائه وإفسادها، ونخر في كل

مشاعره وكساهَا يأسًا وبؤسًا، أوهَمَ نفسه وبدأَ في الخروج من نفق الشعور بالذنب للحياة مرة أخرى، الآن ماذا يفعل؟! يرغب في شيء جميل.. شيء يمكّنه من اصطحابه إلى عالم آخر، عالم الخيال الذي طالما عشقَه وأحبّه وبنَى به قصورًا، ففي عالم خياله يتحرك على أقدامه، يركض، ينتصر، يرقص ويغني أيضًا، ومن يمكنُه أخذه إلى هذا العالم سواها، أخت القمر هدى، ابتسم؛ فمجرّد التفكير بها أو نطق اسمها يشعّ فيه الحياة والخيال، لِمَ لا وهي حبّ عمره منذ بدأ وعيُه في الإدراك؟! لِمَ لا وهي شمعة منيرة دائمًا بعمق قلبه؟! لِمَ لا وهي التي وهبَتْه عالم الخيال.. عالم الحب والغُنا والرقص؟! ففي عالمها تمكّن من مغادرة كرسيه المتحرك راقصًا على إيقاع الموسيقى وبين يديها، ابتسم وهو مغمضٌ عينيه وكأنه استسلم لأفكاره وإليها؛ لينطلق معها في رحلة حب، ولكنه استفاق على صوت والده الجهوري:

- مهاب، إن كنتَ ستنام يا بني فاذهب إلى غرفتك، لئَلّا تسقطَ عن كرسيّك، هيا سأعينك، سأحضر لك العكازين.

استفاق من عالمه لهذا الواقع مجيبًا والده:

- لا يا أبي، لستُ نائمًا، فقط شرَدتُ قليلًا.

- شردت؟! وماذا هناك يا بني، أتحب أنت؟ أخبرني مَن هي وأطلبها لك للزواج.

قالها ممازحًا ابنه وابتسم بضحكته العالية؛ فابتسم له مهاب بهدوء مجيبًا:

- حينها سأخبرك يا أبي.. صدقًا.

- اتفقنا يا حبيب قلبي، أيًّا كانت بنت مَن؟ فقط اطلُب وأنا أنفّذ، لا يغلو عليكَ شيئًا أو أحدًا يا بني.

ثم انحنَى مقبّلًا رأسه، فردّ له القُبلة:

- أعلم يا أبي، فليحفظك الله لي، ولكن دعني أسألك، إلى أين تذهَبُ وأنت في قمة أناقتك، بهذه العباءة والتلبيسة والعصا، ولا كأنك رفيع بك في زمانه؟!

- يا بني، إني كبير بكم، أنتم أناقتي وفخري، لستُ ذاهبًا لأي مكان، فقط لعمّك يوسف النعماني ربع ساعة وسأعود.

- خيرٌ يا أبي، أهناك خطبٌ ما؟

- خير يا بني، أحتاج إلى الحديث معه في الأراضي الموجودة خلفَ مزرعة السالم الغانم بالظهير الصحراوي، أرغب في ضمها إلينا قبل أن يأخذها محروس الغنام، يكفي ما أخذه.

- كما ترى يا أبي، خير بمشِيئة الله، لكن لي رجاءً، لا تتأخر، أرغبُ في تناول عشائي اليوم معكَ أنت وسالم.

- أنت فقط تؤمر يا حبيبي... أتركك الآن كي لا أتأخر عليكَ في العودة.

تحـرك إلى الخـارج، وقـرّر مهـاب تحقيـق خيالـه والخـروج للواقـع والبَحـث عـن قمـره، لِمَ لا وهـو يحتاجهـا أكثـر مـن أي وقـت مـضى؟ يكفـي النظـر لوجههـا، يكفيـه هـذا، أغلَـقَ التلفـاز وتحـرّك في اتجـاه البـاب حيـث عكازيـه، أمسـكهما وأزاح بجسـده كرسـيه المتحـرك ليتحـرّر منـه، تمكّـن مـن الوقـوف وفتَـحَ البـاب ونـزَل إلى الحديقـة، تحـرك في اتجـاه البوابـة الصغـيرة عـلى يمـين السُّـور، حيـث يجلـس العـمّ مجـدي حامـلًا كوبًـا مـن الشـاي يرتشـف منـه بصوتِـه العـالي، وصَـل إليـه وألقَـى عليـه السـلام، انتبـه العـم؛ فقـام مسرعًـا مـن عـلى كرسـيه مجيبًـا التحيـة، وحـرّك الكـرسي بيـده اليُسرى لمـكانِ مهـاب محدّثًـا إيـاه:

- هل لي بأي خدمة أقدمها لك يا أستاذ مهاب؟
- شـكرًا يـا عـم مجـدي، لـو أمكـن أرغـبُ في كـوب شـاي بعـد أن تنهـي كوبـك، كـوب شـاي خفيـف مثلـك، وحـرِّك لي الكـرسي بجـوار البوابـة، أرغـبُ في رؤيـة الداخـل والخـارج، احتاج إلى شـمّ الهـواء ورؤيـة النـاس؛ فالنـاس وحشـوني كثـيرًا، هـل تفهمنـي؟!

ضغـط عـلى آخـر كلمتـين ورفـع صوتـه فيهـما، أراد لفـتَ انتبـاه أخـت القمـر كـما كان يسـمّيها في مذكراتـه، انتبَهَـت هـدى وهـي تجلـس في السـوبر ماركـت الصغـير المقابـل لبوابـة السرايـا فابتسـمت، وانتبـه العـم مجـدي أن مهـاب مـا زال واقفًـا؛ فتحـرّك مسرعًـا وجلـب لـه كرسـيه وسـاعده في الجلـوس كـما أراد، ثـم تحـرك للداخـل حامـلًا

معه كوب الشاي خاصته وهو يرتشفه بصوت عالٍ.

جلس مهاب متوسطًا البوابة، كاشفًا للشارع والمنزل الصغير وأخت القمر، جلس وحيدًا كما أراد.

سرق بنظره الباب المفتوح بالمنزل المقابل خلف أحد المارة يبتاع علبة سجائر ويرحل؛ ليرى وجه محبوبته، أخت القمر في هذا السوبر ماركت الصغير.

هدى.. فتاة صغيرة لم تتخطّ العام السابع عشر بعد، تتمتّع بجمال صارخ، بشرة قمحية ناعمة، وجه صافي، شعر ناعم طويل، وجه مستدير، عينان بنيّتان، شفتان صغيرتان، قوام ممشوق قصير، كطفل صغير، عيناها كموج البحر، لم تتخطّ في دراستها دبلوم تجارة، كان آخر محطاتها التعليمية؛ فلا قدرة مادية ولا رغبة التعليم.

تلاقَت الظروف والرغبات؛ فأنهَت دراستها واستقرّ بها الحال في هذا السوبر ماركت.. لم تكسب من الحياة لا تعليم ولا وضع اجتماعي.

- لكنكِ سرقتِ قلبي حقًا.

هكذا همسَ لنفسه مهاب، ثم استفاق ناظرًا حوله ليرَى إن كان أحد موجودًا معه أم لا، استراح قلبه حين تأكّد أنه وحده وسرّه لا زال معه... سر لا يعلمه سواه، تعلّق بها منذ صغَرِه،

أحبّها في قريرة نفسه، سرٌ خبّأَه عن الجميع، لِمَ لا وكلّ ما يخصه لا يتخطاه؟ شخص عالمه لا يخرج عن قلبِه وخياله، هكذا كانت حياته، لعلّ هذا بسبب حالته؛ فهو مختلف عن الجميع، أو أنه انزوَى ورغب في الوحدة، المهم أنه كان وحيدًا، لكنها اجتاحَت قلبه واجتاحَت كل كيانه، هدمَت أسوارَ حصونه، ودكّت قلاع عزلته، ودمّرَت عالم وحدته؛ لتخلقَ له عالمًا آخر هي سيّدته، امتدّ جذرُها لعمق أعماق قلبه، فلم تعُد هناك قوة قادرة على اقتلاعها، بذرةٌ زُرعَت فكبِرَت واعتنَى هو بها، لم تغِبْ عن نظره يومًا واحدًا، كيف وكان يبدأ يومه باستراقه النظر إليها من نافذة غرفته من خلف الستار، كيف وكان لا يمكنه النوم قبل أن يلتقط لها صورة على هاتفه؟! كان دائمَ الْتقاطِ الصور لها، هذا هو سر المجلد الذي سجله بِاسْم "خاص جدًا"، ومغلق بكلمة مرور كانت "هدى"، مغرم بها وكأنها ديانته وعقيدته التي آمن بها كامل الأيمان فاستسلم لها، ولأنه كان دائمًا يؤمن بالسلبية لم يتمكن من إخبارها أو التقرب منها، ولكن كما يقول المثل "من القلب للقلب رسول"، "وما يخرج من القلب للقلب سيصل"، فاضت أشواقُه وانفجرَت أنهارَ حبه؛ فسبحت في هواء حياته حتى وصلت لمن قصد بها.

في الجهة المقابلة نظرت هدى إليه وشردَت متذكرة تلك الأحداث الجميلة التي بدأت في استرجاعها كل حين وآخر،

وقد قُيّدَت بحبال الحب العميق، ابتسمَت وهى تتذكّر تلك المرات التي كانت تعمل على خدمة الموقف، ذات مرة حين وضعَت كوب من الشاي لأحد السائقين، ثم تجوّلَت لترى إن كان هناك طالب لمشروب أو أي خدمة أخرى، لتلمح بطرف عينيها مهابَ جالسًا خلف نافذة غرفته بالدور العلوي بسرايا سيف المنصوري، مختبئًا خلف الستارة، ولم يكن يعلم أن الستارة لم تكُن تخفيه كاملًا، رأته وكعادته.. كان يجلس دائمًا في غرفته مختبئًا ليتلصّص النظر إليها، بريء جدًا مهاب، هكذا كانت نظرة هدى له، بسيط، طفلٌ في طريقته، بريءٌ حتى في عشقه، تعلم أنه يحبها، كيف لا تعلم وهي تلمحه يوميًا يجلس في نفس المكان ويحملُ هاتفه ويلتقط صورًا لها من كل الزوايا، كانت تتعمد الابتسامة والاهتمام بأناقتها قدر المتاح لتظهر جميلة، تكرّر الوضع كثيرًا، ذهبت حينها وأخبرت والدتها بما تشعر به تجاهه وما تراه من نظراته وبقاءه كثيرًا في نافذته يتابعها، وما كان من والدتها ألا أنها شجعتها! ذاك التشجيع أثار تعجبها وتساءلت عنه:

- كيف يا أمي؟! كنت أعتقد أنك ستعنّفينني، وستعطيني درسًا في النظر إلى مَن مثلنا فقط، غريبة أنتِ!

تنهّدت الأم حينها، فلاحة بسيطة كسرَها الزمن، مات زوجها منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، طمع فيها كل من رآها؛ فلا سند ولا قيمة اجتماعية لها، ولكنها صمدَت قدر ما تمكّنت، أما

الآن لم يعد بمقدورها الصمود بعد؛ فالفقر حرب سينتصر فيها، سيجعلها تستسلم سواء اليوم أو الغد، لا مفرّ، لا حياة لهم ولا مصدرَ سوى هذا السوبر ماركت وبعض الدجاج التي تعتمِد على تربيته، تنهّدَت وبَكَت، ثم أجابَت:

- لأنه ليس لنا أحد، الفقر سيقتلنا يا ابنتي، لقد كبرتُ وبيني وبين الموت خطوات معدودة، لم يعد في العمر بقية، وأنتِ صرتِ أنثى، ستطمَع فيكِ كل العيون، صرتِ ثمرة ناضجة مُعدّة للأكل، لن يتركَكِ أحد؛ فالفقر سيعطيهم تذكرة للدخول إليك، لكن مهاب طيب وشهم كما كانت أمه، سيحفظك، لن يتلاعب بكِ، سيصونك، سيتمكن من حمايتك، ربما يكون هذا هو الخير الذي أرسله الله إلينا تعويضًا عما عشناه، أدعو الله من كل قلبي أن يكونَ من نصيبك يا ابنتي.

انفجرت حينها هدى في البكاء، واحتضنَت أمها وأجابتها:

- لا تبكِي يا أمي، ستنصلّح كل الأمور، فكلّ شيء للخير.

قبّلَت رأس والدتها ودعَت لله في سرها:

- دعوة من قلبي يا رب، اجعله من نصيبي؛ فإني أحبه صدقًا.

عادَت من شرودها حين سمعَت صوت العم مجدي بنبرته العالية المعتاد عليها:

- الشاي يا أستاذ مهاب، أعتذر عن التأخير.

قالها وهو يفتح فاه.. نظر له مهاب الذي كان غارقًا توّه في حوار العيون، وأفسدَه هذا العم مجدي، نظر إليه وهو يرفع حاجبه وكأنه ما كان يرغب في حضوره ولا في الشاي!

- لا يا عم مجدي، بل أتيتَ بسرعة جدًا، لقد أخبرتُكَ أن تتأخر، أقصد أن تتأنَّى، لستُ متعجلًا أيها الرجل الطيب.

ابتسمَت هدى ولا يزال مهاب ينظر لها، وكأنه يعني للعم مجدي "اذهب إلى حال سبيلك، لا وجود لكَ الآن"، أجابه العم مجدي:

- أخدمك بعيني يا أستاذ مهاب.. هل ترغب في الدخول للاستراحة؟

كاد ينفعل مهاب من بُطء فهم العم مجدي...

- لا يا عم مجدي، أرغب في الجلوس هنا.

شرد مهاب أكثرَ في عينيها، ورغب لو تمكّن من الوقوف في منتصف هذا الشارع الشاهد على مشاعره، وأن يصرخ بأعلى ما أُوتِيَ بقوة وعزم:

- أنا أُحبكِ يا هدى.

ولكنه كعادته لا يستطيع، ولكن خطرَت له خاطرة، لعلّها تُريح أشواق قلبه، ألقَى كامل نظره على هدى، التي قطبَت

حاجبيها وكأنها تخبره "كفَى نظرًا؛ فالعم مجدى موجود"، ولكنه لأول مرة لم يكترث، ثم نظر للعم مجدي، وأكمل حديثه بصوتٍ عالٍ:

- هل ترى القمر يا عم مجدي؟

نظر العم مجدي للسماء، ثم أجاب:

- ما به؟!

- هل ترى جماله؟ قمر جميل منير، بريء، يشع في الكون حياة، هل رأيت وجهه؟!

أعاد العم نظره للسماء، ثم أجاب متسائلًا:

- وجه من؟! لا أرى أية وجوه.

- لا يهم، المهم أنني أراه وهو يراني، إنه أجمل الأقمار التي رأيتُها، ولكنه بعيد.. بعيد جدًا عني، أرغب في الاقتراب منه، أرغب في نوره دائمًا، لا أدري هل يشعر بي أم لا، أرجو أن أقترب منه وأخبره بنفسي.

- أأنتَ مريض يا أستاذ؟!

أشار مهاب له بيده وكأنه يخبره بأنه أنت قدري يا عم مجدى، ثم أجابه:

- هذا شِعر، إحساس، يا ليته يصل إليه؟

- يصل لمن يا أستاذ؟

- للقمر يا عم مجدى... للقمر، هل تصدق أنّك فصلتني، ماذا هناك؟ اهدأ قليلًا يا عم مجدي.

ضحكَت هدى بصوت مرتفع مما يحدث، وبالتالي ابتسمَ مهاب وحاول الوقوف حتى تمكّن، ثم أكمل:

- اجلس مكانك، سأعود للداخل، يسامحك الله.

بدأ في الرحيل ليتفاجأ بسَالِم وهو قادم من الداخل؛ فيصطدم به ويسقط عكازٌ من إحدى يديه، لينحني سالم ويحضره له:

- احذر يا أخي، ماذا بك؟! ماذا يشغلك؟! انتبه لئَلّا تصطدم بشيء يؤذيك.

فيحمرّ وجه مهاب خوفًا من أن يكون سالم اكتشَفَ سره؛ ليبتسم له سالم ثم يكمل طريقه متجهًا إلى أحد الكراسي المتراصة أمام الكشك في مقابل وجه هدى، عاد مهاب لثباته بعد اللحظات الحرجة التي عاشها لتوه، ثم تحرك وهو يتنهد وكأنه ولد للحياة من جديد.

جلس سالم في الجهة المقابلة مباشرة لهدى، وثبّتَ عينَيه في عينيها لم يحوّلها عنها لحظة، لم تستطِع التذمر أو الضيق؛ فلا مكانتها ولا قيمتها تعطيها الحق أن تعترض، هل يراها عاهرة؟!

هـل الفقـر عُهـر؟! ألا يحـق لهـا أن تتجـه إليـه وأن تخلـع نعلهـا وتجعلـه يصفّـق عـلى وجهـه؟ ألا تسـتطيع أن تمسـك هـذا المقـص الـذي أمامهـا وتشـقّه نصفـين؟! تعلـم أنـه لا يحـق لهـا، حينهـا ابتسـمَت ثـم حولـت نظرهـا أرضًـا حتـى رحـل.

هدى، بني آدم، ١\٨\٢٠١٠م

لأول مرة منذ أكثر من سبعة عشر عامًا يغلقُ الكشك الخاص بهدى ووالدتها، تساءَل الجميع، وكانت الإجابات حاضرة، تمر هدى بوَعْكَة صحية وأمها لم تعد قادرة صحيًا على العمل، تم غَلقُ الكشك ليومين متتاليين، وبالداخل كانت تجلس هدى في الحوش الصغير وسط دجاج البيت، تنظر وتتأمل السماء؛ لتقترب أمها وتحتضنها، ثم تجلس بجوارها تتأمل السماء معها وتحاول فتح الحديث:

- أعلم ما تمرّين به يا عزيزتي، أعانكِ الله، ولكن في مواقف كتلك يفضّل أن نُفكر بالعقل لا بالقلب، وفي النهاية لكِ حق الاختيار.

لتخرج هدى عن تأملها ملتَفِتَة لأمها:

- لا أعلم يا أمي، قلبي يرغب في مَن أحبّه، وعقلي يخبرني في مَن أُتيح لي، لكل منهما امتيازات وعيوب، وأنا حائرة أخاف الاختيار، أهكذا الاختيار صعب يا أمي؟

- في يوم ما كان الاختيار سببَ شقائِنا، لولاه لما كنا هنا.

لتعتدل هدى وتبدأ في الدخول للحوار بشكل أكثر تركيزًا وعمقًا:

- كيف يا أمي؟

- لـولا اختيـار آدم أن يـأكل مـن الشـجرة لمـا طُـرِدَ مـن الجنـة، لـو كان مُجـبرًا عـلى الرفـض لكنّـا الآن في أمـان، لـولا اختيـار أبيـكِ لي لَمـا كنُـتِ هنـا تعانـين الفقـر والوحـدة التـي خلّفنَاهـا لـكِ، لـولا، لـولا... لـولا الاختيـار لكانَـت الحيـاة أفضـل، رغـم أن الاختيـار قـد يظهـر وكأنـه سـهل وبسـيط مـا بـين خـير وشر؛ فالاختيـار دائـمًا للأفضـل، هكـذا المفـترض؟! ولكـن لا يحـدث هـذا، الاختيـار فقـط يصنـع حـيرة، عـين هنـا وعـين هنـاك، ميـزةٌ هنـا وعيـب هنـاك، ميـزة هنـاك وعيـبٌ هنـا، قـدمٌ هنـا وأخـرى هنـاك، الاختيـار وجـع يـا ابنتـي.

لتخرج هدى عن حيرتها قليلًا وتنظر لأمها:

- ماهـذه الحكمـة يـا أمـي؟! كلامـك كبـير جـدًا، مِـن أيـن أتيـتِ بهـذا الـكلام.

لتبتسم أمها:

- مـن الأيـام يـا صغـيرتي، مـا رأيتُـه وعايشـتُه يُعلّـم الحجـر النطـق والحكمـة، المهـم.. لـن أشـغلكِ أكثـر، عـودي إلى أمـرك لتقـرري، غـدًا سـيعود ليأخـذ قـرارك ولا يعتقـد أو يشـكّ أنـك سـترفضين، عـاودي تفكـيرك يـا صغـيرتي.. فانظـري للعيـوب والمميـزات هنـا وهنـاك، ولـو وجّهتـي لي السـؤال، سـأخبرك حينهـا أننـي موافقـة؛

فالحب لا يُغني ولا يُشبِع من جوع، الحب ضَعْف، وأعتقد أنكِ عشتِ الضعف والفقر والجوع، يكفيكِ يا ابنتي، اتجهي ولو لمرة واحدة للقُوّة، هذا من يمكنه حمايتك والصعود بكِ من قاع القهر الذي نحيا فيه.

قالتها ونهضَت للعودة إلى غرفتها للنوم.. لتعود هدى للتفكير:

- أمي، انتظري، سأخرج لأفتح الكشك للمرة الأخيرة، فبعد الآن لا فقرَ ولا وجع ولا جوع.

لتلتَفِتَ إليها أمها مستفسرة:

- وماذا يعني هذا؟!

قرّرَت هدى الموافقة لتنطلق الزغاريد في بيت لم يسمعها، ولم يكُن من المتوقع أن يسمعها في يوم من الأيام!

منزل يوسف النعماني، بني آدم، ١\١٢\٢٠١٠م

داخل المنزل بالغرفة العلوية غرفة لفتاة تتزيّن، مرتدية فستان يظهر مفاتنها، تقف أمام المرآة تنظر جمالها وتتأمله، تتلمّس بيدها فستانها، وتستدير يمينًا ويسارًا متطلعة إلى نفسها بالمرآة، محدثة نفسها:

- جميلة يا فرحة..

لتقاطعها والدتها التي اقتحمَت عليها الغرفة، بابتسامة جميلة قائلة:

- بالطبع جميلة... فرحة يوسف النعماني، أجمل بنت في بني آدم، بنت أرجل الرجال يوسف النعماني، هذا الرجل الذي يتحاكَى به الجميع... ربي يحفظك.

لتبتسم فرحة وتجاوبها وهي تحتضنها:

- بالطبع.. وابنة جميلة، تلك المرأة التي جمالها أعمق بكثير من اسمها، ربي يحفظكِ يا أمي ويحفظ أبي لنا.

- اللهم آمين، هيا بنا، لقد تأخرنا... كعادتنا.

وابتسم الاثنتان، فما أجمل ابتسامة الأنثى! فما بالك ابتسامة أكثر من أنثى في حالة من الصفاء والجمال والمشاعر في براءتها،

تحركتا للنزول ومغادرة المنزل لحضور عُرس ابن عمها سيف المنصوري، أيقظَ يوسف من غفوته صوتُ خطواتهن لتنظرْنَ إليه ويضحكن، ويتعالَى صوتُهنّ وهنّ واقفتان أمامه ويستديران مكانهنّ قائلتَين:

- نِمتَ أنت يا يوسف؟! ونحن الاثنتان قد أتينا لنسألك عن فستاني وفستان فرحة أليس رائعًا؟

استيقظَ وهو ينظر لهما حاضنًا فرحة، قائلًا:

- قمران أمامي، فليحفظكُنّ الله دائمًا لي ويريني كل خيرٍ فيكنّ.

أتاهما صوت يحيى من الخارج:

- هلمَّ يا أبي السيارة جاهزة، هيا كَي لا نتأخر على العُرْس.

- قادمون، هيا يا سيداتي الجميلات.

قالها يوسف وجميلة تتعلق بذراعه الأيسر وفرحة بذراعه الأيمن، متجهين إلى الخارج.

تحرك الجميع حتى وصلوا إلى السيارة، وصلوا واعتلُوا السيارة جميعًا؛ يوسف وجميلة بالخلف، وفرحة في الأمام بجوار أخيها يحيى، والجميع يبتسم، وفجأة انفجر يوسف صارخًا في يحيى ابنه:

- ما هذا؟! ألم أخبركَ أن تتوقّف عن هذا الهراء، ألا تفهم؟!

نظر يحيى لوالده الذي رأى للتو السلاح الموضوع أعلى تابلوه

السيارة، حاول يحيى تهدئة والده؛ فأخبره:

- أبي، إننا ذاهبون إلى عُرس، أليس من الطبيعي أن أحمل سلاحًا أم أنني أفعل شيئًا مختلفًا؟! ألا يجب تحية العريس والعم سيف، أليس هذا واجب كما يفعل الجميع، هل يجب أن ننغمس جانبًا، أم أن نفعل ما يجب فعله؟!

انتهَت الكلمات كحجر سقط في بئر لم يعد يراه أو يشعر به أحد، وعاد يوسف لانفجاره، ولم تثنِهِ كلمات ابنه عن غضبه، بل أعاد توبيخه بشدّة وحِدّة أكثر وأمَرَه بشكل قاطع أن يترجل عن السيارة ويعيد السلاح إلى مكانه، وأن يتوقّف عن تلك الأفعال الصبيانية، وأنّ بيت النعماني مختلف عن الجميع؛ فلا صلة لهم من قريب أو بعيد بالسلاح وما يفعلُه الآخرون، وأن وجود السلاح في البيت ما هو إلا تأمين لا أكثر ولا أقل، تدخّلَت جميلة وفرحة محاولتان تهدئة الموقف، وتمكنت جميلة من إقناع يحيى بتنفيذ طلب والده، ترجّل يحيى حاملًا السلاح في يده، وقد فجّر الغضبُ الدماءَ في وجهه حتى تحوّل للّون الأحمر، تحرك بخُطَى بطيئة للداخل لإعادة السلاح... دخل إلى الحديقة وتوقّف قليلًا، وراودته فكرة.. وهي أن يعود حاملًا مسدس صغير أسفل ملابسه وتقديم الواجب به في أية لحظة يغيب فيها عنه والده، فلا يمكن أن يكون أولاد كُبرَى العائلات أو سيف المنصوري أفضل منه، تمكّنَت منه الفكرة ودخل إلى الداخل تاركًا السلاح الكبير

واستبدله بمسدس صغير أسفل ملابسه، ثم عاد وهو مبتسمٌ إلى السيارة، ألقَى بنفسه داخلها وهو مبتسم، مشغلًا فلاشة بالسيارة بأغاني المهرجانات، راقصًا عليها هو وفرحة.. وابتسم الجميع، ولكن ابتسامة يحيى كانت على أشدها!

شارع الخواجة، بني آدم، ١\١٢\٢٠١٠م

تزيّنَت قرية بني آدم بالزينة وعمَّت الأفراح وسبع ليال لم تكن قبلها أو بعدها في قرية بني آدم؛ الغناء والرقص والطرب والمرح يملأ بيت سيف المنصوري في ليلة فرح ابنه، الفرح يكسو القرية بكاملها، حبًا أو نفاقًا أو خوفًا؛ فبيت المنصوري من الصفوة والسادة، ويكفي أنهم عائلة السوالم وأكثرها سطوة.

تقيم السيدات جميعهُنّ داخل قاعة وحديقة السرايا يغنِّين ويرقُصْن وينشدن الأغاني التراثية، وترتفع أصواتهن الجميلة بأجمل الأغاني، تقود الزفة سيدة تحمل بيدها طبلة لتضبط إيقاع الرقص والغناء، تجلِسُ السيدات على هيئة دائرة، ترقصُ في مركزها الفتيات والسيدات، أما الجالسات فيقُدْن الغناء والتصفيق على إيقاع الطبلة...

ادّلَع يا عريس يا بُو لاسَه نايلون
ادّلَع يا عريس وعرُوسْتك نايلون
عَند بِيت أمّ فاروق
هاي هاي
والشجرة طرحِت بَرْقُوق
هاي هاي

واللي بحبّه جدع مرزُوق
وبْلَاسَه لاسَه نايلون
عند بيت أمّ حنان
هاي هاي
والشجرة طرحت رمان
هاي هاي
واللي بحبّه جدع عجْبَان
واللاسَه لاسَه نايلون
عند بيت أم صلاح
هاي هاي
والشجرة طرحِت تفّاح
هاي هاي
واللي بحبّه جاني ورَاح
واللاسَه لاسه نايلون
أمّك عامله مصليّه
هاي هاي
وهيّ وِلِيّه حرميه
هاي هاي
وتتبَلّى عليّا
واللاسَه لاسه نايلون

ومن أصوات الأغاني التراثية إلى زفّة الرجال والـ«دي جي» الذي دخل بقوة واكتسَح جميع الأعراس الموجودة، دي جي ومسرح تم تنصيبه بناصية شارع الخواجة تعتلِيه راقصة يهتزّ كامل جسدها... يهتز يمينًا يتجه الحشد يمينًا، تهتز يسارًا يتجه الحشد يسارًا؛ فوسَطِها وصدْرِها قادران على تحريك أمَم من أمثال بني آدم، هذا الحال وما آلت إليه القرية! تتعلق الأنظار بمفاتنها البارزة والغاطِسَة، يجاورها مغنّي نبطْشِي لا يهتم أحدٌ له إلا حين يبدأ في ثرثرته المهمة وهي تلميع كل من أتَى وألقَى مالًا بما يرفع مكانته، ضوضاء يملأ المكان؛ فالعُرْس لا يغدو عُرْسًا دون ضوضاء، مشروبات محرّمة، برشام ترامادول وعائلته، الحشيش وأصنافه.. هكذا يمكن تعريف الأعراس الآن هنا في بني آدم، تبدّل الحال مائة وثمانين درجة، سقطَت أخلاق القرية، انتهى زمن الجدعنَة والشهامة، لم تعُد قرية بني آدم كبني آدم منذ سنوات، استبدَل الودّ بالتعالِي، والشّهامة برأس المال، والتماسُك بالمصلحة الشخصية والوقوف لكل مسيء لخوف وسير بجوار الحائط، والكرامة بالمهانة، تستمر فقرة الراقصة لتبهر الجميع ويسيل لعاب الجميع، ليبدأ الدور في الرجال التي ترغب في هزّ أوساطها تشبهًا بالراقصة! ثم يبدأ النّبَطشِي في عملية التبجيل والتكريم والوصف والنفخ لجمعِ ما يمكن جمعه من مال، يجلس أسفل المسرح في الصف الأول العريس يجاوره والده ثم أخيه

الـذي لا شيءَ يفرحـه، فقـط ملامـح الوجـع المكتـوم والانكسـار المحتـوم وأسـير حـرب لم يدافـع فيهـا عـن نفسـه، فقـط استسـلَمَ منـذ أول وهلـة، ترتـصّ المقاعـد عـلى هيئـة ثلاثـة صفـوف يمكـن لشـارع الخواجـة احتواءَهـا، تمتلـئُ عـن آخرهـا مـن أهـالي بنـي آدم، يتحـرك العـم مجـدي وولـده فـارس في خدمـة الجميـع، يبـدأ في الحضـور كبـار القريـة وكبـار العائـلات واحـدًا تلـو الآخـر.

يبـدأ أولا بالحضـور كريـم نصر النعـماني؛ ليقـوم النبطـشي بتلميعه.. «ألـف جنيـه مـن زِينـة شـباب بنـي آدم، أوسـم الشـباب وأعلاهـم خُلقًـا، إذا ذكـر اسـم كريـم نـصر النعـماني، ابـن المرحـوم نـصر النعـماني النائـب بمجلـس الشـعب طيلـة عـشرة أعوامًـا ذُكـر الكَـرَم، كريـم بـك، صاحـب أكـبر محـلات تقسـيط في بنـي آدم، مـن وفّـرَ للجميـع كل شيء بأسـعار متاحـة، صاحـب الطلّـة والهيبـة... إلـخ»؛ ليسـتمر في تقديمـه، ليجلـس كريـم مجـاورًا لعمّـه سـيف المنصـوري.

حـضر بعـده مبـاشرة يوسـف النعـماني والأسرة، لتدخـل فرحـة وأمهـا إلى داخـل السرايـا للجلـوس في مقعـد الحريـم كعـادة القريـة، وتقتَنِـصُ ابتسـامة وغمـزة أرسـلها كريـم، بخجـل.. حـذر وخـوف مـن أن يراهـا أحـد، يبـارك ويجلـس يوسـف النعـماني؛ ليكمـل يحيـى حركتـه إلى أعـلى المـسرح يُخـرج مسدسَـه ويـضرب طلقاتـه في الهـواء ملقيًـا مبلغًـا مـن المـال عـلى الراقصـة والمغنّـي النبَطْـشِي ليكمـل ثرثرتـه تبجيـلًا لـكلٍّ مِـن يوسـف النعـماني وولـده يحيـى، يستشـيط يوسـف

غضبًا من ابنه، ولكن ماذا يفعل؟! شاب مراهق، متصنع، سيء، ماذا يصنع له غير اصطناع الابتسامة لتمرّ الليلة على خير. ينهي يحيَى فقرتَه ويعود ليجاور كريم ويبدأ حوارهما الدائم، ينهض كريم بعد دقائق؛ ليجري اتصالًا كعادته، اتصالاته لا تنتهي عَمَلًا أو عُهْرًا، يتحرك لمكان أقل ضوضاء ويبدأ في إجراء اتصاله.

على الجانب الآخر يستمر مجدي شلش وابنه فارس في تقديم الخدمة للجميع، يقف فارس مرتكزًا على أحد جوانب أبواب الفيلا وهو يسترق النظر للداخل، يرغب في الاختلاء بفرحة وإخبارها بمشاعره؛ فهو يشعر بمبادلتها له نفس الشعور، يقرأ في نظراتها وسلامها كلمات الحب، يستشفّ من سؤالها عنه واهتمامها به، يرغب في أن يصارحها، يكفي للحب جلوسه في محبسه لا حيلة له، يرغبُ في الحرية، عيناه عين صقر تراقبها حتى تحين له الفرصة، انتفَضَ حين ظهرَت أمامه من خلف البوابة الجانبية لتجيب على هاتفها، تلفّتَ يمينًا ويسارًا ليرَى إن كان أحد يراه أم لا، وحين تيقّن أنه لا أحد، ترك ما بيده جانبًا واستعدَلَ جلبابه وشَعْرَ رأسه ثم تحرك في اتجاهها، كانت لا تزال تتحدث في هاتفها:

- بالطبع، أمنيتي الوحيدة هي أن نجتمع، أعلم أن أبي يرفض وأعلم أن الوضع بينكما ليس على ما يرام، ولكني سأحاول الإصلاح بينكما، أعطني فقط بعض الوقت، رجاءً لا تتهور؛ فهو أبي وأنت حـ...

لتجد يدًا تلامس كتفها، ثم تبتعد وتسمع صوت خلفها:

- أترغبين في أية مساعدة؟

لتغلق حينها الهاتف سريعًا وتتنفس الصعداء، ويدها تستند لصدرها حين ترى فارس وتجيبه:

- لقد أخفتني.

ثم ابتسمَت:

- شكرًا لكَ يا صديقي...

تحدثَت هي وشرد هو، لم يسمَع حرفًا مما قالت، فقط شردَ في تفاصيلها، شرد في أحلامه.. في ابتسامتها.. في كل حركة وفي ملامحها، وحين عاد من شروده ليكسَر حاجز الخوف ويخبرها أنه يحبها ولا يمكنه الحياة دونها:

- أنا أُحـ...

ليجد يدًا وقد قبضت على كتفه بقوة:

- أهناك شيء ما؟!

ليصعَقَ حين نظر خلفه وإذا به كريم نصر النعماني، وقد ظهرت على وجهه ملامح الغضب، ارتبك حينها فارس ولم يعرف بماذا يجيب.

- كان يتساءل إن كنت أحتاج إلى اية مساعدة وشكرته، فارس شخص جيد دائمًا معي.

تنهّد فارس داخله؛ فلولا إجابة فرحة التي أنقذَت الموقف لما كان نجا من رصاصة كادَت تستقر في منتصف جبينه، ورحل سريعًا، ابتسم كريم ثم نظر لفرحة وأخبرها أنه لا يرتاح لهذا الشاب، يشعر بأن وراءَه سرًا ما، لتبتسم حينها فرحه وتلكمُه في كتفه:

- أنت لم تُخلَق لتصبح شخصًا عاديًا.
- خُلقتُ لأكون ماذا إذن؟
- لتصبح شُرطيًّا.

وابتسما الاثنان؛ لتردف فرحة:

- ما الذي أتَى بك هنا، هيا ارحل، فلا أرغب في أن يرانا أبي ونضع أنفسنا في مشكلة نحن في غِنَى عنها.
- أتيت حين وجدتُكِ أغلقتِ الهاتف دون سابق إنذار؛ فأتيتُ خوفًا لربما يكون هناك خطب ما.

نظر لعينيها مباشرة وانحنى قليلًا ممسكًا بذراعيها، ثم أردف:

- أنتِ لي ولن أستسلم ما دُمتُ حيًا؛ فأنا أحبكِ وأنتِ كذلك.

ترك ذراعيها ونظر للجهة المقابلة التي يجلس فيها يوسف بين الأفراد، ثم أكمل وهو يخرج سيجارة ليشعلها، ونفث دخانها أمامه لتحجب عنه رؤية يوسف.

- العائـق الوحيـد هنـا هـو العـم يوسـف، يـراني عـدوه، أننـي متعـالٍ وأن عمـلي في الأقسـاط هـو نصـب وسرقـة، وأننـي أتجـبّر عـلى الفقـراء والغلابـة، ويرفُـضُ رفضًـا قاطعًـا أن نتـزوج.

أعاد نظره إليها مشيرًا بسبابته والسيجارة بين أصابعه:

- وأنـا لـن أتقبـل هـذا يـا فرحـة، لابـد أن يكـون هنـاك حـلٌ مـا، العمـر يجـري ولا يتوقـف، ولم أعـد أتحمّـل أن لا نجتمـع أو نتحـدث خِلسَـةً كأننـا مخطئـون.

انفعـل في حديثـه لتقـوم فرحـة بتهدئتـه وتزِيـد وعودهـا لـه بأنهـا لـن تكـون لغـيره، كل مـا في الأمـر بعـض الوقـت؛ لينتهـي الحـوار بينهـم بـ "إني أحبك".

بينـما يقـف عـلى بعـد أمتـار فـارس معلقًـا نظـره بفرحـة وهـو يقـوم بخدمـة الجميـع؛ ليقـرر عـدم تركهـا، ولابـد أن الوقـت حـان ليتخـذ قـرارًا بالقـرب لا بالبعـد، لـن ينتظـر كثـيرًا حتـى تصبح لـه ويصبح لها!

رحـب سـيف المنصـوري بالضيـوف الجـدد الذيـن وصلـوا الآن وأجلسـهم، ثـم اتجـه إلى النبطـشي ليلقنـه مـاذا يقـول:

- الحـاج محـروس الغنّـام، أشرف أسـياد العزايـزة، رجـل السـلام والخدمـات والصديـق الحميـم لـه، شريكُـه في مـشروع مزرعـة السـالم والغانـم التـي يمتلكونهـا في الظهـير الصحـراوي لبنـي آدم، كـما يرحـب بابنَيـه السـيد محمـد محـروس الغنـام، الشـهير بمحمـد

الجـزار، صاحـب أكـبر محـلات جـزارة بأسـيوط ، والأصغـر الدكتـور مدحـت محـروس الغنـام، دكتـور عظـام، شـخصٌ طيـب يشـهد لـه الجميـع، يسـاعد الفقـير والصغـير ولا يبخـل بتقديـم يـد العـون دائـمًا...

ثم عاد أدراجه ليجلس معهم لتستمر فقرات الراقصة والمغنّي.

حـضر العـم مجـدي وفـارس لتلبيـة طلبـات الضيافـة والكـرم لمحـروس الغنـام وابنيـه..

- أهلًا بكَ يا مجدي، يا أيها الرجل الطيب، أهذا ابنك فارس؟

هكـذا حـدث محـروس الغنـام العـم مجـدي، كان يحبـه ويعتـبره رجـلًا صالحًـا طيبًـا، ليجيبـه مجـدي:

- نعم يا حاج، فليديم الله كرمكُم علينا، فخَيرُنا من أكتافكم.

فيربت الغنام بيده على كتف العم مجدي، ويكمل:

- أنت رجل طيب، وأنا أحبك في الله.

لينقل نظره لفارس الواقف خلف والده:

- كل مـا عليـك يـا فـارس فقـط أن تنهـيَ دراسـتك ووظيفتُـك لـديّ، هـذا وعـد منـي مـن أجـل أبِيـك الطيـب.

ليدخل في الحوار سريعًا سيف المنصوري ناظرًا لفارس:

- قبّل يدَ الحاج الغنام واشكُره على كرمِه معكَ يا فارس.

لم يتردّد فارس وفعَل كما أمره سيف المنصوري، فعل هذا وهو يشعر بأن حريقًا قد شبّ وحاوطَه من كل جانب، لم ينقذْهُ سوى الغنّام نفسه حينما سحب يده مستغفرًا الله.

محروس الغنام.. رجل ستيني كبير عائلة الغنام بقرية العزايزة بمركز الغنايم، رجل كريم من عائلة كبيرة، لديها عضوان بمجلس النواب ومدير أمن، بالإضافة إلى مجموعة من أثرياء المحافظة، يرتدي جلبابًا أبيض اللون دائمًا، وعباءة سوداء، وعصا سوداء، فارع الطول، نحيف، حليق الذقن والشنَب، بشرة قمحية متجعّدة مع الزمن ونظارة طبية لضعف نظره.

محمد الجزار محروس الغنام... الابن الأكبر صاحب محلات جزارة منتشرة في جميع ربوع أسيوط، الاسم والسمعة ماركة مسجلة، مشهور بمحمد الجزار، يبلغ من العمر أربعين عامًا، سمين، قصير، بشرة سمراء، قاسي الطبع، حادّ الملامح، صارم في تعامله، لا يتحاوَر ولا يتناقش، لكل شيء لديه حساب، الورقة والقلم والحسابات تحكم كل شيء لديه.

مدحت محروس الغنام.. الابن الأصغر، طبيب عظام، يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، هادئ الطباع، ناعم الصوت، ملامحه ملامح شاب في العشرين من عمره، قليل الكلام، رجل السلام كما يلقبه أبوه، مشهور بغنَى النفس والطيبة وصنع الخير، أبيض البشرة، يرتدي نظارة طبية طيلة الوقت، ذو لحية خفيفة وشنب

خفيف، شعر مجعّد قصير، يرتدي دائمًا البذلة في المناسبات وغيرها.

تخطَّت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، نهضَ العريس سالم سيف المنصوري ووالده مع جميع الحضور، تحرك الجميع في أسطول بشري مهيب، ليلة لا كان قبلها ولا أظن مثلها سيأتي، عبَرَ الجميع الطريق الرئيسي للوصول لمنزل الزوجية المنتظرة؛ فقد هَدَم سالم المنزل الصغير والكشك الذي كانت تعيش به هُدى وأمها وشيّد بالمكان قصرًا ملكيًا له ولعروسته، وصل الجميع وتمّت مراسم الحِنّة، قام العريس بحناءِ يدِ العروس، التَفَّ الجميع حولهم مردّدين الأغاني والتّصفِيق والزغاريد، ورقصا العروسان معًا.

على بعد عشرة أمتار كان مهاب يرتكز على عكازيه، يشعل سيجارة عكس عادته، بعض الرقرقة بعينيه، كتمان، وجع، معاناة، سلبية معتادة، يفكر كثيرًا دون خطوة عملية واحدة، كيف تساهَل هكذا؟ كيف ترك حب العمر ببساطة؟! وافق على ارتباط سالم بها دون أن ينبّه أخاه أنه يحبّها وهي تحبه، كيف لم ينفعل؟! كيف استسلم بسهولة هكذا؟ أين رجولته؟! أين حربه؟! كيف لم يعاتبها حتى أنها وافقَت تلقائيًا على سالم؟! ألم تكن هناك عهود قطعها الاثنان بعيونهم؟! انفعل حين ثارَ الفكر عليه، ألقى السيجارة جانبًا، أمسك عكازَيْه بقوة، تحرّك بسرعة

تجاه العروسين، حيث انتهَت لحظات المباركة وانفضّ الجميع، دخل بقوة في اتجاه مقعد سالم وهُدى، نظر لهما.. نظر له سالم وابتسم، تشابكَت يدَي هدى تلقائيًا وانكسَر نظرُها أرضًا، تسارعَت دقات قلبها وعَلا صوت تنفسّها، قرّر أن يقلب الآن الطاولة ويخبر سالم بأنها حبيبته وأنه حبيبها، وأن هذا مكانه، ثبّت عينُه بعين سالم ومدّ له يده، قبض عليها بقوة واقترب منه قائلًا:

- يجب أن أخبركَ شيئًا هامًا، لا أستطيع إخفاءَه أكثر.

انقبَضَ حينها قلب هدى وخلفها أمها، تسارعَت دقات قلبهن أكثر، واتسعَت حدقة عينِهنّ أكثر، تدعوان في السر بأن يستر الله عليهما، وقف الريق في حلوقِهنّ، أكمل مهاب بعد لحظات توقف:

- لا أستطيع إخفاء أنني فرحٌ لك كثيرًا، مبارك لك أخي، ليبارك لك الله ويعطِيكَ النسلَ الصالح.

لينهض سالم ويحتضنه، ثم اتجه مهاب بيده مبارِكًا للعُروس، التي ابتلَعَت ريقَها بصعوبة بالغة، ولم ترفع عينيها عن الأرض حتى رحل مهاب.

تم الزفاف في اليوم التالي وبدأت حياة جديدة وفصلٌ جديد في حياة الجميع.

منزل فارس مجدي شلَش، بني آدم، ٢٠\١\٢٠١١م

ساءت الحالة النفسية لفارس من الجميع، لم يعد قادرًا على تحمّل مضايقة يحيى وكريم له، أو الخوف وما رآه من جبروت وقلب ميت وانعدام الرحمة من سالم وأبيه سيف، اعتكَف لفترة داخل غرفته الصغيرة المتهالكة مهملًا دراسته، رافضًا بشكل قاطع الذهاب مكان والده لقضاء خدمته، وبحسّ الأبوة تعامل مجدي شلش بشكل متزن؛ فوافق على انقطاع فارس عن أداء عمله عند سيف المنصوري، بل وبحث له عن شريك ليقُومَ بما يحلم، جمعَ لفارس أحد سكان بني آدم لديه بعض المال ويرغب في شراء بعض البهائم، ولكنه لا يمتلك مكانًا لوضع البهائم به، اجتمعَ مع العمّ مجدى وفارس واتفقوا أن يدخل شريكًا بالمال وفارس بالرعاية والمكان، وتمت المشاركة، عادت حينها روح فارس إليه، ردّت إليه الحياة، عادَت زهرته للتفتّح بعد شهور من الحياة على قَيْد الموت، بدأ في مشروع ربما يكونُ سندَه حين يتقدّم لخطبة فرحة، فلم يعد قادرًا على الانتظار أو رؤيتها في أية لحظة، وقد تمت خطبتها على غيره.

تناول فارس عشاءَه بعد يوم مرهق طويل ذهابًا لجامعته، ثم العودة متأخرًا محاولًا إنجاز ما يمكن إنجازه من متطلبات

الدراسة، ثم النوم لوقت لا يتخطّى الساعة ثم إعالة البهائم في حوشه الصغير، وها هو يتناول بعض الطعام لاستكمال يومه المعتاد وإرهاقه الذي لا ينتهي، كُتِب عليه الشقاء، كُتِبَ عليه الهم والألم، كُتِب عليه بَدْءُ الطريق من بدايته، وصناعة نفسه بنفسه... أكمل تناول طعامه، ثم تحرك إلى مركز الاتصالات الذي يعمل به، تحرك تاركًا والده في البيت بعدما أنهى الوالد أعماله ببيت سيف المنصوري، تركه ليرعَى البهائم التي اشتروها منذ بضعة أسابيع، محاولة منه لعلها تقذفه بعيدًا عن الفقر، أو لعلها أول درجة في الرحيل من الطابق السفليّ للطابق العلويّ، لعلها بداية الحياة..

وصل فارس مركز الاتصالات وهو في قمة تركيزه مستجمعًا قواه ليوم عمل مرهق؛ فاليوم أتَت طلبية من إكسسوارات الهواتف الذكية، ومطلوب جردها وترتيبها فوق الأرفف المخصصة لها، بدأ فارس في الجرد للطلبية، عمل بتركيز وهو في كامل سعادته بالبهائم التي اشتراها، فأخيرًا تمكّن من قطع الخطوة الأولى في الحرّيّة وبناء المجد الشخصي له بعيدًا عن سيف المنصوري وأولاده، بعيدًا عن الخدمة والانكسار، بعيدًا عن إرث عائلته الذي استسْلَمَ له الجميع بما فيهم والده؛ ففارس سيغيّر الحال، لن يرضَى بعد اليوم بالفقر قَدَرًا، فلا قَدَر ولا بقاء لحال كما هو عليه، التغيّر سُنة الحياة، من سعى وجد، من زرع حصد،

القادم له.. هكذا حدّث فارس نفسه وهو يعمل بجدٍّ وتركيز، الغد هو يومك وسأثبت للجميع أنني على حق، ولا وَضْعَ قائم كما هو، التغيّر قادم، فارس قادم كسيّد من الأسياد.

على بعد أكثر من ثلاثمائة مترٍ جلس العم مجدي داخل غرفته يشاهد حلقات مسلسل سوق العصر، يشاهد الصورة بالكاد؛ فالتلفاز عفَى عليه الزمن، ولكنه المؤنس لوحدته؛ فبعد وفاة أم فارس لم يعُد له ونيسٌ آخر؛ فهو خير من اللا شيء، جلس يشاهد وهو منهمك؛ فقد أرهقه عملُ يومٍ طويل كعادة الأيام، وفي أحد الفواصل، قام متحرّكا تجاه الحوش المجاور للغرفة؛ للاطمئنان على الثلاثة عجول التي اشتراها فارس مشاركًا ابن رشدي خادم العمدة، ألقَى نظرته عليها وقد اطمأن عليهم؛ فهم يأكلون ويشربون وفي أفضل حال، عاد أدراجه لمتابعة مسلسلِه المفضل بعد الفاصل الإعلاني، وقبل أن يجلس سمع صوتًا يناديه خارج الباب، تحرّك إلى الخارج ليجد مهاب سيف المنصوري يخبره بأن يأتيَ معه؛ فسالم يريد رؤيته الآن، تحرّك العم مجدي معه وأغلَقَ باب منزله الصغير وصعد من خندقه إلى سرايا سيف المنصوري.

أكمل فارس عملَه وأخيرًا انتهى منه، جلس على كرسيه وأسند ظهره، ثم رفع وجهه للأعلى ماسحًا بيده وجهه، متنفسًا الهواء، قد أرهقه العمل ونال منه اليوم، وهو في حالة الصمت

الـذي لا يقطعـه سـوى صـوت الطيـور بالخـارج، رنّ جـرس هاتفـه، جلبَـه مـن أعـلى المكتـب المجـاور، كان صاحـب مركـز الاتصـالات الـذي اطمـأنّ عـلى الطلبيـة، ثـم طلـب منـه الإغـلاق والذهـاب للنـوم بعـد هـذا الإرهـاق الـذي نالـه، فـرح فـارس مـن تقديـر الرجـل، وبـدأ سريعًـا في إغـلاق المركـز، أطفـأ أنـواره ثـم خـرج، وجـذب بيـده البـاب الصـاج للأسـفل، وقبـل أن يضـع المفتـاح للغلـق سـمعَ صـوتَ نـدبٍ وصراخ عـالٍ خلفـه، الْتفَـتَ للخلـف ليجِـدَ العـم مجـدي!

- البهائم قد سُرِقَت يا ولدي!

بعـد صراخ ووجـع وألم جلـس فـارس في غرفتـه حزينًـا، وقـد استسـلم لقـدَرِه وكأنـه عَلِـم أنـه لا تغـيّر، سـيظل كـما هـو، ويعلـم جيـدًا أن مـن سرَقَ البهائـم هـو ولا أحـد غـيره، سـالم سـيف المنصـوري، يرغـب في كـسره ويسـتطيع، ومـاذا عنـكَ يـا فـارس؟! هكـذا همـس داخـل نفسـه، محاولـة منـه لإيجـاد أجوبـة عـما يحـدث لـه؛ ليجيـب أنـه نكـرة لا شيء، مجـرد نملـة تحـاول الحيـاة وسـط ألـوف السـيقان التـي تتحـرّك حولهـا قـد تدهسـها في أيـة لحظـة، نملـة بعـض المـاء المتسـخ الـذي يُلقَـى في الطـرق يتسـبّب في غرقهـا، مجـرد نملـة، يجـب أن يعلـم هـذا جيـدًا، ثـم غـطّ في نـوم عميـق جـدًا.

منزل يوسف النعماني، بني آدم، ٣٠\١\٢٠١١م

مـرَّت جميلـة إلى المطبـخ لـترى إعـدادات الطعـام التـي طلبَتْهـا مـن الخادمـة؛ لتسـمع صوتًـا عاليًـا جـدًا قـادم مـن الصالـة، خرجَـت مسرعـة وقـد تناسَـت شـكلها العـام أمـام الخادمـة؛ ففـي الشـدة أو الألم أو الخـوف لا شـكَل عـام ولا شيء يهـمّ، فقـط مـا يهـم هـو أن تكـون بخـير، ركضـت مسرعـة لتجـد عـراكًا كلاميًـا كبـيرًا بـين يوسـف ويحيـى، أشـاح في نهايتـه يحيـى في وجـه والـده وخـرج عـلى أثرهـا مـن البيـت، مـاذا حـدث ليصـل الحـال هكـذا، اقتربَـت جميلـة مـن يوسـف الـذي جلـس وغطـس برأسـه بـين كفيـه، كـبرَ يحيـى وأراد الاسـتقلال، يخشَـى عـلى هـذا الولـد... يخشـى أن يـترك لـه كل شيء... يخشـى عليـه مـن نفسـه، شـاب شـقي، يـرى الدنيـا بعـين ضيّقـة، يعتقـد أن المـال فقـط قـادرٌ عـلى صناعـة حياتـه، يحتقـرُ الجميـع، كيـف لهـذا الولـد العـاق أن يحمـل اسـمه واسـم بيـت النعـماني؟! إلى مـاذا سـيصل؟! كيـف نبَـتَ هـذا الـزرع الـسيء لديـه؟! مـاذا فعلـتَ يـا يوسـف ليبتليـك الله بابـن كيَحْيَـى؟! يخـاف عليـه، ففـي النهايـة يحبّـه؛ فهـو ابنـه.. فلـذة كبـده، كيـف يـا بنـي؟! كيـف لا تـرى محبّتـي؟! كيـف لا تـرى مـا أتحمّـل منـك وسـأظل أتحمّـل؛ فـلا يمكننـي التخـلّي عنـك، أتعتقـد أننـي أمنـع عنـك المـال بُخْـلًا أو شيء كهـذا؟! أمنعـه

عنك حمايةً لك من نفسك حتى تعتدِلَ، وفي النهاية الكل لك يا ولدي، أرغب فقط في تربيتك بشكل حسن وتقويمك، تنهّد ليرفع رأسه ويستند على ظهر الأريكة خلفه، ليجد جميلة تربت على كتفه، وتتساءل عما حدث.

ملامح الحزن والوجع المرير كسَتْ وجه يوسف، وانعقد لسانَه واقتربت دموعه من الهروب من محبسها؛ فنهض ممسكًا بعصاه وملقيًا عباءَته على كتفه، ثم أجابها:

- فيما بعد.

وخرج راحلًا ليشتم بعض الهواء الحر، تاركًا جميلة تضرب أخماسًا في أسداس وتتساءل عما حدث، تظل جالسة على سخنٍ وبارد، يقتلها فضولها لتعرف ما حدث؛ لتجد فرحة أمامها وقد ارتمت في أحضانها باكية:

- ماذا هناك؟! ماذا حدث لكما يا أبناء يوسف النعماني؟! ماذا هناك أخبريني، هل أغضبكِ أحد؟!

لتعتدل فرحة وتتمالك نفسها وتسرد لها ما حدث:

- كنت أراجع بعض الدروس الخاصة بي، وشعرت بالرغبة في الذهاب إلى دورة المياه، خرجتُ من الغرفة وإذا بي أسمع صوتًا عاليًا خارج من غرفة أبي، اقتربتُ لأجد الباب مغلقًا، قررت الذهاب في طريقي، ولكن عاود الصوت ارتفاعه وبشكل

أشـدّ، حينهـا عـدتُ واقتربـتُ، أمسـكتُ المقبـض ووواربـتُ البـاب قليـلًا؛ لأرى مـاذا يحـدث؟ يحيى يهـين أبي بقسـوة! بل وصـل الحال إلى إزاحتـه وإسـقاطه عـلى الأريكـة! كيـف يحـدث هـذا يـا أمـي؟!

ازدادَتْ في البكاء، ثم تنفست وعادت لتكمل حديثها:

- ثم نزل إلى الصالة في الأسفل وأبي قد تبعه.

جحظَت عين جميلة:

- وماذا هناك ليحدث هذا؟

لتعود فرحة مكملة

- السـبب أن أبي قـد دفـع مبلغًـا يقـارب الخمسـين ألـف جنيهًـا لفـارس ابـن العـم مجـدي شـلش ليسـدّد بهـا مـا عليـه مـن مـال.

لتضرب يدها على صدرها:

- مـاذا؟! خمسـون ألـف جنيهًـا! لِمَ؟! أكان مُدايـنٌ لنـا؟! مـا هـذا؟! جننـتَ يـا يوسـف أم مـاذا؟

هكـذا كان رد فعـل جميلـة عـلى كلـمات فرحـة التـي غضبَـت مـن كلام أمهـا؛ لتعتـدل وتنظـر مبـاشرة إليهـا لتجيبهـا:

- ولِمَ لا يسـاعده؟! فـارس سُرِقَـت بهائمـه والوضـع لديهـم لا يحتملُ مبلغًـا كهـذا؛ فـأراد أبي المسـاعدة، أليـس هـذا جيـدًا؟ ألم ينقـذني فـارس حين حدثَـت الحادثـة وتركنـي حينها يحيَـى وركـض بعيدًا!

ألا يستحق بعض الشكر وبعض المساعدة! ألا تستحق حياتي مبلغًا كهذا لشكره؟! المشكلة كلها فيما طلبه فارس، طلب...

قالتها ثم توقفت فجأة وكأنها لا ترغب في قصّ ما تبقّى مما حدث؛ لتمسك جميلة بيدها وتجذبها بقوة وتنظر لها بعين صارمة:

- أكملي، ماذا حدث وكان السبب الأكبر في هذا الإشكال؟! تحدثي.

قالتها بغضب وبصوتٍ عالٍ، أخافَت فرحة التي انكمشَت داخل نفسها، هرب قلبها منها وحاولت السيطرة على تنفسها وأجابتها:

- ما حدث كان غير متوقع، فلا أنا ولا أبي توقعنا هذا، ولكن أبي تعامل بشكل جيد في الأمر وأنهاه.

غضبت جميلة أكثر:

- تحدثي.. ماذا حدث؟

لتسرد لها فرحة ما حدث:

- حين سُرقَت البهائم قدّم أبي المبلغ لمن استدان منهم فارس، بعد مرور يومين حضر فارس إلى المنزل هنا، لم يكن أحد سوى أنا وأبي، كنتِ حينها أنتِ ويحيى في زيارة لخالتي في أسيوط، حضر فارس مهندمًا وجلس مع أبي واستأذن أن أجلس معهما، جلسنا، وبدأ في شكر أبي على المساعدة وعلى تسديد الدين،

ووعـد بـأن يسـدِّدَ المبلـغ قريبًـا، جلسـنا جلسـة عاديـة حتـى تغـيّر الحـوار؛ لنجـدَ فـارس وقـد تقـدم لأبي ليطلـب يـدي! خيّـمَ الصمـت علينـا، لم نتوقّـع شـيئًا كهـذا قـد يطلبـه، لم نعـرف بـما نجيبـه، صمتنـا وانتظـر هـو الـرد، ولكـن طـال صمتنـا، حتـى فهـمَ مـا أراد أبي قولـه؛ فنهـض معتـذرًا وهَـمّ بالرحيـل، فاسـتوقفه أبي معتـذرًا لـه بطريقـة لا تجـرح مشـاعره، نعاملـه جيـدًا أنـا وأبي، لكـن لم يتوقـع أيٌّ منّـا أن يصـل تفكـير فـارس لهـذا الحـد، الفوارق الاجتماعيـة وغيرهـا يؤكـد عـدم التوافـق، لا نعـرف كيـف لم يفكـر في هـذا... رحـل وسـاد الصمـت بينـي وأبي، مـر يـوم واثنان وحـدث مـا حـدث مـن يحيـى، لا أعلـم مَـن أخـبرَه بـما حـدث، فـما حـدث لم يخـرُج عنـي وأبي وفـارس، هـذان السـببان هـم سـبب مـا حـدث بـين أبي ويحيـى، لا ذنـب لنـا يـا أمـي.. لا ذنـب.

لم تجـب جميلـة بكلمـة واحـدة، ولكنهـا طلبـت مـن ابنتهـا الصعـود إلى غرفتهـا؛ لتهمـس داخـل نفسـها بـأن مـا وصـل إليـه الأمـر لم تعُـد تتحمّلـه، فـما يفعلـه يوسـف جعـل الجميـع يطمـع، يتناسَـى مـن هُـو ومَـن هـم؟ فتوعّـدَت يوسـف لمـا يصـدر منـه مـن أفعـال جنونيـة أزالـت الحواجـز والمقامـات، وتلـك الأمـوال التـي يبعثرهـا يمينًـا ويسـارًا دون معنـى.

منزل يوسف النعماني، بني آدم، ١٠\٢\٢٠١١م

حاول يوسف إعادة لمّ شمْل العائلة مرة أخرى، هوّن الأمر على فرحة وجعلها تتناسَى ما رأته من يحيى اتجاهه، في النهاية هو ابنه وأخوها، حاول التقرب من يحيى وشرح له بالطريقة التي يفهمها ضرورة ما فعله لأجل فارس، ألم ينقذ أخته؟! فكان لزامًا عليه مساعدته حتى لا يعتقد الناس أننا لا أصل لنا، لا نتذكّر من فعلوا معنا الخير، أما عن فكرة الارتباط فربما فكرة مجنونة خطرَت له، وها قد تمّ الرفض وانتهَى الموضوع، وأخيرًا حاول إرضاء جميلة بما ترتاح إليه بهدية ذهبية اختارَتها على ذوقها، وعادت المياه إلى مجاريها بعد أسبوعين، لم يهنأ فيها يوسف ولا أحد من الأسرة، المهم أنه ساعد هذا الشاب في أزمته ورفض طلبه بما لا يتسبّب في أذى نفسيّ له، وتمكّن من إرضاء الجميع.. جلس الجميع في ليلة رضا، غناء ومزاح ولب وسوداني، ليلة من ليالي ما كانت تحياها الأسرة في بني آدم، أيام كانت تتجمّع حول طبلية، حين كان التجمع ليلًا عادة دائمة، يتسامر الجميع، حين كان الأب يحتضن ابنته والأم تداعب طفلها، حين كان هناك حديث، ليلة تمكّن يوسف من إعادتها للحياة، ليلة شعر فيها يوسف بأبوّته الحقيقية وجميلة عادت لدور الأم، يحيى وفرحة

عـادا لحضـن أسرة غابَـت عنهـما كـما غـاب الكثـير، ألم تتغـيّر بنـي آدم؟! حتى الأسرة تغـيّرَت، لم يقطـع هـذا الجـو العائـلي الجميـل سـوى زيـارة سـيف المنصـوري وولـده سـالم.

اجتمـع يوسـف وولـده يحيـى وسـيف وولـده سـالم لمناقشـة مـا عرضـه سـالم، كعادتـه كبـيرًا، ليبـدأ سـالم حديثـه:

- لم تعـد لدينـا رغبـة في تواجـد محـروس الغنـام وأولاده معنـا في الأرض في الظهـير الصحـراوي، يكفـي حتـى الآن مـا حصلـوا عليـه، نرغَـب في شراء حصتهـم وإخراجهـم، خـير تلـك الأرض لنـا، لا نرغـب في أن يزاحمنـا أحـد.

هكـذا تحـدث سـالم بمنتهـى الثقـة والثبـات متلقيًـا تأييـد كامـل مـن أبيـه سـيف المنصـوري، لا إجابـة، لا رد، فقـط الدهشـة هـي مـا كان رد فعـل يوسـف ممـا سـمعته أذنـاه، غـير مصـدق! كيـف نغـدر بمـن فـك لنـا أزمـة المـال حـين احتجنـا؟! كيـف نغـدر بمـن أكلنـا وشربنـا معـه؟! دخـل منازلنـا وتشـارك أفراحنـا وأحزاننـا، نغـدر بالرجـل وهـو يعطينـا ظهـرَه بـكل ثقـة وأمـان! ومـن أيـن يـأتي المـال الـكافي كثمـنٍ لـلأرض في حالـة حـدوث تـراضي وتقبّـل محـروس الغنـام البيـع والرحيـل؟! هكـذا حـاول يوسـف إنهـاء الفكـرة لكـي يقنعهـما بالرجـوع عـما يفكـران فيـه، فـلا وقـت ولا عـودة للمشـاكل والخلافـات؛ ليعـود سـالم بفكرتـه، نتحـدث بشـكل ودّي وإن لم نجـد اسـتجابة فلدينـا الطـرق القديمـة، لا جديـد فيـما سـنفعل؛ لينظـر لـه

يوسف مندهشًا من هذا الشاب الذي يعتقد أنه حكيم زمانه مستفسرًا منه:

- كيف يا حاج سالم؟!

ليعتدل في جلسته ويتنحنح وكأنه سيُلقِي محاضرة أمام تلاميذه، وكأنه أمسك الذئب من ذيله، لا شيء سوى بعض المضايقات، غلقُ الطرق بأي حجة متاحة، ربما بناءُ غرف لتكون استراحة، ربما وضع الجرّارات في الطرق طول الوقت لعرقلة حركتهم، لن يتحملوا طويلًا، حينها سيأتون ويقرّرون البيع؛ ليزداد اندهاش يوسف مما وصل إليه هذا الشاب الذي لا يختلف غروره عن غرور ابنه يحيى، كيف يحلّ هذا الإشكال وما سيتسبب فيه هذا الشاب المغرور وأبوه المندفع دائمًا؟! اعتدل ناظرًا لسيف، وأجاب برفضه القاطع لما تمّ عرضه، فمحروس الغنّام صديق عزيز لديه، لم يرَ منه شيئًا غادرًا أو رديئًا، بالإضافة إلى أنه لا رغبة لديه في الدخول في أي مشكلة من أي نوع، أرغب في زرع السلام لي ولأولادي وعائلتي وقريتي، فمحروس الغنّام ليس بابن أمس أو يمكن أن تنطلي عليه تلك الأساليب، ما ستفعله يا سيف سيفتح أبواب جهنم على الجميع، عليك بالتريث قليلًا والتفكير، لا للاندفاع خلف سالم، حينها انفعل سالم واشتد الحوار وتعالَت الأصوات؛ ليتفاعل يحيى أيضًا مشجعًا أفكار سالم، تمسّك الجميع بموقفه، هدأ يوسف وحاول امتصاص غضبهم منهيًا الحوار،

رحل سيف وولده عازمَيْن على بدء ما قرروا فعله، أما يوسف فقرر فتح الموضوع مرة أخرى مع سيف ليعدِله عن قراره الذي ربما سيفتح حربًا لا أحد يرغب بها.

مر وقت قصير حدث خلالَه ما أجبر يوسف على الوقوف على الحياد، لم يستطع ردعَ سيف ولا أن يحذّر محروس الغنام، شيء ما كَسَر ظهره، شيء ما صار نُقطَةَ ضعفه، ومن هنا بدأت الأزمة، فصل جديد على بني آدم كلها.

سرايا سيف المنصوري، بني آدم، ١\٣\٢٠١١م

عـاد فـارس لاعتكافـه، ومـا يمتلـك سـوى الاعتـكاف للتعبـير عـن وجعـه.. عـن قلـة حيلتـه.. عـن احتياجـه إلى يـدٍ تسـنده، إلى حضـن يحتويـه، لا وجـع أكثـر مـن وجـعِ الوحـدة، وجـع الشـعور بأنّـكَ عاجـز عـن فعـل أي شيء، وجـع أن تحلـم فقـط، وجـع أن ترغـب فقـط، وجـع أن تنحنـي فقـط، لا وجـع أكثـر مـن الاحتيـاج والكثـير حولـك، ولكـن لا حـق لـك فيـه! وجـع أن يكـون لديـك كل أسـباب البـكاء ولكنـك لا تملـك حتـى دمعـة واحـدة لتذرفهـا! اعتكـف وكعادتـه جلـس ممسـكًا بهاتفـه في منتصـف الليـل، وقـام بتشـغيل التسـجيل ليشـكو لنفسـه همَّـه، ومـن سيسـمعه أو يشـعر بانكسـاره! كل مـا رآه مـن فرحـة لم يكُـن سـوى سراب.. وَهْـم، كيـف تخيّـل ولـو للحظـة أنهـا تحبـه، أبوهـا اعتقـدَ أنـه رجـل صالـح ينظـر للإنسـان كإنسـان، الآن فقـط ظهـرَت حقيقـة الجميـع، الجميـع ينظـر كسـيّد وعَبْـد، كغَنِـيّ وفقـير، حتـى فرحـة، صمـتَ وبكَـى، اسـتغرق وقتًـا طويـلًا في البـكاء وذرف الدمـوع، اسـتمرّ الوضـع لأكثـر مـن ليلـة؛ ليبـدأ العـمّ مجـدي بالشـعور أن هنـاك أزمـة، جلـس مـع ابنـه لعلـه يتمكّـن مـن إخراجـه مـن حزنـه هـذا، ولكـن إن اجتمـع ضعيف بضعيـف فـماذا سـيضيف؟! مـا فعلـه فقـط هـو النصيحـة لابنـه، بـأن يعيـش وفقًـا لمـا أمامـه، أن ينظـر فقـط لحجمـه، مـن نظَـر لأعـلى كثـيرًا

سقط وانكسرَت رقبته، أخبره حينها فارس بقراره:

- لم يعد لديّ القدرة على العيش في بني آدم، أبي، لا أتقبّل أن أظل خادمًا، قراري النهائي هو أنني سأذهب إلى خالي في الوادي الجديد، سأعمل هناك، أخبرَنِي أكثر من مرة أن الوضع ملائمٌ في التجارة هناك، ولكن تمسّكي بهنا كان لأجل فرحة والدراسة، والآن فقدتها، سأرحَل خلال يومين، وسأعود إليك كل شهر؛ لأبقى معك بضعة أيام.

سمع هذا الكلام وانفجر في البكاء العمّ مجدي، ولده.. سنَدُه.. من يتعكّز عليه سيتركه وحيدًا ويرحل، ألم أقل إذا اجتمع ضعيف بضعيف ماذا سيضيف! هوّنَ فارس على والده وطلب الموافقة حتى يتمكن من اجتياز ما حدث له من سرقة بهائم وفقدانه لفرحة ورفض أبيها، هزّ العم مجدي رأسه موافقًا، واقترب محتضنًا ابنه، حضنٌ متأخر، لم يحضنه منذ أيام الثانوية، لا نشعر بقيمة الأشياء إلا حين نقترب من فقدانها أو نفقدها، انتهى اليوم؛ ليبدأ يوم جديد برحيل فارس مجدي شلش إلى الوادي الجديد.

على الجانب الآخر خلف غرفة فارس بمضيفة سرايا سيف المنصوري، جلس سيف وابنه سالم وبدأ في تنفيذ ما خطّطَا له منذ فترة، بدأ العد التنازلي لمرحلة تطفيش محروس الغنام، وبدأت بني آدم مرحلة جديدة وفصلًا جديدًا...

سرايا سيف المنصوري، بني آدم، ٣\٣\٢٠١١م

- أكثِر من الرجال والسلاح يا مجدي.

هكذا وجّه سيف المنصوري حديثه إلى العم مجدي، الذي انتابه الخوف مما قد يحدث، حاول التقرب منه وتقديم النصيحة بالتروّي؛ فالحوار هو أصلح الطرق للحصول على ما تريد، والصدمة كانت الإجابة بشكل واضح وصريح، كشّر عن أنيابه بعلوّ صوته، هكذا أجاب سيف المنصوري منتقدًا العم مجدي، طالبًا منه فقط تنفيذ ما يُطلَب منه، طأطأ الرأس ملتفًا ليفعل كما أُمِر، تحرّك بأقدام ثقيلة، يشعر بأن اليوم لن يمرّ مرور الكرام، توقّف فجأة على مقربة من حائط أخفَى رؤيته لسيف المنصوري؛ لتتعلق عيناه بالسماء وقد خطَر له فعلٌ قد يغيّر الأمور، أو على الأقل يحاول السيطرة على الأحداث، نظر يمينه ويساره ليتأكد إن كان أحد يراه أو لا، اطمأنّ فأمسك بيده جلبابه؛ لكي لا يعوقه، وانطلق مسرعًا في اتجاه سرايا يوسف النعماني، ليجد الخادم نائمًا فيوقظه، يستفسر منه عن الحاج يوسف؛ ليكتشِفَ أنه عاد من صلاة الفجر وقد خلَدَ للنوم، ولا يمكن للخادم إيقاظه؛ لأنه يشعر ببعض التعب، وأخبره أن يتركه حتى يستيقظ بمفرده، حاول العم مجدي مع الخادم، ولكن لا استجابة، ترك

حينها رسالة للخادم وأخبره أن يخبرها للحاج يوسف بمجرد استيقاظه، أن يذهب إلى المزرعة بالظهير الصحراوي؛ لأن الأمور غير منضبطة والأوضاع مشتعلة بين الحاج سيف والحاج محروس الغنام، وأن العمّ مجدي غير مطمئنّ اليوم؛ حيث أن سيف وولده سالم أكثَرُوا من حمل الرجال والأسلحة اليوم كغير المعتاد، ثم عاد العم مجدي أدراجه، وكغير عادته أيضًا دخل إلى بيته وأيقظ فارس ليحتضنه؛ ليضحك فارس من فعلة أبيه ثم يعود للنوم، ويرحل العم مجدي وسيف وسالم والرجال إلى المزرعة.

وصل الجميع مبكرًا إلى المزرعة؛ ليبدأ الرجال في التوزيع إلى الأماكن التي أشار لهم بها سالم، وكأنه كان قد أعدّ خطة مسبقًا، وأرسل البقية إلى البَدْءِ في أعمال المزرعة، ثم أمر بعض الرجال بوضع الجرارات والسيارات على الطريق في الجزء المؤدي إلى الجزء الخاص بالحاج محروس الغنام، كعادة ما يفعلونه منذ عدة أسابيع؛ ليتوجه بعدها سالم إلى والده:

- لقد طال الأمر أكثر مما توقّعت، هذا الرجل لا زال يلعب معنا البيضة والحجر، يكفي هذا يا أبي، لابد من بعض العنف، من اليوم هذه المزرعة بكاملها لنا، يكفي أنها فكرتُك وتعبك؛ فمحروس الغنام يكفيه قريته، أما هنا فهي لنا.. وحتى العمّ يوسف، رجل ضعيف يرغب في الحصد دون الزرع، أرغب يا أبي في فكّ شراكته وشراء ما له، أنت

سيف المنصوري ولا أحد مثلك، يجب أن يعوا هذا.

لتظهر ملامح الاستطراء على وجهه مجيبًا:

- معك يا بني وهذا ما سيحدث، لا تتعجّل، دع اللحمة تستوي كما تشاء؛ لتشعر بطعمها.

وخلال ساعات قليلة حضر محروس الغنام مصطحبًا ابنيه محمد الجزار الغنّام والطبيب مدحت الغنام، حضر الاثنان مع أبيهما محاولةً منهما للاستفسار عما يحدث وعن شكوى رجالهم من معاملة رجال سيف المنصوري، ترجّل الحاج محروس الغنام من سيارته وخلفه ولديه ليقترب من سيف المنصوري:

- يكفي ما يحدث، فلتأمر رجالَك فورًا برفع الجرارات والسيارات من الطريق ولتعُد إلى رشدك، يكفي استخفافًا؛ فالصبر لن يستمر طويلًا.

- وهل هذا تهديد؟!

كانت الإجابة من سالم الذي تقدّم عن أبيه ليقترب كثيرًا من محروس الغنام، اقترب كثيرًا لدرجة تلامس الأنوف والشرر يخرج من عينيه؛ ليقترب محمد الجزار من أبيه وسالم ويصرخ:

- هل نسيتَ نفسك أيها الصغير أم ماذا؟

محركًا يده تجاه سالم ليمنعه أبوه، محوّلًا نظره إلى سيف

المنصوري مكملًا حديثه؛ لعله يحصل على إجابة من شيخ كبير واعٍ تُنهِي ما يحدث:

- يكفي هذا، هيا يا سيف.. فلتخبر الرجال برفع الجرارات، ولنا حديث بيني وبينك يريح الجميع.

ليجيبه حينها سيف:

- لا مكان لها، سننهي أعمالنا ونرحل، حينها يمكنكم مباشرة أعمالكم.

لينفعل الحاج محروس الغنام مشيحًا بيده في اتجاهه:

- أجننتَ يا سيف، ماذا تقول؟! أتعي كلامك هذا أم أنك تهزأ؟!

حينها قبض سالم بيده على يد محروس:

- اليد التي تُرفَع علينا تُقطَع في حينها، فلترحل برجالك؛ فلا مكان لكم هنا.

وقبل أن يجيب فقد الجزار القدرة على ضبط نفسه كما أمره والده؛ ليقترب أكثر من سالم واضعًا رأسه برأس سالم كثورَين متناطحين:

- فلتريني إذًا، ها هي يدي.

ليقوم سالم بدفعه بقوة، يتدخل الحاج محروس والطبيب مدحت والعم مجدي محاولة منهم لضبط الأمور التي ومن الواضح أنها

انفلتَت، صوت طلقات خرجت من مسدس سالم الذي أخرجه في اللحظة، وبدأت شرارة إطلاق النيران وبدون وعي تجاه الجزار، الذي هرع والده محروس الغنام أمامه ليتلقّى كل الرصاصات بدلًا عنه، حركة عشوائية ملأت المكان وركض الجميع، وعلت أصوات النيران كثيرًا، في لحظات معدودة تحوّل المكان لساحة حرب حقيقية، قتلَى، ودماء في كل مكان، أخرج الجزار مسدّسه وصوّب تجاه سالم لتصيب الطلقة العم مجدي في منتصف جبهته؛ لترديه قتيلًا في لحظات بسيطة، ما بين الحياة والموت شعرَة؛ فالحياة لا أمان لها والموت لا أمان له، حتى وإن كنت تعي بوجوده، الموت لا يخبرك حتى تتدبّر حالك، الموت سارق بمنتصف الليل وأنت نائم، لا تدريه ولا تفهم اختياراته، الموت آتٍ لك ودون أن تدري مهما انتبَهْتَ له، فسيسرقك دون انتباه!

بالفوضى والعشوائية وانتهاء الذخيرة التي حملها سالم وأبوه، حاولا الهروب حتى تمكّنا من العودة إلى ديارهم، مرت دقائق حتى أدرك الجزار وأخوه مدحت الطبيب الذي أصابته الصدمة مما يحدث؛ فلا هذه طريقة آدمية ولا أسلوب حوار، كيف حدث هذا؟! تاه عقله في لحظة مما يحدث، ألم يتّفِق هو وأبوه وأخوه على ضبط النفس، كيف حدث هذا؟! كيف ترك الجزار نفسه للانفعال؟! حاول ضبط تفكيره، حاول الثبات ولو للحظات؛ ليدرك تمامًا وقف إطلاق النيران فينهض سريعًا، يركض في اتجاه

والـده محـروس الغنـام؛ ليجـد الجـزار جانبَـه وهـو يحـاول الحديـث معـه، لم يكـن محـروس الغنـام قـد مـات بعـد، اقـترب مدحـت منـه محـاولًا تقديـم الإسـعافات الأوليـة، وحينهـا في تلـك اللحظـة يقبِـلُ عليهـم يوسـف النعـماني سريعًـا محـاولًا فهـم مـا يحـدث؛ ليجـد صديقـه محـروس الغنـام ملقـى أرضًـا وينـزف دمـاءه بغـزارة؛ لينهـض الجـزار مقتربًـا بسرعـة موجهًـا مسدسـه في وجـه يوسـف النعـماني لقتلـه، ليسـمع صـوت أبيـه الـذي يـكاد يخـرج بصعوبـة بالغـة:

- لا، يوسف لا ذنب له، إنه أخي.

ليقـترب يوسـف منـه صارخًـا في الجـزار، افعـل مـا شـئت ولكـن بعـد أن ننقِـذَ والـدك؛ ليحملـه يوسـف في سـيارته وينطلـق بسرعـة غير معتـادة إلى القـصر العينـي، أخـرج هاتفـه أثنـاء القيـادة ليخـبر أحـد معارفـه هنـاك بتحضـير الطـوارئ سريعًـا، وقبـل أن يصـل الطريـق الرئيـسي مـات محـروس الغنـام! لتبـدأ مرحلـة حرجـة في حيـاة بنـي آدم، كانـت فتـح بوابـة تطـل مبـاشرة عـلى جهنـم.

قهوة الحسنية، بني آدم، ٥\٥\٢٠١١م

مر على الحادثة أكثر من شهر شغلَت كلّ بني آدم، هنا في قهوة الحسنية لا يشغلهم سوى تلك الأحداث وما يترتب عليها، الجميع يتهامس، وبإحدى الطاولات الخشبية المتهالكة جلسَ كلٌّ من كريم نصر النعماني بملابسه الكاجْوَل ونظارته الشمسية يحتسي فنجانًا من القهوة، يستمع إلى يحيى يوسف النعماني الذي منذ بدأ الحديث لم يصمت، كل ما يفعله يثرثر.. ثم يثرثر.. ثم يتنفس شيشته، ليقاطعه كريم:

- لم يعد للانتظار معنى، نفذَ الصبر، حتى متى سيظل البعد بيني وبين فرحة؟ كفى وعودًا يا يحيى، لم أجعلك تنتظر لحظة في كل ما طلبت، شاركتُك رغم قلة مالك وأنت أعلم أن المال هو الأساس، لم أعد أطيق العمّ يوسف، فلا يمكنه رؤيتي جيدًا، يلومني على ما يفعله؟! أيظنني نصابًا وقاسيًا لمجرد استثماري للمال، إذن ماذا يكون هو؟!

قالها وعاد لقهوته؛ لتتغير ملامح يحيى لملامح شخص ضعيف متردّد خائف، ثم يجيب:

- أنت تعلم أنني مكبّل الأيدي، تعلم أني لا أستطيع القرار ولا أستطيع حتى التحكم في شيء، أبي بيني وبينه خلافات لا تُحصَى،

ضـع نفسـك مـكاني يـا صديـق، إننـي أستشـيرك مـاذا أفعـل؟!

قالها بغضب وانتظر الإجابة، لينظر له كريم بشفقة مجيبًا:

- أعلـم يـا ابـن العـم ولكـن لابـد لوضـع حـد الآن، أنـا لم أتـزوج ولـن أتـزوج غيرهـا، إني أحبهـا وهـي تحبنـي وأنـت أعلـم بهـذا، لا أرغـب في مـرور الأيـام دون جـدوى، ناهيـك عـن الأحـداث اللعينـة التـي حدثـت؛ فانسـحاب سـالم مـن كل صفقاتنـا كان إفـادة وكان خسـارة.

- إفادة كيف؟!

- إفـادة أن نبتعـد عـن مـا يحـدث بينهـم وبـين عائلـة الغنـام؛ فلـديّ إحسـاس بـأن الأمـور لـن تسـير وفقًـا لمـا يحـدث، فـما يقـال عـن مصالحـة وكفَـن أشـعرُ أنـه الهـدوء الـذي سيتسـبّب في مقتـل الجميـع، أمـا الخسـارة ففيـما سـحبَه مـن أمـوال مـن مـشروع الأقسـاط، نحتـاج للـمال وإلا سنفشـل فشـلًا ذريعًـا، عليـك بأبيـك، فلـم يعـد لـديّ القـدرة عـلى الدفـع لـك مـرة أخـرى.

عوج يحيَى فمه كثيرًا، لا يدري ماذا يفعل، ثم تساءل:

- هل تشعر أن الأمور لن تسير جيدًا؟!

- نعم، لن تسير جيدًا، هكذا أخبرني حدسي.

- وما العمل إذن؟! نحن من العائلة، أم نسيت؟!

توقف كريم عن ارتشافه لقهوته، ثم خلع نظارته ونظر ليحيى مجيبًا:

- لم أنس يا ابن العم، ولكني بدأتُ خطوات، أنا ابن نصر النعماني عضو مجلس الشعب، أم نسيت؟!

قالها وهو يغمز له، ثم أردف:

- لا أحد يستطيع مسّي، المعارف والعلاقات لا زالت تحميني، حتى بعد الثورة، الثورة لا تصل هنا، هنا قانون ونظام لا يختلف مهما حدثَ في المدينة، الخوف وكامل الخوف عليكَ أنت وأبِيك، يجب أن تحذر وتطلب حرسًا لك ولكم.

اكتملت صدمة يحيى، فما يرعب يحيى دائمًا فكرة القتل أو الموت، اقترب لكريم متسائلًا ما يجب عليه فعله؛ ليجيبه كريم:

- يجب أن تتواصل مع الجزار، لا بد من عقدِ صفقة لحمايتكم وحماية سيف المنصوري؛ فلا كفَنَ ولا مصالحة ولا غيره، لابد من التواصل والتفاوض للوصول لحل، حتى ولو قدّمتم تنازلات؛ فلا حرية دون تنازل، ولا سلام دون تضحية.

لينظر له يحيى بلؤم:

- تفاوضتَ أنت معه؟!

ابتسم كريم وأجاب:

- بالطبع، يجب عليك أن تكون سياسيًا ولو قليلًا؛ فالسياسة هي ميزان العلاقات يا صديقي.

تأمل يحيى الجملة الأخيرة، مقررًا في باله أن يتحدث مع والده لإخباره بأن يبدؤوا تفاوضًا حقيقيًا مع آل الغنام، حتى ولو وصل الأمر للتخلي عن سيف وابنيه؛ لينظر له كريم مزيدًا جملة أخرى:

- وإن احتجتني فأنا دائمًا في ظهرك يا صديق، وأشيرُ عليك بالأصلح كما تعودتَ مني.
- بالطبع يا ابن العم، أنت أخي وشريكي دائمًا، لا يحرمني الله منك.

منزل فارس مجدي شلش، بني آدم، ٦\٥\٢٠١١م

جلس فارس وحيدًا يحتسي كوب الشاي خاصته، يرتكز ممدِّدًا على كنبته المخلخلة، يحمل كوبه بيده وينظر لسقف غرفته، يتأمل.. يفكر، أو يحاول البحث عن حلول لما آل إليه؛ فبني آدم بدأ بها الركود بعد ما حدث، لم تتأثر بأحداث 25 يناير ولا بتغيّر نظام الحكم أو الدستور أو القوانين أو المسئولين، لا شيء تأثّرَت به، ومنذ متى تصل لنا نتيجة ما يفعلون؟! هم في عالم ونحن في آخر، فلا قوانين ولا دستور ولا مسئولين ولا ثورات ولا تمرد ولا أحداث تعني لنا شيئًا! نحن مجرد تكملة، ولكن بعد حادثة مزرعة السالم والغانم وتبدّل الحال هنا في بني آدم، فلا خروج ولا دخول، الجميع يترقب ماذا سيحدث، نعم هناك تحركات من الجميع الكبار أمثال يوسف النعماني، أو مأمور المركز، ولكن ماذا سيحدث؟ وما هي النتيجة؟ لا زالت مجهولة! أما نحن فتأثرنا، توقفَت التجارة وتأثرت الزراعة والحركة، وسنظل هكذا حتى تنتهي الأزمة، مالَنا ولهم، هكذا حال فارس وتأمله للأحداث، ولكن لا يهمه ما دام يتمكّن من الترحال والذهاب أسبوعًا بالوادي الجديد للتجارة على قدر إمكانياته، وأسبوعًا هنا ببني آدم، ولكنه يحتاج إلى مال أكثر كي يتمكن من تثبيت

تجارتـه ومجـاراة التجـار الآخريـن، ظـل يفكـر ويفكـر ويفكـر حتـى قطـع حبـل أفـكاره صـوت طرقـات عـلى البـاب؛ ليجـد سـالم سـيف المنصـوري! فعقَـد حاجبيـه متعجبًـا

- أستاذ سالم!

ليبتسـم لـه سـالم ويطلـب منـه إذْنَ للدخـول ويشـارك معـه كوبًـا مـن الشـاي، ليـزداد تعجـب فـارس أكثـر وأكثـر متحدثًـا لنفسـه: "مـاذا هنـاك؟!".

جلـسَ الاثنـان وبـدأ سـالم في حديثـه وهـو ينظـر أرضًـا ليـس كعادتـه/ رأسـه مرفـوع وعنقـه ممـدود.

- أرغـب في أن تسـامحني عـلى كل مـا فعلـتُ معـك ومـا صـدر منـي، أعلـم جيـدًا أننـي أخطـأتُ في حقـك الكثـير مـن المـرات، أعلـم أننـي تسـبّبتُ في إهانتـك، وأننـي كنـت قـاسيَ الطبـع وبـذيء اللسـان، أرغـب لـو عـاد بي الزمـن لَمـا فعلـتُ هـذا، أنـت أخـي يـا فـارس، نشـأنا معًـا، لعبنـا معًـا، كبرنـا، أكلنـا العيـش والملـح معًـا، في نهايـة الأمـر أنـا أخطـأت والأخـوة يتخاصمـون، ولكنهـم يعـودوا فيتصالحـوا، أرغـب في المغفـرة منـك لي عـن كل شيء، ولـكَ مـا تطلـب.. سـأصنع حتـى ولـو كان الاعـتراف أمـام الجميـع بـكل أخطائـي تجاهـك وطلبـي مغفرتـك أمامهـم.

بكـى وهـو يتحـدث، بكـى كثـيرًا حتـى أنـه لم يسـتطِع التحـدث؛

لينهض فارس متعجبًا مما يحدث ويقترب منه يربُت على كتفيه؛ ليجد سالم وقد ارتمى في أحضانه، بل حاول أن يقبّل يده توسلًا للمغفرة؛ فأنهضه فارس سريعًا:

- أنت سالم سيف المنصوري لا تتوسل لأحد، أنت أخي ومَن سأخدمه حتى الممات كما كان أبي لأبيك، غفرتُ لك، لا تبكِ، تذكر أنت سالم سيف المنصوري كما كنتَ تقول دائمًا.

ليعود سالم ويحتضنه، ثم يعود للجلوس مكانه مرتشفًا من كوب الشاي الخاص به، وهكذا فارس، الذي ازدادَت حيرته؛ فليس هذا هو سالم المتعجرف المنفِر، ماذا حدث له؟! أم أنه حقيقة ما يتحدث عنه الجميع، بأنه قد تحول مائة وثمانون درجة وتغير للأفضل؛ ليقطع فارس حبل أفكاره هو ليتيقّن بنفسه موجهًا سؤاله لسالم:

- ماذا حدث لك؟! ماذا هناك ليغيّرك هكذا على النقيض، إن أردت أن تخبرني.

ليبتسم له سالم مجيبًا:

- اسأل كيفما تشاء وفيما تريد، أرغب في بَدْء صفحة جديدة معك نصبح فيها أصدقاء، سأخبرك كل شيء.

أسند ظهره على الحائط خلفه ونظر للأعلى وكأنه سيناجي ربه، وبدأ في الحديث.. تحدث كثيرًا جدًا، نظّفَ نفسه قدر ما

تمكن، اعترف بأخطائِه كاملة، الظاهرة منها والخفية، تحدّث عن خوفه، عن وِحدَته.. عن أرقه وكوابيسه، عن ضعفه، حتى وصل أخيرًا للبداية، بداية جديدة لحياة جديدة:

- بعد الحادثة شعرت أن الموت قريب جدًا، رأيته بعيني، رأيته يقترب كثيرًا مني؛ فلا أمان له، ولا ميعاد محدد، أخافه وصرتُ أخافه أكثر، جعلني هذا أفكر وأعيد التفكير كليًا في كل شيء، سأمرّ على الجميع وأقدم ندمي واعتذاراتي، سأتوب وسأساعد قدر ما أستطيع، أنتَ يا فارس، لكَ منّي كل خدمة ممكنة، لك مني الصداقة والحب، لك مني مساعدتك حتى تتمكّن من البدء فيما كنت تحلم؛ مشروع صغير لتجارة البهائم، سأدعمك بالمال، ولك مني ما تريد، يكفي أن والدك قُتِل بسببي.

ليعود ويصحح كلماته:

- بل ضحى بنفسه لأجلي.

ويكتمل الحديث ليشعر فارس بأن هناك تغيّر حقيقي طال سالم سيف المنصوري المتغطرس وحوّلَه إلى هذا الرجل الهادئ الطيب! بداية جديدة.

رحل سالم تاركًا مبلغًا ماليًا جيدًا؛ ليستطيع فارس البدء في مشروعه، بكى فارس من هذه المعونة الإلهية التي انتظرها لزمن

طويـل، لمَ لَمْ تـأتِ مبكـرًا؟ لِمَ لَمْ يتغـيّر هـذا السـالم مبكـرًا؟ أكان يجـب حـدوث كل هـذا ليشـعر.. ليحـن... ليتغـير، لِمَ الأوقـات لا تنضبـط؟! لِمَ لا تحـدث الأمـور في مواقيتهـا؟! لِمَ لا تسـير الأحـداث بشـكل منطقـي جيـد؟! لِمَ لا ينتهـي الـشر أو أن يظـلّ الجميـع أطفـالًا؟! لِمَ يجـب أن يمـوت الكثـير؟! أن يكتئـب الكثـير؟! أن يتسـيّد الكثـير ويُسـتعْبَدَ الكثـير؟! ينحـرف الكثـير ويُحبَـس الكثـير؟! ظـلّ يفكـر حتـى عـاد للواقـع، والواقـع لا تنضبـط مواقيتـه، عـاد للواقـع عـلى صـوت هاتفـه؛ لينظـر الرقـم ويجيـب:

- ألو، مَن معي؟

لتتسـع حدقـة عينيـه فـور سـماع اسـم المتصـل، وتسـيطر ملامـح الغضـب عـلى كامـل تفاصيـل وجهـه.

ربما تعتقد أنك تعلم كل شيء! ربما تعتقد أنك تفهم ما يحدث! ربما تعتقد أن حياتك حياة بسيطة عادية! يجب أن تصدق أنكَ مجموعة أسرار؛ فلا أحد يعرف نفسه جيدًا، فما لا نعرفه أكثر بكثير مما توصلنا إليه...

«جميعنا نتاج ما اختاره الآخرون، وما سنختاره سيكون نتاجه آخرون».

الفصل الرابع والأخير

بنـي آدم الجديدة

منزل نادية إحسان، عين شمس ٢٠١٣م.

مـرت سـنوات طـوال، انتقلَـت فيهـا ناديـة وبَرَكَـة مـن شـبرا إلى عـين شـمس، وانقطـع الاتصـال بينهـم وبـين يوسـف النعـماني، لم تصـل ناديـة إلى شيء، لم تعـرِف إجابـة واحـدة عـن التسـاؤلات التـي شـغَلَتْها، وحـين انقطعـت أخبـار يوسـف وتغـيّر مـكان عملهـا وسـكنها قـرّرَت صـبّ تركيزهـا عـلى الاهتـمام بتربيـة بَرَكَـة، مـرت السـنوات حتـى وصـل بركَـة إلى تخطّـي العـام الثامـن عـشر مـن عمره، وصـل دراسـيًا إلى كليـة آداب قسـم إعـلام، يـدرس حاليًـا في السـنة الثانيـة، خـلال السـنوات الطـوال توالَـت الأمـراض عـلى ناديـة، ومـا تسـبّبَ في سـوء الحالـة الصحيـة أكثـر مـا مـرّ بالبـلاد مـن أحـداث الخامـس والعشريـن مـن يناير، ثـم تنحّـى الرئيـس مبـارك وتـولّى المجلـس العسـكري الحكـم، يليـه صعـود الدكتـور محمـد مرسـى وجماعـة الإخـوان إلى سُـدّة الحكـم، دولـة سـاد فيهـا الثبـات لأكثـر من سـتين عامًـا، وتبـدل الحـال في ثـلاث سـنوات بشـكل مخيـف، لم يعتَـد

أحد على التغيّر، خاصة من الأجيال التي عاصَرَت ثبات الحكم، ناهِيكَ عن الفوضى التي حلّت بالبلاد؛ فلا أمن ولا تحكم ولا عمل، فوضى عارمة، أكان يعني مبارك ما قال حين قال «إمّا أنا أو الفوضَى»، أكان مجردَ ترهيب؟ أم كانت حقيقة؟ أم مؤامرة؟! لا إجابات واضحة حتى الآن؛ فلكل رائي فرسان هيكل يدافعون عنه، ولغة الحوار انهارَت، ما بقي سوى لغة الاشتباك، الألفاظ النائية، الاتهام، الحرب.. نعم الحرب؛ فكُلّ فصيل يسعى بكل قوته وجنوده لتثبيت رأيه، وفي وسط كل هذا سقط الضعيف والمواطن البسيط الذي يرغب فقط في بعض الهدوء ولقمة عيش؛ فلا يهوَى السياسة ولا يعي فيها شيئًا، ما يعنيه هو الهدوء مع هؤلاء أو هؤلاء فلا توجّه لديه، أصاب الخوف نادية، خاصة مع اندلاع العنف المُفرِط في الموضع الذي تسكن به، وتوقف العمل الهندسي؛ فالاستثمارات توقّفَت تمامًا، تأثرت نفسيًا مع المرض العضوي وإصابتها بالسكر، شعرت بنهايتها، جلست على الأريكة تلتفّ بشالٍ أسود حماية من برد تلك الليلة، وتضع أمامها كوبًا من الشاي، معلقة النظر في مرآة موضوعة على أحد الجدران تتأمل نفسها، ضعُفَ النظر أكثَر وتلوّن الشعر باللون الأبيض الكامل، تجعّدَت البشرة بما ينبهها بأن الجسد لم يعُد شابًّا، وقد قاربت خلاياه على الاستسلام والموت، ابتسَمَت هامسة لنفسها:

- ليت الشباب يعود يومًا، ولكن يكفي ما أخذناه من الحياة، ما يرعبني حقًا هو أن أترك بَرَكَة وحيدًا، أرغب في إخباره ما أخفيه عنه، أرغب أن أموت وأنا لا أخفي عنه شيئًا كي يرتاح ضميري، رغم أن هذا سيذبحني حين يكتشف أنني لستُ أمّه التي حبلَت به ووضَعَتْه، فما فعلته من أجله لا أمّ في الدنيا ستفعله، ولكن له الحق في المعرفة.

تنهّدَت واعتدلَت لتنظر أمامها إلى الطاولة الخشبية الصغيرة أمامها، ثم مدّت يدها إلى درج صغير بجانب الطاولة وأخرجت منه دفترًا صغيرًا وقلمًا، وبدأت في خطّ ما ترغب في إخبار بركة به، ربما ما لا نستطيع قوله مباشرة وجهًا لوجه يمكن قوله بسهولة حين نكتبه، هكذا أقنعَت نفسها وبدأت في الكتابة....

***

مرت بعدها الأيام، لم يكتمل شهر ورحلت نادية عن هذه الحياة وقلبها مكتوي من الخوف والقلق على ابنها وما سيعانيه، قرّر بركة بعد موتها بأسبوعين قراءة خطابها الذي تركته وأخبرته أن يقرأه بعد موتها؛ ليخرجه من محبسه ويفتحه، ثم يبدأ في قراءة كل كلمة خُطَّت فيه....

"بركة، قلبي وعقلي وروحي، تعلم كم أحبك، تعلم كم أتعلّق بك، وتعلم ما أشعر به وأعانيه حين تغيب عن ناظري لحظة واحدة، أنت بركتِي في الحياة، أنت وعد الله لي بأنني

لستُ أرضًا بورًا، أنت من أسكَتَ كل الألسنة وسهامهم التي جرحتني، لا أحد يعلم سواك كم أنت غالي عليَّ، ابني الغالي الحبيب، قلبي يكاد يتوقف وأنا أكتب إليك ما سأكتبه، فما ستقرأ الآن مجرد معلومات فقط حتى لا أشعر بأنني أخفيتُ عنك شيئًا، لكن الحقيقة التي يجب أن تعلمها أنك ولدي من أحشائي ومن قلبي، لا أحد يحبّك مثلي، لن أطيل أكثر؛ فأنت تعلم جيدًا... البداية حين أغلَق الله رَحِمِي؛ فلم أكن قادرة على الإنجاب، حينها شعرت بأن الحياة توقّفَت، ولكن فتَحَ لي الله بابًا آخر وكان إحسان، لم يتخلّ عني، لم يتركني لحظة، وقف حائطَ صدّ لكل كلمة وغمزة وجرح من الآخرين تجاهي، وقف سندًا لي، مررنا بوجعنا معًا، تخطّينا مشاكلنا معًا، ونادَتْنا غريزة الأمومة والأبوة، ظَلَلْنا نبحث عن طفل ولم نشعر تجاه أحد بقبول كامل كطفل حقيقي لنا، حتى رأتْكَ عيني وذاب قلبي، شعرتُ حينها أنّكَ ولدي الحقيقي، أحضركَ شخص يُدعَى يوسف النعماني سالم، كنتَ حينها طفلًا صغيرًا لا يزيد عمرك عن ست سنوات، أخبرني أنكما من قرية من سوهاج، وأن كل عائلتك توفّيَت، لا لشيء، ولكن لحكمة الله، ما عرفتُ بعدها أنه ليس من سوهاج، ولا أعلم لمَ كذَبَ عليّ؟ ستجد مرفق بهذا الخطاب، صورة بطاقة شخصية له، تمكّنتُ خلسة من الحصول عليها، الاسم بالكامل.. يوسف النعماني سالم، محل السكن محافظة أسيوط، قرية بني آدم، هو رجل معروف

أو غني، هذا ما استنتجته في حديثنا في الثلاث مرات التي زارنا فيهم، وانقطعت أخباره بعدها، وانتقلنا نحن للعيش هنا في عين شمس، ولا أعلم شيئًا عنه يا بني، لا أعلم هل شخصٌ جيد أو سيء، فقط ما أخذته عليه هو كذبُه بشأن محل سكنه، أما خلاف ذلك فكان رجلًا صالحًا، لا أعرف شيئًا عن عائلتك، ولكنه ترك لنا مبلغًا من المال كبير وهو ما ساعدنا للصمود في التغيرات التي حدثَت في البلاد في الآونة الأخيرة، شيءٌ آخر لك أن تعرفه، ربما إن أردتَ يومًا البحث في هذا الموضوع، رغم أنّني أفضّل أن تنسَى، أنا فقط أخبرك حتى يرتاح ضميري، وربما تحتاج إلى البحث يومًا عنه؛ حين أتيتَ كنتَ تحمل حقيبة، تلك الحقيبة تحمل بعض الدفاتر الخاصة بكَ، ودفاترًا لصبيّ يُدعَى فارس مجدي شلش، هكذا كان مدوّن على دفاتره التي كنت تحملها في حقيبتك، أعتقد أنه طفل يبلغ من العمر حينها أحدَ عشَر عامًا، كان في المدرسة في الصف الخامس، كان من الواضح أنكما صديقان أو مقربان، لدرجة أنك كنت تحمل له كتبه، هذا كل ما عندي يا بني، أدعُو الله أن يحميك.. أن يحفظك، أن يستر ما ستمرّ به، أن يرعاك في كل خطوة وكل طريق، ابني أنت وقلبي، أنت الحياة وعطية الإله لي.

أمك: نادية

أحبك حتى المنتهَى.

قـرأ الخطـاب والدمـوع تتسـاقط مـن عينيـه، رحلَـت نادية في صمـت؛ فـلا أحـد لـه سـواها، ولا أحـد لهـا سـواه، ليتهـا مـا أخبرتـه، ليـت المـوت مـا فرّقَهُـما، بكـى فـلا يـدري مـاذا يفعـل، شرد حتـى غـطّ في نـوم عميـق.

عين شمس، القاهرة، بَركَة إحسان ١/٤/٢٠١٤م

هربت الدماء من جسده، تسارعَت دقات قلبه، نخرَت مشاعر الخوف داخله لتنهش سلامة نفسه، لا شيء آمن، لا شيء مريح، انتفض جسده وكأن صاعقة كهربائية ضربته ليقفز للخلف بقوة لا إرادية حين علَت الأصوات وعمَّت الضوضاء المكان وازداد إطلاق النيران أكثر بعشوائية في حرب شوارع، أغلقَ النافذة سريعًا، حاول قدر الإمكان ضبط أنفاسه؛ فأغمض عينيه متنفسًا بانتظام على مقياس العد من الواحد إلى عشرة محاولًا مسح ما رآه من مخيلته، فتح عينيه ببطء شديد، تنفّس الصعداء مستديرًا ومتجهًا إلى تلك الصور التي تزيّن الجدران أمامه، اقتربَ منها واكتسَت ملامحه حينها بالوجع الشديد، شرد في تلك الصورة التي تجمَعُه بأمه، هادئة، جميلة وبريئة، تبتسم فيها ابتسامتها المعهودة التي لم تفارقها رغم الوجع ورغم كل شيء، كانت تردّد دائمًا "ابتسم يا بني؛ فلا شيء يستحق أن ننْسَحِقَ لأجله؛ فالابتسامة والسعادة شيئان نستحقهما دومًا"، هي من اختارت وأوصته بأن يعلّق تلك الصورة لها حين تموت، اقترب منها وكأنه يراها أمامه، تحسّسَ الصورة ووجهها، ثم تنفس متسائلًا "ماذا أفعل؟"، صمت قليلًا وكأنه ينتظر الرد منها، ثم أكمل "أعتقد أنه قد

حـان وقـت العـودة يـا أمـي، وقـت البحـث، قـرار نهائـي لا مفـر منـه، سـأعود إلى قريتـي، حافظـتُ عـلى عهـدي بـما يكفـي يـا أمـي، ولكنـي لم أعـد قـادرًا عـلى البقـاء هنـا"، هكـذا همـس بَرَكَـة بداخلـه، يفتقدهـا كثـيرًا، لم يبـقَ منهـا سـوى تلـك الذكريـات وبعـض الصـور المعلقـة عـلى الجـدران، يفتقدهـا بشـدة، يشـعر بعدهـا بغربـة ووحـدة قاتلـة، يشـتاق إليهـا، يشـتاق إلى مزاحهـا وملامحهـا البريئـة والابتسـامة التـي لم تكـن تفارقهـا رغـم أوجاعهـا، ملعـونٌ المـوت الـذي يفرقنـا، هـذا الحـق المطلـق الـذي لا نسـتطيع فهمـه أو مواجهتـه، ذرفَـت عينُـه بعـض الدمـوع، ثـم حـدّثَ نفسـه قائلًا: "أشـتاق يـا أمـي إليـكِ، اليوم سـأعود إلى حيـث أنتمـي، كنـتِ أنـتِ هنـا انتمائـي، وبَعـدَكِ صِرتُ غريبًـا وحيـدًا، يكفـي اغترابًـا، هنـا حـرب في كل مـكان، لا أمـان ولا ثقـة، منـذ بـدأت الانتفاضـة، الثـورة، لا أدري ماهيتهـا؟! منـذ حينهـا والأحـوال تغـيّرَت كليًـا يـا أمـي، ربـما هـذه سُـنّة الحيـاة، المهـم يـا أمي لا وقـت لـدي هنـا؛ فالشرطـة لم تعـد قـادرة عـلى ضبـط الأمـور منـذ فـض اعتصـام رابعـة، وسـاءت الأمـور هنـا، اشـتباكات.. دم.. قتلى في كل مـكان، والمدينـة هنـا لا أحـد يكـترث لأحـد، قـررتُ اليـوم العـودة لقريتـي، لا أعلـم لمـاذا! ولكـن عـلى الأقـل القريـة أمـانٌ أكثـر، دفءٌ أكثـر، لا زالـت تحـوي أخـلاق المـاضي وشـهامة الرجـال، الإنسـانية لا زالـت تسـكن في القريـة، سـأعود إلى حيـث لا أدري، إلى مـكان لم يخطـر ببـالي قـط؛ فأنـا أحتـاج إلى البحـث عـن حبيـب، قريـب.. أحتاج

إلى أسرة يـا أمـي"، عـاد إلى الخلـف بضـع خطـوات وجلـس عـلى الأريكـة المواجهـة لصـورة أمـه، ضحـكَ في باطنـه؛ فظهـرت ملامـح ضحكتـه مرتسـمة عـلى وجهـه، رغـم شروده يملـك سرًا أو ربـما السر هـو الـذي يمتلكـه! سر! بركـة هـذا الشـخص الهـادئ الـبريء الوحيـد يعلـم الآن أن حياتـه كلهـا تقـوم عـلى سر كبـير، وهـو.. مـن يكـون؟! صدْمَـة كُـبرَى لم يتوقعهـا يومًـا أنـه ليـس ابنهـا! كيـف وهـو ذاق مـن حنيتهـا وارتـاح في أحضانهـا؟! كيـف وهـو مـن كان ينمـو عـلى حبّهـا؟! كيـف وهـي التـي عـبّرَت بـه كل المِحَـن والأوجـاع، لم يتحمّـل فكـرة أنـه يملـك سرًا، المعرفـة في الأسـاس وجَـع؛ فالجهـل في كثـير مـن الأحيـان نعمـة، المعرفـة طريـق مـليء بـكل عقبـة وأخـرى، بـكل مـرارة وأخـرى، المعرفـة نـار كـما تـضيء وتدفِـئُ؛ فإنهـا تحـرق بـلا رحمـة أو شـفقة، لم تكـن أمـه؟! كيـف وهـي تمتلـك تلـك المشـاعر والأمومـة الفيّاضـة؟! كانـت أمـه وكان هـو طفلهـا المدلّـل، ابتسـم وهـو شـارد ثـم همـسَ في نفسـه: "أخبرتِنـي يـا أمـي حتـى تشـعري بالسـلام داخلـك، أنـكِ لم تخفـي عنـي شـيئًا مـن حقـي معرفتـه، لـو خيّرتِنـي حينهـا لتمنّيـت عـدم المعرفـة، أخبرتِنـي أن أنسـى! أن أعـود لحيـاتي الطبيعيـة؛ فأنـتِ أمـي وأنـا طفلـك، تناسـيتُ وحيِيـت، أمـا الآن وأنـا وحيـد يـا أمـي في فـوضى عارمـة في البـلاد أبحـث عـن سـند، عائلـة، مـال، أي شيء أشـعر بأمـان جانبـه، حينهـا فقـط عـاد إلى هـذا الـسر، ربـما أحتـاج الآن إلى البحـث فيـه مـرة أخـرى، لا أدري

إن كنت قادرًا على المعرفة، على إيجاد أسرة، أقارب، أو أحباء، لا أدري، هل لي حقوق، وإن كان؟ هل قادر على إعادتها؟، ولكن يكفي أن أعرف مَن أنا؟!

قرر البحث عن تلك القرية التي تُدْعَى بني آدم، بدأ تلك الرحلة عن طريق الإنترنت وجمع كل المعلومات الممكنة عن القرية وموقعها الجغرافي وكيفية الوصول إليها، وقرر حينها السفر إليها والبدء في اكتشاف نفسه.

***

بالمقعد رقم 12 بالعربة الرابعة، قطار درجة ثانية مكيفة المتجه من القاهرة إلى أسوان، على قدر ما معه من مال، يغطّ بركة إحسان في نوم عميق، استسلَم لنومه، هذا الوحيد في كل شيء، فلا أصدقاء ولا قريب.. لا أحد، غطّ في نوم عميق رغم قلقه، فلا أمان الآن، والعربة مزدحمة ممتلئة كعربة تحوي بهائمًا معدّة للذبح! فلا ضبط ولا ربط، إن كان الوضع في البدايات منفلتًا بعض الشيء؛ فالآن منفلتٌ تمامًا، ولكنه كعادته استسلم للنوم حتى لا يفترسه التفكير، أغمض عينيه وسبح في نومه محتضنًا حقيبته التي لا تحتوي إلا على بعض الملابس القليلة واللاب توب خاصته وبعض المذكرات الخاصة، مرّ الوقت سريعًا؛ فالنوم الوحيد القادر على كسر سرعة الضوء، استيقظ على صوت الشخص المجاور له "لقد وصلنا محافظة أسيوط يا أستاذ، إنها محطتك"، خرج بركة

بصعوبة بالغة من الازدحام، تنفّس الصعداء وتوجّه إلى رجل الأمن الواقف على مقربة منه، أفلت الحقيبة من يده على الأرض وابتسم له مستفسرًا منه:

- السلام عليكم، إذا سمحت موقف سيارات بني آدم كيف أصل إليه؟

لم يرد الرجل السلام، عادة المصريين.. أو هكذا صارت عادة مؤخرًا، ربما من ضغط الحياة وازدحام اليوم لم يعُد للسلام وقت أو احتياج، أجابه سريعًا دون النظر له:

- استقل أية سيارة أجرة وستصل بك إلى حيث تريد.

قطب بركة حاجبيه ولم يُكمل استفساره، ولم يشكره أيضًا، حمل حقيبته وخرج من المحطة مستقلًا سيارة أجرة، مرت عشر دقائق حتى وصل موقف بني آدم، استقل الميكروباص الواقف منه.

- إلى أين تذهب يا أستاذ؟

فوجئ بركة بالسؤال من الشخص المجاور له بالمقعد خلف السائق.

- بني آدم يا فندم، أهناك شيء ما؟

- لا يا أستاذ، فقط أحاول المساعدة، ربما رأيتك تائهًا؟ وجهك غريب، غير مألوف! لستَ من بني آدم، أليس كذلك؟! هكذا شعرت؛ فرغبت بطرح السؤال لمساعدتك، أعتذر لك.

ابتسم بركة له وهز رأسه يمينًا ويسارًا مجيبًا:

- لا، لا ضرر فيما فعلت، إنني غريب حقًا.

- امم، هل تخبرني إلى أين تذهب؟ لربما يمكنني المساعدة.

ابتهج بركة، لعلّ الرجل يوفر عليه مشقة البحث هنا..

- نعم، أتمنى هذا، أرغب في الوصول إلى الأستاذ يوسف النعماني.

حكّ الرجل رأسه ونظر لبركة نظرة استفهام وتساؤل وتحقيق و... إلخ، ثم أجاب:

- يرحمه الله، لقد تُوفِّي منذ أكثر من ثلاث سنوات في ثأر، كان رجلًا صالحًا، دائمًا يركض في فعل الخير، لم يتسبّب في أذى لأحد إطلاقًا، بل كان خدومًا بشهادة الجميع، فليرحمه الله، ولكن فيما كنت تحتاجه؟ أيعقَل أنكَ لا تعرف بموته وتسأل عنه؟!

مطرقةٌ وهوَت على رأس بركة حين علم بموت من يبحث عنه! صدمة كافية لتُغيّر كل الخطط، ربما لإلغاء رحلته من الأساس وهو لم يبدأها بعد، شيء غير متوقع، مات ومنذ ثلاث سنوات! ما هذا الحظ السيء، ليتلاعب الفكر به وتنهال الأسئلة لتنهش سلامة عقله.. "هل مات سرّي معه؟! هل انتهت رحلة معرفتي بنفسي قبل أن تبدأ؟! لقد بدأتُ الحين تقبّل الأمر، والرغبة عندي ازدادت في المعرفة؛ فيأتِي هذا الخبر المحبط لي! ماذا

بعـد؟ هـل أعـود إلى حيـث أتيـتُ.. إلى حيـث وعيـتُ ونشـأت؟ أم هنـاك بديـل آخـر كـما كانـت تقـول أمـي؟"، حـك رأسـه ليحـاول ضبـط أفـكاره، ثـم عـاد ليوجـه تسـاؤلاته للرجـل:

- ثأر من؟! وكيف مات؟! أخبرني كل شيء عنه إن أمكن.

تململَ الرجـل وحـاول إغـلاق الحديـث وكأنـه يرغـب في التراجع، لمـاذا يتحـدث فيـما لا يعنيـه، نظـر إلى هاتفـه وكأنـه انشـغل في متابعـة الفيـس بـوك، وأجـاب دون النظـر لبركـة:

- لا أدري شيئًا أكثر مما أخبرتك، والله يا أستاذ.

شـعر بركـة برغبـة الرجـل في إغـلاق الحديـث وكأنـه حـدث جلـل؛ فأشـاح عنـه نظـره، شـاردًا فيـما سـيفعل.. "ولِمَ لا أبحـث عـن البديـل؟ ربـما يعـرف هـو أيضًـا أسراري، البديـل الآخـر.. لا شيء ينتهـي، النهايـات مجـرد بدايـات لأشـياء أخـرى، فـلا طريـق واحـد يـؤدي لمـا نُريـد، هنـاك دائـمًا عـدد لا نهائـي مـن الطـرق، العقبـة لدينـا نحـن، حـين نـترك أنفسـنا ننظُـر طريقًـا واحـدًا فـلا نعـد قادريـن عـلى رؤيـة طرقًـا أخـرى"، عـاد للابتسـام وهمـس داخلـه، مـا أجملهـا حكمتـك يـا أمـي! ثـم عـاد إلى البحـث رافعًـا رأسـه لأعـلى وأكمـل همسـه.. "فـإن كان يوسـف مـات، أرجـو الله أن يكـونَ فـارس مـا زال عـلى قيـد الحيـاة"، ثـم أعـاد نظـره للرجـل متسـائلًا:

- إذا سـمحتَ سـؤال أخـير، أرغـبُ في الوصـول إلى فـارس مجـدي

شلش، رجاء ساعدني.

قالها وتوسلت عيناه الرجلَ أن يجيبه، فأشفق الرجل عليه وأجابه:

- نعم، فارس مجدي، حين تترجّل من السيارة في الموقف ستجد أمامك مباشرة شارع الخواجة، انطلِق بداخله مسافة عشرين مترًا، لتجد حارة صغيرة على يسارك، ادخلها للنهاية ستجد منزل فارس، لقد مات أبوه أيضًا.

ثم أغلق الرجل بيده فمه وكأنه لا يتحكم في حديثه ومعلوماته المنطَلِقَة للجميع.

لينظر له بركة ويعلم أنه لن يتحصل على معلومات أخرى، تنهّد واستراح؛ فلا يهم العمّ مجدي، المهم أن فارس لا زال حيًا، فربما تبدأ رحلة المعرفة من عنده.

- شكرًا لك، وماذا بعدُ يا بني آدم؟!

همس بها داخل نفسه، حينها اكتمل العدد المطلوب وانطلقت السيارة، خرجَت من الموقف متجهة إلى بني آدم، وفي أقل من عشر دقائق كانت قد خرجت من مدينة أسيوط لتتخذ السيارة طريقًا فرعيًا مرصوفًا وقد أهلكه الزمن ولم تسعفه الصيانة الرديئة، فالحفر والنقر تملأه، والسيارة تهبط وتعلو مسببة الألم لكل ركابها، أو هكذا شعر بركة؛ فالركاب الآخرون قد اعتادوا

الوضع منذ زمن، الاعتياد سحر، الاعتياد راحة، الاعتياد هو المنفذ الوحيد لتقبل الأشياء، ربما كان غريبًا مؤلمًا لبركة، لكنه حاول الانتباه للطريق والتأمل فيه، الطريق يشق الأرض بطول ثلاثين كيلومترا لتجد لافتة عفَى عليها الزمن وقد انتشر الصدأ على سطحها الذي لم يعد مسطّحًا، بل اعوجّ بشكل كبير كقطعة صفيح سقط عليها عدد كبير من الأحجار فشكّلَها حسب قوته، ترتكز على قائم انحنَى مع الأيام والإهمال، حوَت بداخلها جملتين مرسومتين:

قرية بني آدم

ترحب بكم

شارع الخواجة، بني آدم، ١\٤\٢٠١٤م

وصل بَرَكَة لبني آدم، ترجّل جميع من بالسيارة واتجه كلٌّ إلى مراده، توقف بَرَكَة لينظر ما هي بني آدم، نظر في الجهة المقابلة باتجاه الشمال سرايا كبيرة وفخمة جدًا دون على رخامتها بجوار البوابة الرئيسية (فيلّا سالم سيف المنصوري)، لم يرَ مثلها من قبل، لكن لا صوت فيها؛ أبوابها مغلقة! الأتربة تتملّكها، من الواضح أنّ سكّانها في هَمّ ثقيل أو شيء ما جلَل حتى ينطفئ قصرٌ كهذا، لا يدري بَرَكَة أنه في يوم ما ليس بالبعيد كان هنا كشكٌ صغيرٌ في قطعة أرض كانت ملكًا لجدّه وأبيه، وقد وهبوها صدقَةً لسيدة فقيرة وابنتها، تتحصّلْنَ منه على قوت يومِهِنّ، صار اليوم قصرًا ملكيًا يتحاكَى به الجميع لشخصٍ كان عدوًّا لدودًا لجدّه، وقف أمام القصر يتأمّله ولا يدري عنه مجرد معلومة واحدة، ربّما التاريخ دائمًا يتغيّر؛ فلا يذكر أحد خير العمدة البلتاجي، ولكن يتذكر الجميعُ أنه قصرٌ ملكٌ لسالم سيف المنصوري، وربما في القادم سيُنسَى اسم سالم ليحل مكانه اسمٌ آخر، هكذا هو تاريخنا المعتاد لا يُكتَب كما هو، بل يتلوّن ويتم تشكليه حسب هوَى الأقوَى ومَن يكتب، استنشق بَرَكَة بعض هواء القرية العليل، ثم تحرك في اتجاه الشرق يشقّ شارع الخواجة، الذي

تحول اسمه بلافتة كبيرة على أحد الجوانب باسم شارع السوالم (الخواجة سابقًا)، الكلّ يتغير.. فلِمَ يظلّ اسم شارع كما هو؟! تحرّك بركة داخل شارع الخواجة، تدبّ قدمه ويشتم رائحة ليست غريبة عنه، يشعر بشيء ما يربطه هنا، يشعر بذكريات قديمة ولكنه لا يتذكّرها، تحرّك مستفسرًا من بعض المارة عن مكان فارس مجدي شلش؛ حتى وصل إليه، حارة ضيقة لمنزل صغير محشور بين قصرين كبيرين، وصل ليطرُقَ الباب، ولحسن حظه أن فارس كان متواجدًا، عاد منذ يومين من الوادي الجديد كعادته وكما وعَدَ والده، سيظل يعود كل عدة أسابيع بضعة أيام، حتى وإن لم يكن أبوه على قيد الحياة؛ فسيزوره في مدفنه، طرَقَ بركَة الباب، ليفتح فارس ويستقبل ضيفًا لا يعرفه... ليبدأ فصلٌ جديدٌ في الحقائق الغائبة والمعلومات المخبّأَة.

- مساء الخير، معَكَ برَكَة إحسان.

ثم أشار بأصبعه إلى فارس مكملًا جملته بابتسامة خفيفة، محاولًا جعل الحوار وديًّا لشخصين يعرفان بعضهما ولكنهما لا يتذكران:

- أنت فارس مجدي شلش.. أليس كذلك؟

ليجيبه فارس "نعم!"، وما أن دخلا وجلسا وأثناء ارتشافهما الشاي عاد برَكَة ليعرّف نفسه مرة أخرى:

- ألم تعرفَنِي بعدُ يا فارس؟! ألّا تذكّركَ ملامحي بشخص ما؟!

هكـذا نطـق بركـة وهـو ينظـر إلى كـوب الشـاي بيـده وبعـض الدمـوع اسـتعدّت للسـقوط، يشـعر بـأن المـكان ورائحتـه وهـذا الشـخص فيهـم شيءٌ منه؛ ليسـند فـارس كوبه جانبًـا وينظر لـه بتمعّن، وبعـد فـترة صمـت وجيـزة نظـر لـه فـارس بعـينٍ ضيقـة وتسـاءل:

- من تكون؟!

- مـن أكـون؟! إجابـة هـذا السـؤال لديـك وأبحـث عنهـا، أتمنـى أن تمنحنـي الإجابـة، كل مـا أعرفـه عنـي هـو أن اسـمي منصـور نادر!

نطقهـا بركَـة ببـطءٍ شـديد، لم يعتَـد عـلى اسـمه هـذا، أهـذا هـو الحقيقـي؟! أم بركـة إحسـان عبـد المنعـم؟! أم أن الاسـم مجـرد شـكل مـن أشـكال التعـارف؟! إنّ مـا هـو حقيقـي هـو جوهـره، ثـم عـاد ليكمـل بـكل ثقـة وكأنـه يـدرك أنـه حقًـا منصـور نـادر البلتاجـي:

- هل تتذكرني، أم نسيتني كما نسيَني الجميع يا فارس؟!

لم يكمل تساؤله؛ لينهض فارس ويحتضنه بقوة ويبكي مجيبًا:

- منصـور نـادر البلتاجـي! شـعرت بـك منـذ الْتقَيتُـك عـلى البـاب، ملامـح منصـور ذاتهـا، العينـان الخـضراوان، الشـعر الأصفـر القصـير المجعّـد، والأذن الكبـيرة نسـبيًا، لم تتغـيّر، أنـت كـما أنـت، افتقدتُـك يـا صديقـي، أيـن كنـت كل تلـك الفـترة؟! لِمَ لَمْ تعـد منـذ أودعَـك الحـاج يوسـف بـدار الأيتـام؟ لِمَ نسـيتنا؟! افتقدتـك يـا صديقـي.

انطلقت دموع منصور، وجد أخيرًا حضنًا، وجد أخيرًا صديقًا، وجد من يتذكره.. يعرفه، منصور حقيقة وليست مجرد حكاية قبل النوم، جلسَ الاثنان بعد افتراق لأكثر من اثنتي عشر عامًا تغيّر فيها الكثير والكثير... افترق أحبّة واجتمع أحبة، حضرَت للحياة أنفسٌ جديدة، ورحلت أرواحٌ في صمت، وأخرَى في مشهد جلِل، تغيرت القرية، اختلفَت أخلاقها، صارت التجارة فيها قاعدة أساسية بُنيَ عليها كل شيء، أخلاقٌ وقيمٌ، صار المكسب والخسارة أساسًا لكل شيء!

جلسَ الاثنان، وقص فارس كل شيء لبركة عنه، كيف تُوفّي أهله، أبوه، ثم أمه، وخلفهما جده البلتاجي عمدة القرية، كيف كانوا أشخاصًا صالحين يُفتخَر بهم، حكى له عن علاقته معه، وكيف كانوا أصدقاءً، كيف كان منصور الملجأ والملاذ له حين يهينه سالم أو يحيى، كيف كان يحمل له كتبه في حقيبته؛ لأن فارس لا حقيبة لديه، كيف كان يستقبله في غرفته؛ ليستطيع أن يستذكر دروسه... سرد له كل الحكاية من الألف للياء، وأخبره أن القصر المقابل لهما هنا على ناصية شارع الخواجة هو قصره، ويسكنه يحيى يوسف النعماني، والقصر المقابل للموقف الأرض أرضه، ولكن لا يعلم كيف آلت ملكيتها إلى كلٍّ من يوسف النعماني وسيف المنصوري، فقط من يملك المعلومة هما هذان الشخصان! وقد ماتا! أخبره كل شيء، قضَى طول الليل في الحديث، حتى

قاطعه منصور بأنه كان يرغب في مقابلة الحاج يوسف، يرغب في أن يعرف أكثر ويستفسر أكثر، ولكنه صُدِم بمقتله، وصُدِم أيضًا بمقتل العم مجدي مقدمًا التعازي لفارس، ثم تساءل:

- هل من المتاح (إن أمكن) أن تخبرني بما حدث؟ أرغب في معرفة كل شيء عنّي، أرغب في المعرفة أكثر، عن الحاج يوسف النعماني سالم.. عن بني آدم، أشعر بالرغبة الشديدة في المعرفة يا أخي.

- بالطبع متاح، لا أخاف منك؛ فأنت لستَ غريبًا، أنت حفيد العمدة البلتاجي، يكفي أصلك، أنت منصور صديقي حتى ولو طال الافتراق... سأخبرك بكل شيء، ولكن أرغب في ضيافتك، سأنهض أولًا لأجهّز لنا عشاءً جيدًا، ولك أن تستريح قليلًا، المنزل منزلك، أفضالك عليّ لا أستطيع نسيانها أو جحدها، يكفي محبّتك، يكفي حين كان يُسمَح لي بأن أستذكر دروسي معك، بل وكتبي التي كنتَ تحملها بحقيبتك حين لا أجد حقيبة لي، أنت ابن أصول حقًا، وعدًا.. وهذا وعدي؛ سأقص لك كل شيء.

نهض فارس لتجهيز عشاءهم، وارتاح منصور من تعب السفر وأراح ذهنه قليلًا، منذ فترة طويلة كان وحيدًا، وأخيرًا وجد رفيقًا وصديقًا.

***

مـرت الأيـام، اقـتربَ الاثنـان أكثـر مـن بعضهـما تعرّفَـا أكثـر، أخـبر كل منهـم الآخـر عـما يتذكـره عنـه وعرّفَـه عـلى نفسـه أكثـر، أخـبر برَكَـة فـارسَ كل شيء عنـه وعـن حياتـه، وتعـرف منصـور عـلى بنـي آدم، شـوارعها وتاريخهـا، عـرف قـدْرَ مـا قَـصّ لـه فـارس، واتفقا عـلى أن يظـلّ كـما هـو بركـة إحسـان؛ فالقريـة لـن تسـتوعب مـن هـو منصـور نـادر البلتاجـي؛ فآفـة قريتنـا النسـيان، وبعـد مـرور عـدة أيـام قـصّ فـارس لبركـة مـا حـدث مؤخـرًا، وكيـف قُتِـل يوسـف النعماني.

- يـوم الاثنـين المشـئوم الثالـث مـن شـهر مـارس منـذ ثلاثـة أعـوام في العـام 2011.. اسـتيقظ أبي مبكـرًا كعادتـه، ولكنـه لم يكـن كحالتـه الطبيعيـة مبتسـمًا، بـل كان عابـس الوجـه، احتضنَنِـي كثـيرًا هـذا اليـوم، نـادرًا حـين يحتضننـي أبي، ثـم شـدّ الرحـال مـع الحـاج سـيف المنصـوري وولـده سـالم وبعـض العاملـين معهـم، تحـرّك الجميـع إلى المزرعـة مِلْـكَ الحـاج سـيف والحـاج يوسـف النعـماني والحـاج محـروس الغنـام، وصلـوا وبـدأوا في العمـل داخـل المزرعـة، ولكـن حـدَثَ كـما كان يتعمّـد أن يفعـل سـالم وأبـوه، تـركا سـياراتهم والجـرارات بمنتصـف الطريـق؛ فكانـت تعـوق حركـة رجـال محـروس الغنـام لدخـول الجـزء الخـاص بـه، تسـبّب ذلـك في الشـدّ والجـذب عـلى مـدار أكثـر مـن أسـبوعين توتّـر فيهـم الحـال، وهـذا مـا كان يُقلِـقُ أبي كان يشـعر بـأن هنـاك شيء سـيحدث، المهـم أنـه في ذلـك اليـوم اشـتدّ

الـكلام وعلَـت الأصـوات، وحـدث اشـتباك بالأيـدي بـين سـالم سـيف المنصـوري ومحمـد الجـزار ابـن محـروس الغنـام الـذي كان يعمـل جـزارًا، وحـضر مـع أبيـه وأخيـه الطبيـب مدحـت الغنـام محاولـةً لتصحيـح مـا يحـدث الفـترة الماضيـة مـن سـيف وولـده سـالم، ولكـن انفعـل محمـد الجـزار وسـالم واشـتبكا بالأيـدي؛ فالاثنـان حالهـما متشـابه، وأشـخاص مجـردة مـن الحـس الإنسـاني، وحـين تقـترب النـيران تلتهـمُ الأخـضر واليابـس، حـاول الطبيـب مدحـت ومحـروس الغنـام أبـوه فـضّ الاشـتباك، ولكـن لم يسـتطِيعَا، حينهـا أخـرج سـالم مسدّسَـه وأطلـق رصاصـات بشـكل مبـاشر تجـاه محمـد الجـزار، الـذي هـرَعَ والـده محـروس لتلقـي الرصاصـات بـدلًا عنـه؛ ليخـرج محمـد الجـزار مسدسـه في لحظـات بسـيطة ويطلـق الرصـاص عـلى سـالم؛ ليتلاقاهـا والـدي عنـه، تلقّـى رصاصـة واحـدة في منتصـف جبهتـه كانـت كفيلـة بإسـقاطه قتيـلًا في حـرب لا ناقـة لـه فيهـا ولا جمـل!

توقـف عـن الحديـث وبكـى بـكاءً مُـرًّا؛ فاقـترَبَ منـه برَكَـة ليهـوّن عليـه:

- فليرحمـه الله، يكفـي حديثًـا، إن كنـتَ لا ترغـب في تذكّـر مـا يؤلمك يـا أخي.

ليتنهّـد فـارس ويمسـح دموعـه بطـرف جلبابـه، ويعـود لـيروي مـا حـدث بعـد:

- سأحكي لك، لا تقلق عليَ، أنا بخير، سقط أبي، واختبأ الجميع وتعالَت أصوات النيران، وكل جهة منهما أخرج رجالها أسلحتهم وانطلقَت الحرب، طلقات في جميع الأنحاء، صراخ.. قتلَى من هنا ومن هنا، حتى تمكن سالم وأبوه الحاج سيف المنصوري من الهروب بسيارتهم، وعادوا إلى هنا.

قطَبَ برَكَة حاجبيه، وتساءل:

- وما علاقة هذا بيوسف النعماني؟ وما سبب موته؟ وأين هما الآن سالم وأبيه؟!

ابتسم فارس ابتسامة خفيفة، ثم أجاب:

- لا تتعجّل، ستعرف كل شيء يا أخي، سأخبرك لا تقلق.. قبل أن يتحرك أبي في الصباح، ذهب إلى الحاج يوسف وترك له تلك المعلومات، وأخبره بما حدث الفترة الأخيرة وأنه يشعر أن هناك خطبًا ما قد يحدث، مع خادمه الذي أخبره حين استيقظ؛ ليجد هاتفه وقد اتصل به الحاج محروس الغنام أكثر من عشر مرات؛ ليبدّل الحاج يوسف ملابسه في لحظات ويقود سيارته بسرعة للذهاب إليهم، حين وصل كان الأمر قد انتهى، هربَ سالم وأبوه، جثثٌ في كل مكان، يحمل محمد الجزار وأخوه الطبيب مدحت أباهما الذي لا زال يتنفس بصعوبة، لم يفارق الحياة بعد، اقترب يوسف سريعًا منهم،

حـاول المسـاعدة، ولكـن لم يتحمـل الوضـع أيـة شرارة أخـرى، استشـاط محمـد الجـزار فيـه غضبًـا ورفـع السـلاح بوجهـه، ليمنعه أخـوه الطبيـب، ومـا يرغبـه الآن هـو رعايـة والـدَه ونقلَـه سريعًـا للقـصر العينـي، وهنـا كان دور يوسـف الـذي يمتلـك عـددًا مـن المعـارف يعملـون هنـاك، حملـوا الحـاج محـروس في سـيارته وانطلقـوا بسرعـة جنونيـة، ولكـن كان الأوان قـد فـات وتـوفّيَ الحـاج محـروس الغنـام متأثـراً بإصابتـه بطلقـات الرصـاص، ولكـن مـا حـدث كان مجـرد فتـح بوابـة تطـلّ مبـاشرة عـلى جهنم.

مـرت الأيـام ببـطء شـديد، حَـذَرٌ وخـوف، لا صـوت ولا معلومـة عـن أبنـاء الحـاج محـروس ولا ردّ فعـل لهـم، كان هـدوءًا مميتًـا أثـار التسـاؤلات، تحـرّك يوسـف يمينًـا ويسـاراً وفى كل الاتجاهـات محـاولًا لَمّ الشـمل وعقـدَ صلـح، محـاولًا تعويـض الخسـائر قـدر الإمـكان، ولكـن لا مجيـب، كان يعلـم أن الهـدوء الموجـود هـو الهـدوء الـذي يسـبق العاصفـة، تحـرّك ثانيًـا وثالثًـا محـاولًا الضغـط عـلى الجميـع للصلـح.. ولكـن لا جَـدْوَى، حتـى فوجِـئَ الجميـع بموافقـة محمـد الجـزار عـلى إتمـام الصلـح! بـل بعـد فـترة وجيـزة، تقبّـلَ محمـد الجـزار وأخـوه الطبيـب مدحـت العـزاء في أبيهـم الحـاج محـروس الغنـام! في عاداتنـا لا عـزاء للقتـلى قبـل الثـأر! ولكـن هـذا مـا حـدث، عـزاءٌ وهـدوء، وتـمّ الصلـح فعليًـا وتقديـم الكفـن مـن جانـب الحـاج سـيف المنصـوري وولده سـالم،

وانتهى الحديث واستكان الجميع ومرت المحنة بسلام على الجميع، ومرَّت نار عليَ وعلى أبي، ومن نحن؟! نحن لا شيء!

ليجيبه بركة:

- وحق العمّ مجدي؟

ليبتسم فارس ساخرًا:

- هل كان هناك إنسانٌ يدعَى مجدي شلش؟!

ابتسم بسخرية أكثر وأردف:

- نحن نَمْل! مجرد نمل.. سأقصّ لك ما حدث..

حمل كل طرفٍ همّه على أكتافه، رغب كل طرف في القضاء على الآخر؛ فكلٌّ منهما خطر على الآخر، لم تعد بني آدم تتحملهما معًا، بعد الحادثة حضرت الشرطة التي كانت مهلهلة حينها جرّاء الثورة.. الانتفاضة.. الأحداث، أيًّا كان حينها، حاول مأمور المركز حلَّ هذا المشكل؛ فالبلاد لا تحمل لها لمشاكل أكثر، يكفي الفوضى المنتشرة، وسُرَّ جدًا حين اتفق الطرفان على المصالحة والكفَن الذي قدّمَه سالم سيف المنصوري ووالده، أما عن أبي حينها استدعاني المأمور في المركز وأخبرني بالآتي:

"أنتَ شاب ضعيف لا حولَ لك ولا قوة، مثل سمكة ضعيفة

وقعَت بين قرشين، ابتعد يا بني عن المشاكل، ابتعد فلَا ناقةَ لك ولا جمل، وأنت ترى ما يحدث، البلاد في وضع عصيب ولا حقّ فيها، الموت قضاء وقدر بغضّ النظر عن الأسباب، نصيحتي لك في النهاية حرية الاختيار، لن أجبركَ على شيء، هذا وعدِي وكلمَتِي، نصيحتي ابتعد عمّا حدث بين السوالم والغنام، ابتعِدْ يا بني؛ فلا أنت قادر على هذا ولا ذاك، يمكننا تسوية الأمور، ستدْفِن والدكَ كأنه توفّي بأزمة قلبية، بعيدًا عن الرسميات والحادثة، ابتعد؛ فأنت لن تستفيد ولن تستطيع فعلَ شيء، ماذا قُلت يا بني؟!"

قالها وهو يخرج سيجارة جديدة ويشعلها لينفث دخانها في وجهي، أعلم أنني ضعيف، أعلم أني وأبي لا حقّ لنا ولا نستطيع حتى المجاهرة بأن لنا حق، وأنا ماذا أفعل؟! هل أستطيع الوقوف لمحمد الجزار الغنام الذي قتل والدي؟! بالطبع لا.. أعلم أننا لا شيء.. هل تعلم يا بركة أنني لم أذرُف حتى دمعة واحدة، حتى الدموع لا قيمة لها، مجرّد جلد للذات أكثر.. تقبّلتُ ورحَلْت، قمتُ بدفن والدي وحاولتُ إعادة ترتيب حياتي من جديد؛ لعلي أجد لنفسي مرسى، الغريب حينها هو تغيّر سالم مائة وثمانين درجة، اختلفَ عن سالم الصعب المتوحش، صار شخصًا آخر، اقترب منِّي أكثر! عاملَنِي بشكل أحسَن احترامًا ودَيْنًا لما فعله والدي من

أجلـه وقـد ضحَّـى بنفسـه لأجلـه، اقـترب منـي وصـار يحاكينـي يوميًـا، اقـترب مـن العامـة، وتقرّب أكثـر لبيـت الله، صـار لا يفُوتُه فـرضٌ واحـد! بـل أكثـر مـن ذلـك؛ تأسّـفَ عـلى كل مـا بـدر منـه تجاهـي، بـل وأعطـاني بعـض المـال لأسـتطيع تدبـر حـالي! وظَلَلْتُ أفكّـر طيلـة الليـل فيـما فعلـه سـالم وكيـف يتبـدّل الحـال هكـذا، حتـى ضرب جـرس هاتفـي، مكالمـة واحـدة غـيّرَت كل شيء.

توقـف بعدهـا وكأنـه لم يكـن يجـدر بـه أن يذكـر المكالمـة، شـعر برَكَـة بهـذا، حـاول الاستفسـار وكأنـه يتجـاوب معـه في الحديـث دون أن يشـعره بأنـه شـعر بتوقفـه فجـأة..

- مكالمة؟! وما هي ومِمَّن؟ وكيف غيّرَت مجرى الأمور؟!

ليحاول فارس تعديل الحديث وإنهائِه دون ارتباك:

- مكالمـة نعـم.. كانـت مـن أقـاربي بالـوادي الجديـد لكـي أعـود إليهـم ونبـدأ في مشروعنـا الـذي طالمـا حلمنـا بـه؛ مزرعـة دجـاج بيضـاء، هـذا مـا حـدث، يكفـي حديثنـا اليـوم يـا صديقـي، يجـدر بـكَ النـوم حتـى ترتـاح قليـلاً، اليـوم تحدثنـا كثـيرًا.

شعر برَكَة أن هناك خطبًا ما، ولكنه لم يُظهِر ذلك، فأجاب:

- يكفي اليوم يا صديقي كما قلت، أرغب فعلًا في النوم قليلًا.

ثم تثاءَب ونهض ليتحرك إلى سريره الصغير، وأردف:

- تصبح على خير يا صديقي.

- وأنت من أهل...

قبل أن يكمل سمع صوت طرقات على الباب؛ ليظهر مُهَاب وقد حضر ليشاركهما الحديث:

- أخيرًا قابلتك يا منصور!

ليُفاجأ بركَة، فلا يعرف أحدٌ هنا أنه منصور سواه وفارس؛ ليكمل مهاب:

- أنا وفارس أصدقاء، لا تخَف مني يا منصور، كنا جميعًا اصدقاء، أنا مِنَ الأخيار لا تقلق.

وضحكَ وشاركه فارس الضحك؛ ليكمل حديثه:

- نعم.. مهاب مثلي ومثلك، أخبرتُ مهابَ عنك وكان يشتاق إلى رؤياك والجلوس والحديث معك، فقط ما منَعَه بعض الظروف الخاصة التي لا زالت تحيط به منذ موت أبيه وأخيه.

وجلسَ ثلاثَتُهم يتحاورُون ويتناقشُون، لربما يمكنهم إعادة الأيام لَما مضى، ثلاثة من سبعة أطفال كانوا دائمِي اللعب معًا.

سرايا سيف المنصوري، بني آدم، ٨\٤\٢٠١٤م

عاد فارس وبركَة ومهاب للحديث مرة أخرى، كلما مرّت الأيام اقترب ثلاثتهم أكثر من بعضهم، ربما لأنهم متشابهين؛ فكل منهم يحتاج للآخر ليشعر بأمان! أو ربما الجميع مقهورٌ فيحتاج إلى أن يشجّع كل منهم الآخر! ربما! على أية حال اقتربوا أكثر، تعارفوا على بعضهم أكثر، قصّ فارس كل ما يعرفه أو أغلب ما يعرفه لبركة، كما بادَلَه بركة أيضًا كل شيء يخصُّه، وانضم إليهم ثالثًا مهاب؛ لتعود الأيام القديمة، ثلاثة من بني آدم، ثلاثة يحتاج كل منهم إلى الآخر، وصاروا أصدقاء.

جلس الثلاثة معًا بحديقة سرايا سيف المنصوري يتحاورون، يتناقشون، يقتربون أكثر، فما الحوار إلا اقتراب أو ابتعاد، ما الحوار إلا تضامن أو عِدَاء، الحوار أكثر من لغة وكلمات منطوقة، الحوار روح تربط أو روح تعادي، وصل حوارهم إلى قمته، حين طرح بركة سؤاله عليهما؛ ليبدأ مهاب بإجابته:

- بالنسبة لي! أحتاج إلى ماذا كي أحيا؟!

صمت قليلًا ثم أردف:

- أحتاج إلى قدمَين.. أحتاج إلى بعض الشجاعة.. القوة؛ فالحياة

الضعيفة لا تختلف عن الموت، بل أسوء، أن تعلَم قدْرَ ضعفك؛ فتتحاشَى مَن أمامك، هو شعور مميت، أحتاج إلى بعض القوة أن أتحَدّث.. أن أقاتل، أو حتى أُقتل ولكن وأنا أقاتل، أحتاج إلى شعور بأنني لستُ عبئًا على غيري، أن عجزي ليس خطأي، وأنني لستُ فقط مجرّد معاق، أنا إنسان كامل، أشعر وأحزن وأبكي وأتألم، أرغب في بعض القوة؛ حتى أضع يدي في عين من ينظر لي كشخص ضعيف ناقص، أرغب في بعض القوة لأتكلّم بما أُريد، أرغب في بعض القوة أن أقف أمام الجميع وأقبَل أو أرفض دون خوف، أرغبُ في القتال حقًا، أرغب في مغادرة هذا الكرسي وهذه السلبية التي قيّدَتْني منذ ولادتي لليوم، أرغب في القتال ولو قليلًا، هذا ما أحتاج إليه.

هكذا أجاب مهاب، لعلّ ما لم يتحدث عنه أكثر بكثير مما تكلّم به، لا أحد يُخبِرُ بكل ما بداخله، فما يختبئُ أكثر بكثير ممّا يُعلَن! انتهى دور مهاب ليبدأ فارس في إجابته العميقة كعادته:

- لا أحتاج شيئًا، فقط ما أحتاجه هو العدل، العدل في أن يتساوَى الجميع في الفُرَص.. في الحياة.. في التعبير.. في الوجود، العدل شيءٌ مفقود، لا وجود له، كيف لي أن أحيا وأنا لا أمتلك شيئًا في مجتمع حولي يمتلكون كل شيء! أحتاج أيضًا إلى بعض المال، المال هو إله تلك الحياة، ملبسك، مسكنك، عملك،

ارتباطك، أحلامك، أخطاؤك وحتى تصحيحَها، كل شيء يبدأ ويعود إلى نقطة فاصلة وهي المال، إذا امتلكتَ المال امتلكتَ كل شيء، إذا امتلكت المال امتلكتَ عملًا ناجحًا يتخطّى جميع العقبات، إذا امتلكتَ المال تمكنت من الحب والارتباط بمن تحب، إذا امتلكتَ المال امتلكتَ الأيمان؛ فلا أيمانَ دونه، إذا امتلكتَ المال امتلكتَ القيمة والجاه والحسَب والنسب، المال يعني أن تحيا، هذا ما أحتاج إليه، حينها لا شيء يحزنني أو ينقصني، حينها أصبح إنسانًا؛ فالحيوان لا يمتلك مالًا! وأنت يا بركة.. ماذا تحتاج؟!

اعتدل بركة قليلًا في جلسته وارتشفَ من كوب الشاي المزروع بيده، ثم تنهّد وأجاب:

- أحتاج إلى بعض الأحضان، إلى بعض الضوضاء، أنا وحيد إلى درجة بعيدة، وحيد حين مات من أنجباني، ومات من كان أولَى برعايتي، وحيدًا حين تخلَّى عني الجميع، وحيدًا حين تبنّتْنِي أمي، تحدَّت الجميع من أجلي؛ فرفضها الجميع، رفضها الجميع حين أغلق الله رحمَها، ربما كان هذا رحمة بي ومِن أجلي.. ربما! وحيدًا حين كنت أنا وهي منبوذَين، وحيدًا حين ماتَت، وحيدًا في كل حين، وحيدًا حتى في بحثي عن نفسي، وحيدًا لدرجة الهدوء المميت، أرغب في حضنٍ حقيقي، صديق أشكو إليه همي، حوارٌ بسيط ومزاح جميل

وسهرة كهذه، أحتاج إلى بعض الجذور التي تثبتني في أرضي، بعض الأرض التي تحتويني، بعض الأسرة الحقيقية، لا أحد منكم يدري كم أُعاني من وِحدتي، حوار كهذا أفتقده كثيراً، شكوَى الهموم أو الحديث عن الغدِ والأحلام، لم يكن لي سِوَى أمي ورحلَت.. هل من حضنٍ يا أصدقاء؟!

قالها وابتسم بدموع قليلة خرجت من محبسها؛ ليقترب منه كلٌّ من مهاب وفارس ويحتضناه، حضنًا صادقًا، فما أحوجنا إلى أحضان حقيقية، لا ريب فيها ولا نفاق، نحتاج إلى احتواء وإلى ثبات، إلى بعض الشعور بالأمان، إلى سندٍ نطمئن إليه... انتهوا من الأحضان وتجفيف دموعهم؛ ليعود برَكَة محاولًا الخروج من لعبة الصراحة والوجع التي بدأوها بتساؤله:

- أشيرُوا عليّ الآن ماذا أفعل، هل أذهب إلى منزل الحاج يوسف النعماني لعلي أعرف بعض الأسرار التي كان يعرفها عن جدي؟! ما رأيكما؟

ليجيبه الاثنان في نَفَسٍ واحد:

- يفضّل لا.

فيتعجب بركة من اتفاقهما وكأنه كان يتمنى أن تكون مشورتهما بالذهاب، كان يتمنّى ألا يموت يوسف النعماني قبل أن يقابله؛ ليكسر فارس شروده بحديثه:

- يفضّل لا، ولكن اذهب لربما يكون هناك معلومة لا نعلمها، ولكن احذر منهم، هذا الييحيَى وأمه جميلة؛ فهما شخصان منفرَّان متعاليان، قد نبّهَت عليك فلتحذر لئَلّا يسيء إليك أحد.

ليتنهّد بركة محاولًا حسم قراره، ماذا يفعل؟! يرغب في أخذ قراره ببقائِه هنا أو عودته إلى القاهرة مرة أخرى، هل يُنهِي رحلته بما عرَفه من فارس ومهاب، أم يذهب إلى منزل يوسف النعماني لعله يجد ما لا يعرفه؟! تنهّد طويلًا ثم حسَم قراره بالذهاب وإنهاء الأمر، لم يقطع شروده سوَى همهمة فارس حين أجاب مُهاب على تساؤله الذي طرحه:

- أنا أباشر عملي كما تعلم، ذهابي للوادي الجديد بين الحين والآخر لمباشرة تجارتي.. نعم تجارتي، أنت تعلم ذلك، لا يمكنني ترك الوادي الجديد، لا يمكنني.

فيلّا يحيى يوسف النعماني، بني آدم، ٩\٤\٢٠١٤م

جلس يحيى وحيدًا على كرسيّه الهزاز مواجهًا نافذته يتأمل النجوم والقمر؛ ليعود بنظره إلى صورة يحتضنها ليكشف عنها ويدقّق نظره فيها، وتبدأ دموعه في الانطلاق بلا توقف، صورة والده يتأملها ويعود بذاكرته لتلك الأيام المشؤومة حين قتلَ محروس الغنام وبدأ القلق والمناورة من الجميع، رفض المصالحة فقَبُولها! رفض العزاء فقبُوله! نصائح كريم له بالجلوس مع محمد الجزار والوصول معه لحل لإنهاء العداوة والتربص، جلوسه مع أبيه والحديث حول التواصل مع الجزار، تقبّل أبوه والجلوس فعليًا، فشل التفاوض بينهم حين طلب الجزار رأس سالم وأبيه وثلاثة أرباع ثروة يوسف كفّارَة عن حياته هو! رفض يوسف رفضًا قاطعًا وقرّر الرحيل؛ ليعود مرة أخرى يحيى محاولًا إعادة التفاوض لكن دون جدوى، ولكنه لم ييْأَس ليقرر الجلوس مرة أخرى مع الجزار، ولكن بمصاحبة كريم نصر النعماني؛ لثقته الكاملة فيه وفي أفكاره، بعدها بيومين يتم حدوث مصالحة بين الجزار وأولاد سالم، قدَمَ سالم وأبوه الكفن وإقامة جلسة كبيرة لإتمام الصلح بين العائلتين، مرّ فقط شهر كامل حتى يُفَاجأ الجميع باختطاف يوسف النعماني وسالم وأبيه، وفي أقل من ثلاثة

أيـام وصَـلَ إليهـم اليـد اليمنـى لـكلٍّ مـن يوسـف النعـماني وسـالم وأبيـه ورسـالة مكتوبـة بالدمـاء "اليـوم رُدّ الحـق، انتهـت المذبحـة"، قُتِـلَ يوسـف النعـماني! بكـى بحرقـة شـديدة، مـاذا فعـل حينهـا؟، لا شيء، ضعيـف.. هـش، فقـط مجـرد فـمٌ يتحـدث.. يـصرخ.. يبكـي.. لا شيء أكثـر مـن هـذا كـما كان يخـبره أبـوه، صمَـتَ وتقبّـل العـزاء كـما أرادت أمـه "لا حـول لنـا ولا قـوة، لا أرغـب في خسـارتكَ أنـت أيضًـا، يكفـي مـوت يوسـف، يكفـي يـا بنـي، لا حمـل لـدي كـي أفقدكـما في وقـت واحـد، يكفـي، مـات يوسـف بسـبب تسـاهله مـع الجميـع، أخبرتـه الكثـير مـن المـرات، أن يـترك الخـير والسـلام والكلـمات الطيبـة والشـعارات الجوفـاء، إن لم تكـن قويًـا في الغابـة فسـيتم الْتهَامـك في أول فرصـة متاحـة، وهـا قـد حـدث، يكفـي يـا بنـي، يكفـي حسرة قلبـي عـلى أبيـك"، كانـت تلـك المـرة الأولى التـي يـرى فيهـا أمـه تبكـي، رآهـا ضعيفـة مكسـورة الجنـاح، ليسـت جميلـة أمـه القويـة العنيـدة صاحبـة الشـخصية الحديديـة! تغـيّرَ الجميـع، لم يسـلَم أحـد مـن التغـيّر، تقبّـل لأجلهـا ولأجـل نفسـه! حـاول تمالـك أعصابـه وعودتـه لهدوئِـه لينهـض متجهًـا للنافـذة وفتحهـا محـاولًا استنشـاق بعـض الهـواء، ثـم قـرّر قـراءة الفاتحـة عـلى روح أبيـه طالبًـا منـه السـماح والغفـران عـن أخطائـه، ربـما لـو عـاد الزمـان مـا فعلهـا، أخرجتـه مـن عُزلتِـه هـذه فرحـة وأمهـا حـين طرقَـا بـاب غرفتـه ثـم دخـلَا قبـل حتـى أن يجيـب، جلسـوا ثلاثتهـم، مـا افتقـدُوه مـن قبـل

حاولـوا إعادتـه، ألم أخـبرك أن الجميـع تغـيّر! فمنذ موت يوسـف وبعد أن اسـتفاقوا مـن تلـك الصدمـة القاتلة عـادوا للترابـط والجلـوس معًا، لابـد مـن التجمّـع كل ليلـة، والعشـاء معًـا، الحديـث، الأحضـان، ربـما أتَـى كل هـذا متأخـرًا، ولكنـه أتـى عـلى كل حـال، قـرروا ثلاثتهـم الخـروج مـن النفـق المظلـم الـذي ابتلَعهُـم والكآبـة التـي حاوطتهـم طيلـة الفـترة السـابقة، قـرّرُوا محاولـة التقـرب مـن جديـد مـن الحيـاة والأفـراح، قـرّرُوا إقامـة عُـرسٍ لفرحـة وكريـم، لربـما تعـود الأفـراح لهـذا البيـت مـن جديـد، بـل إصرار جميلـة بإقامـة فـرح لم يـرَ أحـدٌ مثلـه كـما كان يتمنـى يوسـف النعـماني، تـمّ الاتفـاق وتحديد موعـد العـرس الحـادي والثلاثـون مـن شـهر ديسـمبر هـذا العـام.

- يكفينـا همًـا وحزنًـا يـا أبنائـي، اتركـوا نوافذَكُـم مفتوحـة لـكل ريـحٍ تحمـل فرحًـا ولـكل شـعاع يحمـل نـورًا، أسرة يوسـف النعـماني سـتعود للحيـاة، وسـيبقَى اسـم يوسـف النعـماني دائـمًا اسـمًا كبـير.

هكـذا ختمَـت جميلـة تلـك الجلسـة، ثـم ابتسـمت لهـما والدمـوع تتسـاقط مـن عينيهـا واحتضنتهـما، مـرّت سـنوات لم يـزُر فيهـا الفـرح هـذا المنـزل، لم يتـذوّق أحـدٌ هنـا طعـم السـعادة، حـان الوقـت للخـروج مـن الاكتئـاب والحـزن والوجـع، يكفـي مـرارةً ويكفـي سـنوات ضائعـة، يكفـي البـكاء عـلى اللبـنِ المسـكوب، مَـن مـات لا يعـود مـرة أخـرى، هكـذا أجابـت قوانـين الطبيعـة عـلى طـول الحيـاة منـذ قديـم الزمـن.

سرايا سيف المنصوري، بني آدم، ١٠\٤\٢٠١٤م

يجلس مهاب في حديقة السرايا وحيدًا، يحاول إعادة التفكير فيما حدث وكيفية إعادة ضبط الأمور، هنا وفي نفس المكان تجَبّرَ سالم وأبوه سيف المنصوري، هنا حين شنَقَا الكلب الذي كان يحبه، هنا استخدمَا القوة، هنا أراد صناعة مجدٍ لم يرَ أحدٌ مثله، هنا ظلمٌ لن يُنْسَى، هنا الآن يجلس وحيدًا بعد مقتل أبيه وأخيه، يتذكّر تلك اللحظة منذ ثلاث سنوات حين كان يجلس يرعَى بعض الزهور يرويها ببعض الماء منتظرًا عودة أبيه وأخيه من المزرعة، قد حلّ السلام وانتهَت الأحداث الدامية، انتهَت فترة من الخوف والقلق من الثأر، انتهَت مرحلة تجبّر فيها أهله على الجميع، انتهَت حين علموا أن الله حق وأن كل قويّ هناك من هو أقوَى منه، انتهَت بتقديم سالم وأبيه الكفنَ في مصالحة لم تشهد قبلها العزايزة أو بني آدم، تمكّن الجميع من الخروج والدخول، متابعة أعمالهم، الحركة بحرية دون خوف، لكن ماذا حدث وكيف حدث ولمَ؟! أكان الجميع يكذب؟! كل ما حدث كان مجرد استدراج لأبي وأخي! لم يرجعا من المزرعة! فقط ما عاد بعد اختفائهم بيومين هو اليد اليُمنَى لكل منهما وخطاب مكتوب بدمائهم "اليوم رُدّ الحق، انتهَت المذبحة"، كانت يد أخيه

وأبيه! فلكلّ منهما وحمة كبيرة على يده اليُمنَى مثله أيضًا، قُتِل سالم وسيف! تذكّر مهاب حينها كيف انهار وهو يشعر أن هناك حربًا، وقد فقد عائلته ولا يستطيع فعل شيء، بل كان الأسوأ هو انقلاب مَن كانوا حوله، والأسوأ منهما هو ضياع المزرعة، حيث وضعَت كل من عائلتَي النواصر وبيت لطفي يدَهُم عليها، وهو ضعيف لا حول ولا قوة؛ فالرجال المناصرون لأبيه وأخيه تركوه فهو ضعيف، لن يتمكّن من ضبط الأمور ولا فائدة منه، انهارَ حينها مهاب، دخل عقله متاهة كبيرة لا يستطيع الحركة فيها من الأساس، كيف يثأر لأبيه وأخيه وهو عاجز وحيد ضعيف وجبان! كيف يعيد أراضي أسرته، كيف يعيد هيبة بيت سيف المنصوري من كان اسمه يزلزل المكان، تبدل الحال وتغير الزمن وانقلبت الموازين، حتى الرجل الذي كان يفكر في الاعتماد عليه يوسف النعماني، الوحيد الذي يمكنه مساعدته قُتِل هو الآخر، وانعزَل عنه كريم ويحيى، فُرِطَ عُقدُ العائلة، لا سوَالِمَ بعد الآن! انهار ولم يتمكّن من الصمود؛ فلم يبقَ من بيت سيف المنصوري سواه وهُدَى، ضعيف يجاوره ضعيف آخر، الآن وقد مرّت ثلاث سنوات لم يفعل شيئًا، لم يقرّر، لم يقاوم، لم يتغيّر، سلبيّ حتى النخاع! تنهّدَ ثم نهض عن كرسيه متشبثًا بعكازَيه متجهًا إلى الداخل والنوم قليلًا، ومحاولة الخروج من دائرة الفكرة القاتلة والمتاهة التي لم يخرج منها منذ دخلَها من ثلاث سنوات، بدأ

حركَتَه حتى شعر بيد تلامس كتفه وتناديه، صوتٌ لن يجهله مهما طال البعد، صوت كان يحبه وما زال، حتى ولو حاول إخفاء ذلك، الْتفَتَ وهو يعلم من هي، ولكنه حاول أن يتفاجأ؛ ليجد هدى وقد ابتسمَت له، لم يرَ تلك الابتسامة منذ زمن، لتبدأ حديثها:

- هل لا زلتَ لا تريد أن نتحدث؟ أحتاج إليك، يكفي ثلاث سنوات من القطيعة.. يكفي.
- أنتِ من اختار، حين قررتِ الارتباط بسالم، لستُ أنا من اختار الابتعاد، بل أنتِ من أجبرتِني على الابتعاد.
- أنا من اختار الارتباط؟! وأنت ماذا اخترت؟! شفتَاكَ لم تنطق ولو لمرة وحيدة، أنّي أحبك، أنتَ لم تقترب من الأساس حتى أُجبرَك على الابتعاد!

لتتبدل ملامح وجهه ويجيب:

- ألم تكن بيننا عهود ووعود، أنا من خالفتها؟!
- أية عهود ووعود؟! لم نقطع عهدًا واحدًا.
- ألم تخبركِ عيني بأني أحبك، ألم تقطَع عيني عهودًا، ألم تنطِق عيونكِ أنتِ عهدًا أنكِ لي وأني لكِ؟!
- وما فائدة العيون؟! العيون فقط للضعفاء، العيون فقط مجرد

لغة، أين الفعل؟ أين كنت حين طلبني سالم، أين كنت؟! لِمَ لَمْ تمنعه؟! لِمَ لم تتقدّم أنت؟! لِمَ خذلتني كما كنتَ دائماً، خذلتني حين لم تنطقها، خذلتني حين لم تقاتل لأجلي، خذلتني حين رأيتني بجواره وقدمتَ البركة بكل سعادة، خذلتني حين رأيتني محمولة على ذراعه، خذلتني وأنت تعلم كم كنت أحتاجك، خذلتني لأنك ضعيف، هل تتناسَى ذلك وتُلقِي كامل اللوم على ضعفي أنا! لم أحبّ سالم يومًا واحدًا، لم أرَه أبدًا، أحبَبتُك أنت، عشقتُك أنت، توسلَّت إليك عيني آلاف المرات أن تقترب، ولكنك كنت تبتعد، توسلَت إليك لتحميني منه، ولكنكَ خذلتني، تركتني حينها وتركتني حتى اليوم، حتى اليوم لم تنطِق شفتاك كلمة واحدة، لم تفِ بعهد واحد، لم تكُن أمينًا في وعد واحد حتى اليوم، وها أنا من أتى إليك! دَعْنا ننسى ما مضَى، هيا فنعود نصلِحُ ما كُسِر.

- ما كُسر لا يتم إصلاحه، حتى وإن تَمّ، لا يعُود كما كان، سيظلّ معيوبًا.

- دعنا نخوض التجربة، الغريق يبحث عن قشة واحدة، مجرد قشة، ما بالُك ونحن هنا وأمامنا الفرصة كاملة، تكفي سلبية ويكفيك خذلاني، يكفي يا مهاب.. ما يمرّ من العمر لا يعود مرة أخرى، ما نتحصّل عليه فقط هو الندم، دعنا نُصلحُ ما كسرناه يومًا، دعْنا نقبَله حتى ولو كان معيوبًا.

صمتَ وحاول إبعاد وجهه، الفرار من عيونها، لا إجابات لديه، يعلم كَم سلبيته، يعلم كمّ الخذلان الذي أصابها منه، يعلم جيدًا قدَرَه وتلك هي المعاناة، صمتَ ولم يجِب بشيء، ولكن وصل كل ضعفه إليها، لا زالت تقرأ عيونَه؛ لتلمس بيدها وجهه وتعيد نظره إليها وتكمل:

- لم آتي إلى هنا للنّبش فيما مضى، لم آتي هنا للعتاب أو فتح جراح قديمة، لم آتي هنا للخلاف، طالما تمنيتُ الاقتراب ولا زلتُ، أتيتُ إلى هنا حتى لا نفترق، كم من المرات حاولتُ معكَ طيلة الثلاث سنوات السابقة، ولكنّكَ لم تعطني فرصة واحدة للقرب، حتى قرأتُ في عينيكَ السماح خلال اليومين السابقين، آتي إليك وأطلب منك أن نعود فنرتبط، ضع يدكَ بيدي، اجعلني عكّازًا حقيقيًا لك وكن أنت سندًا لي، هيا بنا نعود فنحقّق كل عهدٍ ووعدٍ قطعناه معًا، لا زلتُ أحبك وسأحبك حتى مماتي، وأعلم وأقرأ في عينيكَ الآن أنكَ لا زِلتَ تحبّني، هيا يا مهاب دعنا نكسر الحاجز بيننا، دعنا نعود فيسنِدُ كل منا الآخر؛ فلا ندعُ مجالًا لمن فرقوا بيننا ولمن أرادوا ضَعفَنا، ضع يدك في يدي فنعود لبناء بيت سيف المنصوري من جديد، نبنِيه على الحب والصدق والوفاء بالعهود، سأبادر أنا، دعني أكونُ شجاعتَك وكُن أنت سنَدِي، هيّا نتزوج يا مهاب، أمدّ لك يدي، فهل تمدّ يدكَ لي؟

صمتَت قليلًا وهي تمد يدها تجاهَه وانتظرت أن يفعل، طال وقت انتظارها قليلًا، ولكنها لم تملّ أو ترفع رايتها تلك المرة كما اعتادَت في المرات السابقة، ظلَّت تنتظر حتى ترك مهاب عكازَيه؛ فسقط، وسقط هو في أحضانها لتحميه من السقوط وتحتويه، ليبكِي ويجيب:

- لم يدخل قلبي سواكِ منذ كنا أطفالًا، لم أعرف معنى للحب سواكِ، لم تغِيبي عني لحظة واحدة، عاهدتُ نفسي أنني لن أرى غيركِ، أحببتكِ وأحبكِ وسأظل حتى مماتي أحبكِ يا هدى.

***

مرت الأيام وارتبط مهاب وهدى وبدءَا في إعادة بناء ما تم إفساده، بيت يُبنَى على الحق، على المقربين حبًا لا نفاقًا.

الوادي الجديد، ١٩\٤\٢٠١٤م

- لاااااااااااا، مهاب لاااااااااا.

صرخات متتالية، وحركة لا إرادية لكامل الجسد، تعرّقٌ شديد، استيقظَ على أثرِها هذا الرجل النحيف الذي يعمل شريكًا لفارس منذ سنوات في هذا الوادي الجديد، استيقظ على الصراخ المتتالي؛ ليقترب من فارس ويوقظُه بسرعة، يساعد فارس على الاعتدال، يحضر له كوبًا من الماء المجاور.

- بسم الله الرحمن الرحيم، اهدأ؛ أنت هنا يا فارس.. لا شيء.. لا تقلق.

ليبدأ فارس في الهدوء واستقرار أنفاسه التي كادَت تتوقف، صمتَ الاثنان لبرهة؛ ليعود الرجل فيتحدث:

- ماذا هناك؟ ماذا بك؟! ألم تنتهِ تلك الكوابيس منذ زمن؟! هل عادَت لك مرة ثانية؟!

- نعم انتهت، ولكنها لم تعُد!

قالها وهو يمسح بيديه عرقَ وجهه، لينظر له الرجل بتمعن ثم يتساءل:

- هل أنت متأكد؟!

- نعم، متأكد.

- إذَن ما الذي حدث للتو؟!

قالها وهو يرمقه بنظرة تعني عدم اقتناع بما أجابه؛ ليتنفس فارس الصعداء ثم يجيبه:

- والله انتهت، ما حدث للتوّ ربما إرهاق، كما ترى إرهاق العمل اليومين السابقين... إنه إرهاق لا أكثر.

- أرجو هذا، أرجو هذا من قلبي، فربما يؤذيك هذا يا فارس، يجب أن تحذر.

هز رأسه موافقًا على ما قيل، ثم أجاب:

- أعلم أعلم، لا تقلق، كم الساعة الآن؟

ليحصل الرجل على الهاتف القديم من جانبه وينظر به، ثم يجيبه:

- التاسعة.

- التاسعة؟! لِمَ لَمْ توقظني مبكرًا؟ لقد فات ميعاد السيارة التي سأعود فيها لأسيوط اليوم.

قالها بغضب شديد وهو ينهض عن سريره متحركًا لدورة المياه، ليجيبه الرجل بكل هدوء:

- لا تقلق، لقد هاتفك السائق وأجبته، فأخبرني أن رحلة السفر

ستتأخر ولن تتحرك السيارة قبل الثانية ظهرًا لوجود عطل ما في سيارته، فاسترح ولا تقلق.

ليهدأ فارس ويعود أدراجه ويقبّل رأسه، ثم يبدأ في حزم أغراضه.

سرايا سيف المنصوري، بني آدم، ٢٠\٤\٢٠١٤م

أخيرًا جلسَ مهاب وتستقرّ رأس هدى على كتفه الأيمن، جلسَا هنا في الحديقة لأول مرة لهما، عاشَا قصة حب لم يحكِ منها حرفًا واحدًا، بدأت واكتملَت فقط بعيونهم، حتى انهار كل شيء حين طلبَها سالم وتزوجته، ثم قتَله؛ فقطيعة بينها وبين مهاب، حتى عاد الحب ليُحيِي ما تم دفنه حيًا، عاد الحب ليعيد الروح للجسد، ليعود اللون الأخضر فيكسي أرضًا صحراء صفراء بور، ارتبطَا أخيرًا حين تخلّت هدى عن الحسابات وحين تخلّى مهاب عن السلبية، أضاعَا سنوات من العمر لمجرد بعض الحسابات وبعض السلبية، لَيْت الزمن يعود؛ لكانت الاختيارات اختلفَت، لكانَا سلكَا طريقًا آخر، المهم أن القدر كان رحيمًا بهما فمنحهما فرصة ثانية، محظوظون من تأتيهم فرصة ثانية، الفرصة فرصة، تأتي مرة وحيدة ولا تعود، منحهما القدر طريقًا متفرعًا ليعودا فيصحّحا ما تم كسره قديمًا، وقد استغلاه كما يجب أن يكون، جلسَا يتأمّلا.. يتحدّثَا.. يقرّرَا ما يجب فعله لإعادة بناء ما تم إفساده... لم يقطَع هذا سوى برَكَة إحسان حين دخل عليهما وهو عابس الوجه، يُلقِي سلامه ثم يسحب كرسيًا بعيدًا عنهما ليضعه بجوار مهاب ويجلس، ينظر مهاب لُهدى لتفهم الرسالة؛

فتنهض وتتحرك إلى الداخل لتبدأ في تجهيز الطعام لهما، ولتترك مهاب وبركة معًا للحديث.

- ماذا بك يا ابن العم، عابس الوجه لِمَ؟!

- لا شيء جيد هنا، من هذا اليحيى، شخص سيء الخلق وغير مهذب على الإطلاق.

- اهدأ يا صديقي، ماذا حدث أخبرني؟

- لا شيء، ذهبتُ إلى منزل يوسف النعماني، بكل ذوق وأدب وهدوء، عرّفتُهم بنفسي.

- بمن؟ بركة أم منصور؟!

- منصور بالطبع، وتعرفتُ عليهم، السيدة جميلة وابنتها فرحة وهذا اليحيى كما أخبرتموني أنتم بالأسماء، توقعتُهم مجرد رؤيتي لهم، المهم.. سردتُ لهم كل شيء أعرفه عمّا حدث سواء بما أخبرتموني به أو بما أخبرَتني به أمي، بالملجأ، والحوالة الشهرية التي كانت تُرسَل لنا، بزيارات السيد يوسف النعماني لنا، ثم انقطاعه عنا فجأة... حتى حلّ الصمت على الجميع وكأنهم في حالة مناجاة مع الله، لا كلمة ولا ردّ فعل، ولا حتى صوت أنفاسهم وكأنها قُطِعت، حاولتُ الدخول معهم في الحديث، رغبةً في معرفة أي شيء ولو مجرد معلومة صغيرة عن أهلي، أعلم أن جدي كان عمدة كبيرًا وغنيًا، أخبرتهم لماذا لم يترك لي

جـدي مـالًا أو أراضي! حاولـتُ ولكـن لا إجابـة شـافية واضحـة، مجـرد تلاعـب بالألفـاظ مـن هـذا الـيحيى، حتـى بـدأَت السـيدة أمـه في الـكلام ولكـن بصعوبـة، المعلومـة تخـرج بشـقّ الأنفـس وكأنهـا حائـرة بـين إخبـاري وبـين الخـوف مـن هـذا الـيحيى، أخبرَتْنـي بأنهـا ويوسـف تعهّـدَا بتربيتـي حتـى لم يتمكّنـا مـن الإيفـاء بهـذا نظـرًا لأمـور كثـيرة منهـا اختـلاف السـن بينـي وبـين فرحـة ويحيـى، عـدم التوافـق، الظـروف الماديـة حينهـا لهـم لم تكـن عـلى مـا يـرام، بعـض المشـاكل الأخـرى، قـرّرا حينهـا إيداعـي في دار رعايـة للأيتـام، ثـم تبنَّتْنـي سـيدة واختفَـت، ومـن حينهـا لا يعلمـون شـيئًا آخـر، أمـا عـن الميراث فكانـت المعلومـة أن جـدي كان قـد صرف مبالغًـا طائلـة جـدًا عـلى معالجـة ابنـه نـادر قبـل وفاتـه وزوجتـه، ثـم أمراضـه هـو، حينها فَقَـدَ كل مـا لـه! حاولتُ الاستفسـار عـن المعلومـات بشـكل أدقّ وبتفاصيـل أكثـر إيضاحًـا حـين أخبرتهـم هـل مـن المعقـول أن جـدّي صرَف كل مـا يملك؟! ليبـدأ الـيحيى هـذا بالـصراخ والصـوت المرتفـع بإنهـاء الحـوار وأنهـم لا يعلمـون شـيئًا، وبشـكل أو آخـر تـم طـردي بشـكل غـير مبـاشر، هـذا مـا حـدث، أشـعر أن هنـاك شـيئًا مـا مفقـود، شيء مـا غـير حقيقـي، شيء مـا غـير مكتمـل فيـما يقصـون.

- وهـذا شـعوري أنـا أيضًـا، يحيـى دائـمًا شـخص سيء الأخـلاق، مـادي جـدًا، فقـط مـن يملـكُ الحقيقـة هـو يوسـف النعـماني وقـد

قُتل، نصيحتي.. انسَ ما حدث، يكفيك الركض داخل متاهة لا تدرِيها، أنت هنا الآن بينَنا أنا وفارس، هيا نعود كما كنّا أطفالًا، نمسك بعضنا ببعض ونتكاتف ونبدأ مشروعًا معًا، أنا بالمال وأنتما بالجهد، ماذا قلت؟ فأنا أحتاجكما، لستُ قادرًا على شيء وحدي، ربما أرسلَكَ الله إليّ في هذا الوقت خصيصًا!

لينظر له بركة نظرة تأمل فيما قال الآن، يتنفّس الصعداء بعدها؛ ليخبره باحتياجه بعض الوقت ليقرر قرارًا نهائيًا لإنهاء ما جاء لأجله أو البدء في حياة جديدة، قطعَتْ هذا الحوار هُدى حين اقتربت منهما لتخبرهما بأن العشاء جاهز.

- ذاهبون للعشاء دوني؟!

قالها فارس حين دخل من البوابة الخارجية؛ ليلتفت له الجميع ولا زال العبوس يسيطر على وجه بركة، ليبتسم مهاب ويجيبه:

- توقعت قدومك، هيا انضم الينا، ولكن أخبرني لمَ تأخرت؟ ألم تخبرني في الهاتف بأنك ستأتي الساعة السابعة، والآن الثامنة، ماذا حدث؟!

اقترب فارس أكثر منهم وأجاب:

- لا شيء، تأخرَت السيارة القادمة من الوادي الجديد؛ فتأخّر الوصول، ولكني اشتقتُ إليكم كثيرًا.

ليبتسم مهاب، ثم يكمل:

- أخبرتك الكثير من المرات أن تترك هذا السفر الدائم وتستقر هنا، أحتاج إليك، أنت صديقي ومن أأتمنه، أرجو أن تعيدَ التفكير مرة أخرى وها هو بركة، ننضم معًا ونبدأ خطواتنا.

ليعيد نظره إلى بركة ثم يردف:

- ها يا فارس؟! ارجو أن تجلس معه وتقرّرا.

ليهز بركة رأسه علامة على التفكير فيما قال؛ ليلحظ فارس عبوسة وجهه، يقترب منه ويتساءل عن هذا العبوس، فلا يجيب، يتدخّل حينها مهاب ليجيبه:

- لم يأخذ حقًا ولا باطلًا مع يحيى، لم يخرج بمعلومة واحدة كما توقعنا، بالإضافة إلى الأسلوب السيء، أنت أعلم بيحيى وطريقته في التعامل.

- لا تهتم يا بركة، ما أنت تعرفه الآن يكفيك، لا شيء آخر هناك يا صديق، أنت تبحث عن اللا شيء، صدقًا لا معلومات أكثر مما أخبرناك، أرجو أن تتقبل هذا وأن تبدأ حياة جديدة هنا معنا.

وقبل أن يكمل، يلمح بركة وقد أجهش في البكاء ليجيب:

- كيف أتوقف عن اكتشافي لنفسي؟! كيف؟! لا شيء يستحق

المحاولة أكثر من معرفتي لنفسي، لا زالت هناك حقائق أجهلها، لستُ أثق فيما أخبرَتْني السيدة جميلة، حلقاتٌ كثيرة مفقودة، لِمَ السيد يوسف هو من قرّر تربيتي وليس أحد آخر؟! لِمَ لَم يكُن أبوك مثلًا يا مهاب؟! لمَ قام بإيداعي بدار أيتام؟! لست أصدق فرق السن أو المشكلة المادية! شيءٌ ما غير حقيقي، لِمَ لَم يذكر يوسف النعماني أنه من أسيوط وقد أخبر أمي أنه من سوهاج، لمَ؟!

لتمتلك الدهشة مهاب، هدى وفارس، ويأخذهم السؤال، لمَ أخبرها فعلًا أنه من سوهاج؟! ليعود بركة ليردف ما بدأ من فضفضة:

- لِمَ انتظم في زيارتي ثم انقطع فجأة؟! لِمَ توقفَت الحوالة التي كانت تُرسَل كل شهر وقد أخبر أمي بأنه حقّي وميراثي؟! لِمَ لَم يقم بإيداعي بدار أيتام بأسيوط، لمَ أرسلني بعيدًا عن الجميع؟!

كانت الأسئلة منطقية حقًا، لم يكن يعلم أحد منهم هنا هذا، انهالت الأسئلة في عقول الجميع، لمَ حدث فعلًا كل هذا، هناك حقائق مجهولة، فقط من يعلمها السيدة جميلة ويحيى، وهذان من المستحيل أن يخبرانا، والسيد يوسف النعماني وقد قُتل! إذَن ربما لن نعلم؛ ليقترب فارس ومهاب وهدى منه محاولَيْن تهدئته؛ ليلقي فارس جملته لربّما يطفئُ نيران بركة المشتعلة.

- لا تحـزن يـا صديـق، سـتعلم كل شيء، هـذا وعـدي، لـن أتـركَك تحـزن هكـذا، طالمـا كنـت صديقـي حقًـا وكنـتَ عونًـا، فلـن أنسـى هـذا يومًـا، سـأفعل أي شيء لأجلـك.

ثم تحرك الجميع للداخل للعشاء.

منزل فارس مجدي شلش، بني آدم، ١٧\١٠\٢٠١٤م

مـرت الشـهور ولا جديـد أتـى بـه فـارس لبركـة، مـرّت الفـترة كحـربٍ عـلى بركـة، يرغـب في المعرفـة، الفضـول يقتلـه ببـطء، لم يخفّـف عنـه سـوى وعـود فـارس بالمسـاعدة بمحاولـة الحديـث مـع السـيدة جميلـة، أو ربـما هـذا الكائـن الـذي لا يطيقـه يحيـى، ولكـن لا جديـد أيضًـا، خـلال تلـك الشـهور بـدأ الثلاثـة؛ مهـاب.. بركـة.. وفـارس، ومعهـم هـدى بـما اسـتطاعَت، عـدة مشروعـات درسـوها جيـدًا وبـدأوا في أُولَى خطواتهـم عـلى أرض الواقـع، كان منهـا مركـز تعليمـي كـما في المدينـة، خاصـةً أن بنـي آدم يقـترب أسـلوب الحيـاة منهـا يومًـا فيومًـا مـن المدينـة لا القريـة؛ ممـا أتـاح لهـم المجـال في أفـكار كتلـك، بـدأ المـشروع الأول بمركـز تعليمـي لمجموعـات كورسـات، كانـت عبـارة عـن تعليـم اللغـات منهـا الإنجليزيـة والفرنسـية، تعليـم بعـض البرامج الخاصـة بالحاسـوب... إلـخ، بـدأ بالتحديـد في يـوم الثـاني عـشر مـن شـهر يوليـو لعـام ألفَـين وأربعـة عـشر، حقّـق المـشروع نجاحًـا كبـيرًا وعائـدًا جيـدًا جـدًا، ممـا فتـح أمامهـم الطريـق في المـضيّ قدمًـا في كافـة الأفـكار التـي رغبـوا في تنفيذهـا، كانـت منهـا "مُـول" متوسـط لكافـة المفروشـات، مزرعـة خاصـة بتربيـة الأرانـب، زراعـة بعـض الأراضي بفاكهـة معينـة تعاقَـدُوا مـع بعـض الـشركات التسـويق لتسـويقها، ذِيـعَ

صَيتُهم في بني آدم والقرى المجاورة وبدأَت الحياة في إعادة ضبط إيقاعها مرة أخرى معهم، عاد مهاب سيف المنصوري بهيبة بيت أبيه، تمكّن فارس من الخروج من نفَقِ الفقر المظلم الذي ظل منغمسًا فيه طيلة عمره، بدأ بركة في إيجاد عائلة، أصدقاء، عملَ يحقق فيه ذاته، لم ينغّص عليه سوى الأسئلة التي لا تتركه، لا تتنازل عن إجابات واضحة جلية كافية لتوضيح كل شيء، حتى جاء هذا اليوم الذي أعاد إحياء آماله في المعرفة مرة أخرى، شيء لم يكن يتوقعه، بل لم يكن يتوقعه أحد على وجه الأرض! في منتصف ليلة السابع عشر من شهر أكتوبر، ليلة أصاب برَكَة فيها الأرق، لم ينَم فيها أكثر من ساعة كاملة، ترجّل عن السرير متحركًا على أطراف أصابعه؛ لكي لا يزعج فارس أو يتسبب في إيقاظه؛ فهو منهك من العمل طيلة اليوم، وخاصة الأيام السابقة بعدما افتتحوا بعض المشاريع الجديدة، وكان فارس هو المحرك الأساسي لكل الأشياء "دينامو" لا يتوقف، تحرك إلى خارج الغرفة للصالة ليشرب بعض المياه من الثلاجة التي حصلوا عليها منذ مدة قصيرة، روَى ظمأه ثم جلس وقد غلبه الفكر فيما يرغب في معرفته، هل يوسف النعماني رجل صالح أم سيء؟! لِمَ قام بتربيته وهو من قام بإيداعه في دار الأيتام؟! ظل يفكّر وتتناوب عليه الأفكار عاصفةً بكل شيء داخله، حتى سمع صوت اشتباك من الغرفة التي بها فارس، قام مسرعًا إليه؛ ليجد فارس كما هو نائم

ولكنه يُهذِي ربما من الإجهاد، قرر الاقتراب منه وإيقاظه واقترب بالفعل، مدّ يده حتى كادَ يلمسه، ولكن توقّفَ حين سمعه يردّد بعنف:

- لم أرغب في قتلِك يا حاج يوسف، كان بمقدوري ولكني لم أفعل؛ لأني لا زلتُ أراكَ رجلًا صالحًا ولأني ما زلتُ أرغبُ في الارتباط بها، ما زلتُ أحبها، يجب أن تساعدني قبل أن يرتبط بها كريم، لا تتركها ولا تتركني، أنت تعلم أني حين طلبتُ الإبقاءَ على حياتك كانت مخاطرة منى، ربما لم ننجو أنا وأنت حينها ولكني خاطرت...

لترتسم الدهشة، ربما الصدمة على وجه بَرَكَة مما يسمع! يعلم جيدًا أن لا أحد يهذي بشيء إلا وهو يشغله، يوسف النعماني؟! لَمْ يقتله؟! انهالَت الأسئلة كهجوم ذئاب جائعة على فريسة مستسلمة، فكّر في إيقاظه وسؤاله، ولكنه عَدَلَ عن هذا، حتى صرخ فارس:

- الرحمة يا مهاب، إننا أصدقاء وأنت تعلم كم أحبك، تعلم جيدًا أنني مستعد لدفع حياتي عنك، لم أكن أرغب في قتلهم، ولكن كلّ علامة.. كل جرح.. كل خوف وكل إهانة زرعوها داخلي لم تُمْحَ، قتلوني، فما كان متوقعًا مني؟! الرحمة.. الرحمة...

ليرتفع صراخه ويقفز من على فراشه "لاااااااااااا"، ليجد بركة أمامه راكعًا على ركبتيه وهو ينظر له والصدمة تتملّكه، لتتسع

حدقـة عينيـه وينظـر لبَرَكَـة متسـائلًا:

- ماذا هناك؟! إنها مجرد كوابيس.

لا رد فعـل، مجـرد صمـت مـن بركـة، الـذي قـام مسرعًـا ليحـضر بعـض المـاء لـه، يـشرب فـارس ثـم يفتـح شـباك غرفتـه المطلّـة عـلى الصالـة، يرغـب في بعـض الهـواء مـردّدًا داخـل نفسـه:

- لِمَ عادت الكوابيس؟! ألم تنتهِ منذ عدة أشهر، لمَ عادت؟!

ردّدَها بغضب داخله، ثم نظر لبركة وجلس؛ ليبادله النظرات.

الوادي الجديد، ٣٠\١٠\٢٠١٤م

وصل فارس الوادي الجديد، ترجل من العربة بعد سفرٍ مرهق ومعه بركة إحسان، وصل إلى المنزل الذي يستأجره، دخلَ الاثنان إلى غرفة بها سيدة تبلغ من العمر ستين عامًا ومعها فتاة في العشرينات من العمر، زوجة وابنة مالِكِ المنزل، تقوم برعاية الرجل شريك فارس، حيث مرّ في الأيام السابقة بوَعْكَةٍ صحية، كان فيها فارس ببني آدم، حاول مالك المنزل الوصول لفارس، ولكن منعه الرجل وأخبره أن فارس سيعود خلال بضعة أيام، لكن لا ترسل خبرًا إلى بني آدم بما يحدث هنا، كان مالكُ المنزل رجلًا صالحًا، تقبّل وأرسل زوجته وابنته يوميًا لرعايته، ثم تركه بالليل لينام، وهكذا طيلة خمسة أيام.

دخل كلٌّ من فارس وبركة، اتجهَا إلى الغرفة، اقترب فارس من الرجل الذي كان نحيفًا، فارع الطول، يتخطّى المائة والثمانين سنتيمترًا، وقد كسَى اللون الأبيض كاملَ شعره أو ما تبقّى منه، اقترب منه ليطمئن عليه وقد بدأ التحسّن ومرحلة شفائِه، شكر فارس مالكَ المنزل وزوجته وابنته، الذين قرروا الرحيل وأكّدوا على المساعدة في أي وقت.

- لِمَ تأخرتَ هذه المرة يا فارس، ألم تكن أسبوعًا هنا وأسبوعًا

هنـاك؟! هـل حـدث مكـروهٌ لفرحـة، أخـبرني؟

قالهـا بلهفـة كبـيرة مُزيحًـا بيـده اليـسرى الغطـاء الـذي يدفِئُـه محاولًا النهـوض مـن سريـره، ولكنـه لم يسـتطع، لينظـر يمينـه فيجـد فـارس مصطحبًـا ضيفًـا جديـدًا معـه؛ ليـدب الخـوف في قلبـه، اقـترب منـه حينهـا فـارس، ربَـت عـلى كتفـه، طمأَنَـه، الضيـف هـو يعرفـه، أتـى لخـير لا لـشر، فرحَـة في أحسـن حـال والأسرة بخـير، اقـترب حينهـا بركـة منـه، مـدّ يـده وألقـى السـلام قائـلًا:

- أنـت الحـاج يوسـف النعـماني؟! لم أتوقعـكَ هكـذا، كيـف حالـك، أأَنـتَ بخـير؟

لينظر له يوسف النعماني دون نطق كلمة واحدة!

انفـرد فـارس بيوسـف النعـماني كـما طلـب هـو، جلـس دون كلمـة واحـدة، نظـرُه مثبـتٌّ أرضًـا كطفـلٍ خَجِـلَ ممـا فعـل، أو كسـارق تـم اكتشـافه ولا مـبرّر لديـه، طـال الصمـت بينهـما حتـى قطعـه يوسـف النعـماني بصوتـه المجهـد وبغضـب تسـاءل:

- مـاذا حـدث؟ ومـن هـذا الشـاب؟ وكيـف وصـل إلى هنـا؟! هـل علـم أحـد بوجـودي هنـا؟ أخـبرني.. لمَ أنـت صامـت؟ تكلـم.. هـذا الشـاب ليـس غريبًـا عنـي، ولكنـي غـير قـادر عـلى تحديـد مـن هـو، ولكنـي أعرفـه، هـل عـرف محمـد الجـزار بـه؟! هـل أصـاب أسرتي أي مكـروه؟! تكلـم يكفـي صمتًـا.

انفعل يوسف، ولولا مرضه لنهض يشتبك مع فارس الذي طال صمته، ثم اقترب منه وأجابه عما حدث بالتفصيل الممل..

- سأخبرك كل شيء، تروّى، لن أخفِي عنكَ شيئًا، هذا الشاب ليس خطرًا عليك، فلو كان خطرًا لكان خطرًا عليّ، لا تقلق، السيدة جميلة ويحيى والآنسة فرحة بخير، الجميع بخير، لكن يجب أن تعلم أن فرحَة تمّت خطبتها على كريم نصر النعماني، وسيتم العرس نهاية السنة؛ أي خلال ستين يومًا من الآن، ولابد أن تتدخل، لا يجب أن يتم هذا الارتباط، أنت تعلم كم أحبها، تعلم أني خاطرتُ بنفسي وأنقذتك وأنت وعدتني برد هذا الدَّين، لا زلتُ أحبها، لا أرى حياة دونها، وجودي في الحياة فقط لأجلها.

ركع على ركبتيه وأمسك يدَ يوسف النعماني قبّلَها بتوسّل، حتى جذبها يوسف منه، ليردف:

- أرجوك افعل شيئًا، سأعود مرارًا وتكرارًا لمحمد الجزار ليسمح لك بالعودة، يجب أن تفعل شيئًا.

لم يُجِب يوسف بشيء، فقط تساقطَت دموعه كنهرٍ فاض، بكى دون جهد أو معاناة، بكى كطفلٍ قليل الحيلة، طفلته المدلّلة تتزوج؟! تتزوج دون وجوده؟! وتتزوج من كان يرفضه مرارًا وتكرارًا، بالتأكيد فُرِض عليها، لابد أن يحيى وجميلة أجبروها؛

فهي تعلم أن أباها لا يحب هذا الشاب، هكذا جال في خاطره للحظات، ثم أجابه:

- لقد وعدتُك، وأنا مدين لك بحياتي وسأظل حتى مماتي مدينٌ، لا تقلق، لا زال لدينا متسع من الوقت، لابد أن هناك مخرجًا ما، اسمعني.. يجب أن تحدّد لي مقابلة، مقابلة لا محادثة هاتف، مقابلة مع محمد الجزار، افعَل ما يمكن فعله لإتمام المقابلة، سمعتني؟

قالها وهو ممسكٌ بوجه فارس بين يديه وينظر بعينيه مباشرة لعيني فارس، ثم قطب حاجبيه وأردف:

- لكن أخبرني أولًا من هذا الشاب في الخارج؟!

ليتنفس فارس الصعداء ويمسح دموعه، ثم ينهض ليجلس على السرير مجاورًا ليوسف مثبتًا نظره بالنافذة أمامه ثم يبدأ في الحديث، ليصغِي له يوسف بكل جوارحه:

- بركَة! لابد أن لهذا الاسم ذكرى لديك يا حاج يوسف، أو ربما نسيتَ مع الأحداث؛ فما مررتَ به جعلك تنسَى الكثير والكثير، على العموم، برَكَة إحـ...

لم يكمل فارس جملته حين قطعه يوسف النعماني:

- بركة إحسان عبد المنعم! أليس كذلك؟!

قالها وقد شرد وزاغَت عيناه، ليكمل فارس:

- نعم، بركة إحسان عبد المنعم، أو بالأحرَى منصور نادر البلتاجي.

صدمة وقد أصابت يوسف النعماني؛ فلا هو حزين ولا فرح، حزين لَما حلّ به وفرح لأنه وأخيرًا عثر عليه، أكثر من عشر سنوات يبحثُ هنا وهناك عنه ولا أثر له، عاد لانتباهه مصغيًا لفارس.

- حضر منذ أكثر من عدة أشهر بحثًا عنك، وبالطبع علِمَ كما الجميع أنّكَ قُتلتَ في ثأر المزرعة على يدِ محمد الجزار الغنام؛ فبحثَ حتى وصل إليّ، سألني عن أصله وفصله.. عنك، قصصتُ له كل ما أعرفه عنه وعن أبيه وجده، عن بني آدم.. عنك، باستثناء أنك حي، ذهب إلى منزلك ولكن لم تتمّ معاملته جيدًا؛ فأنت أدرى بالسيدة جميلة ويحيى! خلال فترة وجوده معي تقرّب مني ومهاب، اجتمعنا وبدأنا مشروعات خاصة بنا، كنّا أصدقاءً ونحن أطفال وها عُدنا، لا تقلق، بركة مسالم ولا نية شرّ لديه.

لينظر له يوسف نظرة تحوي كمَّ أسئلة لا ينتهي، فهمها كلها فارس، ولكن قرر يوسف السؤال ولم يكتفِ فقط بنظرته:

- كل هذا حدث؟! ولِمَ لم تخبرني؟!

- ربما لم أجد وقتًا، أو لم أرغب في إشغالك بما لا يهم، ربما وجعي من رؤية فرحة مع هذا الكريم أفقدتني التركيز، ربما لأسباب كثيرة.

ليهز يوسف رأسه متغاضيًا عن تلك الإجابة المهلهلة، متخطيًا هذه النقطة؛ ليعود بسؤاله:

- وكيف علم بوجودي؟ ولمَ أتى هنا إذن؟!

ليبتسم حينها فارس ابتسامة صفراء مجيبًا:

- ليعلم ما لديك عنه، أليس من حقه يا حاج يوسف؟ ربما لم تُعطِي المعلومات الصحيحة لأمه! ما علينا، هذا بينك وبينه، أما عن كيف عرَف، فلأنني كنت أهذي وأنا نائم؛ فسمع ما تكلمت به عن الحادثة.

- ألم تنتهي من تلك الكوابيس بعد، إذن لم تنتهِ كما أخبرتني؟!

- انتهَت منذ أكثر من عام والله، تلك المرة كانت استثناءً ولا أعلم لمَ عادت، ربما القدر، ألم تخبرني أن لا شيء يموت، ولا مخفَى إلا ويُعلَن، ربما أعادها الله ليعرف بركة بوجودك هنا، ويعلم ما تم إخفاءَه عنه، ربما هناك أخطاء لكَ لا زِلتَ في حاجة للتكفير عنها.

قالها وصمت قليلًا وكأنه رمَى بحجر في مياه راكدة، أشعلَت

فيها الثورة، ثم خرج ليدخل بعدها برَكَة إحسان معرفًا نفسه:

- بركة إحسان عبد المنعم، لم آتِ لشر، وإني متعاطف معكَ كليًا لَما مررتَ به، أرجو ألا تقلق مني، أتيتُ لهنا فقط لمعرفة من أنا؟ من أنت؟ فقط هذا ما أرغب به، وإن كان بيدي مساعدة؛ فوعدٌ منّي بحق رحمة أمي سأفعلها، يكفي أنكَ وضعتني في يد أمينة حقيقية تُدعَى نادية.

قالها ونظر لعين يوسف التي حنَت له، عادَت دموعُه للسقوط مجددًا فاتحًا ذراعيه ليرتمي داخلهما بركة.

حنَّ يوسف لهذا الشاب الذي أُجبِرَ على تركه، أُجبِرَ على نسيانه، أُجبِرَ على عدم الوفاء بوعده للبلتاجي، أُجبِرَ على السلبية أمام سيف المنصوري، أُجبِرَ على التنازل كثيرًا أمام جميلة وجبروتها، نظرَ للشاب حتى رأى كل تفاصيله، كما هو لم يتغيّر، نفس الملامح الجميلة البريئة كما كان وما زال، ثم بدأَ في سردِ كل شيء له؛ كيف مات أبوه ثم أمه ثم جده:

- قبل موت البلتاجي أرسل لي وأَوْكَلَ لي العناية والرعاية بكَ، حتى أنه باع لي كل شيء وطلب مني الحفاظ على مالك حتى تصبح راشدًا، باع لي حينها خوفًا من سيف المنصوري وباقي العائلة؛ لئَلّا يطمعوا في المال فيتسبّبُوا في أذَى لك، فعلتُ ما وعدتُه به، حتى تعنّتَت جميلة ورفضَت وجودك، لا لشرٍّ منها،

ولكـن لشـعورها بأنـكَ تأخـذ الاهتـمام مـن أبنائهـا، حتـى وضعَت العقـدة في المنشـار حـين خيّرتْني بينهـا والأطفـال وبينـك، وقعْتُ حينهـا بـين المطرقـة والسـنديان، زوجتـي وأطفـالي وبينـك أنـت الطفـل الـبريء الـذي قسَـت عليـه الحيـاة ووعـدي للبلتاجـي! مـرت الأيـام بصعوبـة بالغـة لا حـلَّ فيهـا، حتـى اقـترحَ سـيف المنصـوري حينهـا بفكـرة وضعِـكَ في دار رعايـة أيتـام والـتردّد عليـك كل فـترة لزيارتـك والاهتـمام بـك، وهـذا مـا حـدث فعـلًا، بعـد أيـام مـن التفكـير كانـت نهايتُهـا أن هـذا الاقـتراح هـو الأصلـح لحـلّ كل المشـكلات والاطمئنـان عليـك، وصنَعـتُ هـذا فِعـلًا، ولكـن أراد القـدر أن يكتفـي بالقسـوة، وأن يبـدأ في تعويضِـك ببعـض الحـب والرحمـة، حـين قابلنـا السـيدة ناديـة في دار الرعايـة، أحبّتْـكَ حينهـا جـدًا، وطلبَـت رعايتـك، جلسـنَا واتفقنَـا عـلى كل شيء، وظلَلـتُ أتـردّد عليكـم كل شـهر مـرة.

توقف قليلًا ليأخذ أنفاسه، ثم عاد ليردف:

- لم أكـذِب حـين أخبرتهـا أننـي مـن سـوهاج، أعلـم أنهـا أخبرتـك، بـل رأيتُهـا حـين قامـت بالحصـول عـلى صـورة مـن بطاقتـي وقـرأَت كل المعلومـات عنـي، بـل كان هـذا بقصـد منـي، قصـدتُ هـذا حتـى أتعـرّف عـلى تلـك الشـخصية أكثـر، كيـف سـتتعامل، هـل سـتخاف؟! هـل سـتتركك؟! أو تبحـث عـن أصلـك؟! كل غـرضي حينهـا التعمّـق أكثـر في شـخصيتها، تركتُهـا تظـن أننـي

أكـذب حتـى أرى إلى أيـن سـتذهب أفكارهـا، وحـين اطمـأَنّ قلبـي لهـا قـررتُ إخبارهـا كل شيء عنـي وعنـك، كل معلومـة وتفصيلـة حتـى ولـو صغـيرة وغـير مهمـة، فقـد رأيـتُ كـم كانت تحبّـك وتعتنـى بـك، حـين قـررت زيارتكـما وإبلاغهـا بـكل شيء، بـل وإيـداع حقوقـك الماليـة التـي تركهـا لي جـدّكَ للسـيدة ناديـة، أصابَنِـي مـرض شـديد كاد يقتلنـي، ألزمنـي الفـراش فـترة طويلة، ربـما المـرض يلازمنـي دائـمًا؛ فأنـت تـرى الآن.

صمـت وبكـى، وكأنـه لا يرغـب في التذكـرة؛ ليقـترب منـه بركـة ويحتضنـه، لا زال هـذا الشـاب يحمـل داخلـه الخـير، أصابَـت أمّـه في تربيتـه حقًـا، ليعـود يوسـف فيكمـل:

- لم أتمكّـن مـن الخـروج والدخـول ولم أأتمِـن أحـدًا عـلى إرسـاله لك، حتّـى تحسـنت حالتـي الصحيـة وقـررت السـفر إليكـما، وكانـت الصدمـة التـي غـيّرَت كل شيء بالنسـبة لي، لم أجدكـما، رحلَـت أمـك بـك، إلى أيـن؟ ومتـى؟ لا أعلـم ولا أحـد يعلـم، مـرّت الأيـام والشـهور والسـنوات وأنـا أبحـث كالمجنـون عنكـما ولا أجـد أثـرًا لكـما، جُـنّ جنـوني، ولكـن لم أعـد قـادرًا عـلى البحـث وكأننـي فقدتُكُـما للأبـد؛ فعـدتُ إلى حيـاتي وأبنائـي وزوجتـي، مـرت الأيـام حتـى أجـبرني سـيف المنصـوري عـلى إعطائـه نصـف المبلـغ الـذي وضعتُـه في البنـك لـك، ضغـط بأنـه سـيخبر الجميـع أننـي قتلتُـكَ مقابـل الاسـتيلاء عـلى ثروتـك، دبّ الخـوف في قلبـي

حينها، سيف يفعل ما يرغبُ حين يضع شيئًا في عقله، دبّ الخوف في قلبي لئَلّا يسيء إليّ، لم أكن أدرك حينها ما أفعل، ظل النقاش بيني وبينه حتى استسلمتُ له وأعطيته ما أراد، اندفعتُ لإعطائه المبلغ من الخوف، وكانَت القشّة التي كسَرَت ظهري، لم أعد بعدها قادرًا على صدّه، ظلّ يهدّدني طيلةَ الوقت، لم أعد قادرًا على مواجهة المشكلات التي انتشرَت داخل أسرتي ولا على الكوابيس التي ظلّت تصاحبني حتى اليوم، صدّقني يا بني لم أُخن العهد ولم أتركك، ولكني أُجبرتُ غصبًا.

صمت وصمت بركة، وطال الصمت...

طال انتظار فارس خارجًا حتى سمع صوت يوسف يناديه من الداخل، حين دخل وجد يوسف يحتضن بركة، ثم أخبر فارس بأن يبدأ تحرّكه تجاه محمد الجزار لمحاولة إجراء مقابلة، ولابد من إقناعه، ليتحدث بركة إلى فارس:

- لابد من عودة الحاج يوسف إلى أسرته، كفَى ما عانَى من هروب وخوف وألم، يكفي.

ثم نظر إليه وأردف:

- لقد غفرتُ لك كل خطأ تجاهي، فليرتَحْ قلبك الآن.

ليندهش فارس ويوسف من ردة فعل بركة اتجاهه، ما هذا

القلب الطيب النقي؟! لم يفكر أو يحلّل، غفر دون مشقّة أو صراع، كيف يتمكّن إنسان من اتخاذ قرار بالغفران كهذا دون مشقة!

لينهي بركة دهشتها مكملًا كلماته:

- لا أحد منا فوق الخطأ، كلنا أفسدَنا الكثير، كلنا أسأنا الاختيار، كلنا بنو آدم، كلنا آدم نفسُه، أخطأ أبونا آدم؛ لنكرّر نحن نفس الخطأ، رغم أن الله وضع أمامنا فرصة للتغيير.. فرصة الاختيار.. مفترق طرق.. عدة من الطرق، حتى نخرج عن هذا الخطأ، نخرج عن هذا الطريق الذى سلكه أبونا آدم، ربّما هذا ما أفعله أنا الآن، أرغب في خوض طريق مختلف، لا الانتقام، أرغب في طريق الرحمة والمحبة والغفران، فإني مؤمن أن كل شيء يحدث بسبب ولسبب، كما علمتني أمي.

منزل فارس مجدي شلش، بني آدم، ١٥\١١\٢٠١٤م

أعد فارس كوبين من الشاي؛ ليعطي واحدًا لبركة، ثم يعود ليجلس قبالته لينظر مجموعة أسئلة في عينَي بركة، يحاول الفرار منهم ولكن يقرّر بركة إعادة طرح الأسئلة والخروج بأجوبة، واليوم لن يتهاون أو يتركه دون إجابات:

- هل تعتقد أن يوسف النعماني صادقٌ معي، وأنه سيحاول إعادة ميراثي إليّ؟! هل تثق فيه؟!
- كما أثق بك، أنت بذاتك تثق فيه، شعرتُ بهذا.

هكذا أجابه فارس بثقة كبيرة، ليهتزّ بركة ويحاول إثبات عكس هذا؛ فهو من طرح سؤالًا ويرغب في إجابة واضحة لا إجابة ملتفّة:

- مَن قال لك أنّي أثق به، لو وثقتُ به ما سألتك.
- لو لَم تثق به يا بركة، لكنتَ حين عدنا تحركتَ بشكل مباشر إلى أسرته وأبلغتهم الحقيقة انتقامًا منه ومنهم، أو لربما قتلتَه لتنتقم، فلا عقوبة عليك، هل من عقوبة لقتلِ رجل ميت؟!

قالها ورفع حاجبيه مشيحًا بيده اليسرى وكأنه قد أصاب ما أراد، ليبتسم حينها بركة مجيبًا:

- لك الحق، شعرتُ بأنه صادق حقًا.

- أنت شخص طيب يا بركة، لو كان شخصًا غيرك لقتله، أو انتقم منه وأسرته.

- لا يستحق، أخبرَتْنِي أمي ذات مرة أن كل شيء يحدُث بسبب ولسبب؛ فحين يغلق باب ثِق أن بابًا آخر قد فُتِح.

صمت لبرهة ثم أردف:

- يكفي ما أصابه، فما أصابه يكفي للتكفير عن كل الخطايا، ولكن دعنا منه، فإني أثق فيما أخبرني، أثقُ في أنه سيعيد لي ميراثي، حتى وإن لم يُعِده لي، يكفي أنني عرفتُ كل شيء، المال مجرد باب، يوجد غيره ألوف الأبواب يا صديقي، المهم.. أخبرني بما لا ترغب، بما تخفي، تلك الكوابيس، خاصة كابوس مهاب المتكرر كثيرًا، لمَ تتهرب من سؤالي طيلة الوقت؟! ثِق أني لن أؤذيك ولن أتسبّب في ضررٍ لك، أقسم لك برحمة أمي أنكَ أخي وصديقي ولن أتسبّب لك يومًا في أذى.

ثم صمت، وصمت فارس دون نطق كلمة واحدة، مرّت بضع ثوان طوال، أسند خلالها فارس كوبَه جانبًا ونهض ليدخل إلى الحوش الداخلي وينظر للسماء، تبعه برَكَة دون كلمة وجلس مقابلَه وانتظر، ما كان يرغب بشيء سوى مساعدته، يشعر أن

هناك حملًا ثقيلًا يحمله وحده، يرغبُ في حملِه معه، هذا ما جال في خاطره؛ ليوقظه من شروده فارس وقد بدأ حديثه ببكاء شديد جدًا، ثم بدأ الحديث:

- قبل أن يُقتَل سالم وأبوه بفترة جاءتني مكالمة من شخص أعرفه جيدًا...

ليقطع حديثه بركة:

- نعم أخبرتنى عنها، كانت من أقاربك، أتذكر.

ليبتسم فارس بسخرية ويجيبه:

- لم تكن من أقاربي، كانت من قاتل أبي محمد محروس الغنام الشهير بمحمد الجزار.

لتظهر ملامح الدهشة على وجه بركة، ليسأل:

- قاتل العم مجدي؟! وماذا فعلت؟

ظهرت ملامح الغضب كليةً على وجه فارس ليجيب:

- تمنيت لو كان أمامي لقتلته، ولكني تذكرتُ قلة حيلتي وفقري وضعفي، حضرَت أمامي كل كلمة أخبرني بها مأمور المركز، حاولتُ تمالكَ نفسي وأجبته، فلا شيء يحدُث باختيارنا، نحن ما إلا نتاج اختيارات الآخرين.

أكمل حديثه وكأنه ينظر أمام عينيه ما حدث حينها، رأى

نفسه يجيب على الهاتف:

- ألو، من معي؟

ليجيب الطالب: "محمد الجزار"

لتتسع حدقة عينيه فور سماع الاسم، وتسيطر ملامح الغضب على كامل تفاصيل وجهه، يحاول التماسك والهدوء، يرغب في الانتقام، ولكن يعلم جيدًا قدْرَ نفسه وقيمته بين هؤلاء؛ ليستنشق بعض الهواء ثم يجيب:

- قاتل أبي وتهاتفني، أليس غريبًا، ماذا فعل أبي لك؟! لقد كان رجلًا ساذجًا وبسيطًا لا ثور له ولا طحين فيما بينكم وسيف المنصوري.

ليعود الجزار ويطلب مقابلته لتوضيح كثيرٍ من الأمور المغلوطة له منها، أنه ليس قاتل أبيه! لينهض فارس من مكانه وكأنه غير مصدق، متسائلًا:

- ماذا تقول، أليس لديك الشجاعة لتخبرني أنك قاتل أبي؟!

تمالك الجزار نفسه على غير عادته، ثم أجابه:

- لابد أن نتقابل؛ ستعرف حينها كل شيء، غدًا أمام مبنى المحافظة، الساعة الثانية عشر ظهرًا، إلى اللقاء.

أغلق بعدها الهاتف لتفترس فارسَ الأفكارُ، لم ينَم طيلة الليل

وهـو يفكـر فيـما سـمع.

ليعود بركة فيطرح سؤاله مجددًا:

- ومن إذن القاتل؟!

ليجزّ فارس على أسنانه ويجيب بحسرة:

- سالم سيف المنصوري.

ليصدم بركة بسماع الاسم، ويجاوبه وهو في حيرة:

- سـالم! ألم تخـبرني أنـه قـد أخـبرك بـأن أبـاك ضحّـى بنفسـه ليحميه، ألم تخـبرني بأنـه قـد تاب.

ضحك حينها فارس، ثم أجاب:

- لا أحـد يخـبر الحقيقـة كاملـة، الجميـع يخـبر فقـط مـا يخـدم موقفـه! الحقيقـة كانـت أن سـالم حـين أطلـق النـار عـلى محـروس الغنـام وقتلـه، هـاج الجميـع وصـارت أشـبه بحـرب، هـاج حينهـا أيضًـا الجـزار وأخـرج مسدسـه، صوّبـه في اتجـاه سـالم الـذي اختبـأ خلف أبي واضعًـا إيـاه أمامـه لتسـتقر الرصاصـة في منتصـف جبهـة أبي..

توقف لبرهة لم يستطِع حينها أن يكمل دون بكاء، ثم أردف:

- مَـن قتـل أبي حـاول دفـع ثمنـه حـين أعطـاني مبلغًـا مـن المـال كـي يسـاعدني للبـدء مـن جديـد، وأنـا تقبّلـت دون أن أدري، حتـى وإن كان قـد قـدّم توبـة حقيقيـة، أنـا لسـتُ مثلـك، لا يمكننـي

الغفـران، الانتقـام حقـي؛ فتاريـخ حيـاتي لا يشـفع لـه، حينهـا عقـد الجـزار معـي صفقـة، رأيتهـا صفقـة عادلـة.

- وماذا كانت؟!

- أنـا متنقـل بـين بنـي آدم والـوادي الجديـد، أسـبوعًا هنـا وآخـر هنـاك، فـلا يشـعر أحـد بي، خـلال تواجـدي هنـا سـأنقل جميـع تحـركات سـالم وأبيـه للجـزار، حتـى يحـين الوقـت المناسـب لقتلهـم، وحـدَث، حتـى حـان الوقـت خـرج سـالم وأبـوه للمزرعـة وقـد علمـتُ حينهـا مـن مهـاب.

- مهاب! أنت مخاد..

- مخـادع، لا لسـتُ كذلـك، لم أخـدع مهـاب أبـدًا، ولكـن هنـا دافـع الانتقـام سـيطر عـليّ، لم أسـتطع مقاومتـه، أعلـم أننـي أسـأتُ اسـتخدام ثقتـه، ولكنـي أحـاول الآن أن أعينـه قـدر الإمـكان، حيـاة مهـاب كانـت بسـببي؛ فرغبـة الجـزار كانـت إنهـاء بيـت سـيف المنصـوري كامـلًا، وكانـت الصفقـة كـما اتفقنـا هـي مهاب خـط أحمـر لا يقـترب أحـد منـه، وقـد تـمّ.

- آه، أكمل ماذا حدث لسالم وأبيه سيف المنصوري؟

- أخـبرتُ الجـزار بتحركهـم، كان حينهـا مسـتعدًا، قـام بإرسـال مجموعـة مـن المطاريـد، وتـم اختطـاف سـالم وأبيـه، كنـت حينهـا أنـا بالـوادي الجديـد، أو هكـذا يعـرف الجميـع، ولكـن في الواقـع

كنت بالعزايزة في أحد منازل الغنام، ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه.

- وما هو؟ هل تم اكتشافك؟!

- لا، ولكن لم يكن المختطفون فقط اثنان، كانوا ثلاثة.

لم يعد بركة قادرًا على تحمل المزيد، ولم يعد قادرًا على طرح الأسئلة أو فهم ما يحدث؛ ليعود فارس فيكمل...

أكملَ ما تبقّى وكأنه يراه أمام عينيه، كأنه مسلسل يشاهده، يرى التفاصيل كاملة، حين تم إنزال الثلاثة من العربة الجِيب مكبّلِين الأيادي خلف ظهورهم، وكيس من القماش لونه أسود يغطّي وجوههم، تم إنزالهم وجعلهم يركعون أمام محمد الجزار ويساره فارس مجدي شلش، ويمينه الطبيب مدحت محروس الغنام، الذي لم يرغب بطريقة كهذه، يشعر وكأنه حيوان في غابة يفترس فيها الجميع بعضهم، حاول مرارًا وتكرارًا مع أخيه إنهاء تلك الخصومة بالقانون، ترك الأمور للعدالة، كيف يتم الغدر بعدما تمت المصالحة؟! ولكن كان الرد الواقعي المنطقي للجزار: "في الحرب لا قانون ولا عدالة، في الحرب البقاء للأقوى"، وحضور بقية عائلة الغنام، ركع الثلاثة والغضب نيران تتطاير شرارتها من أعين محمد الجزار وفارس مجدي شلش، الانتقام غريزة تكاد تقتلك لو لم تحكمها.

- سالم سيكون من نصيبي أنا يا جزار.

هكذا تحدّث فارس، وهكذا طلب؛ لينظر له الجزار ويجيبه بحركة رأسه أنه موافق.

- ولكن ليس اليوم، لنا يومين نستضيفهم، لنلعب بعض الألعاب معهم.

ليتوقف عن الكلام وينظر للراكعين، ثم يأمر رجاله بإزالة الأكياس من فوق وجوههم، يرفع الرجال الأكياس؛ لينظر كلٌّ من سالم وسيف ويوسف النورَ ووجه محمد الجزار وأسنانه ساطعة البياض وبسمته ترتسم أمامهم، شعروا وكأنهم أمام منتقم مختل عقليًا، والدهشة التي اعتلَت وجوههم حين سمعوا صوتًا يألفوه جيدًا؛ لينظروا تجاه الصوت ليجدوه فارس مجدي شلش! وقبل أن يتحدث أي منهم اندهش فارس حين وجد يوسف النعماني؛ ليحول نظره إلى الجزار متسائلًا:

- لم يكن في اتفاقنا يوسف النعماني، لم نتفق على هذا الرجل يا جزار.

- ولمَ لا؟! أرغب في الإنهاء على السوالم كاملًا، ألم يشارك هذا الرجل في قتل أبي.

ليتدخل حينها الطبيب مدحت:

- لن نصيب الصالح بالفاسد، هذا الرجل لم يؤذِ أبانا، هذا

الرجل حاول المساعدة، أنت بنفسك لم تطلق النار عليه حينها حين أوقفك أبي، لن أشارك في قتل هذا الرجل، يكفي فقط مَن تلوثَّت يده بدم أبي.

ليطلب فارس الحديث مع الجزار على انفراد قليلًا، تحدثا وعلا صوتهما، إلا أنه تم إقناع الجزار بترك هذا الرجل، ولكن كان قد اشترط شرطًا، وافق فارس حينها، عادوا إليهم وتم حبسهم في إحدى أحواش البهائم ملك عائلة الغنام، مرّ يومان ذاقوا فيها ثلاثتهم كل أنواع التعذيب من خلع أظافر وتشويه، وتقطيع أجسامهم وقطع كل يد يُمنَى لكل شخص من ثلاثتهم، تلذّذ محمد الجزار بتعذيبهم كل أنواع التعذيب، حتى مرّ اليومان وأتوا بهم إليه أمام عائلة الغنام؛ ليوجه كلٌّ من الجزار وفارس مسدسه في اتجاه سيف المنصوري، ويتم إطلاق الرصاص بأنحاء متفرقة بجسده، حتى يموت ببطء شديد، ثم العودة إلى سالم وإعادة إطلاق الرصاص على أنحاء متفرقة بجسده، استمرّ تعذيبهم بإطلاق الرصاص مدة من الوقت، حتى قام الطبيب مدحت الغنام بإطلاق الرصاص على قلب كل منهما، ثم استدار ورحل؛ ليتفاجأ الجزار وفارس مما حدث، ولكن سبَّبَ هذا سعادة بالغة للجزار بما فعله أخوه، ثم إكمال الصفقة وما تم الاتفاق عليه فيما يخص يوسف النعماني الذي فقد وعيه مما رأى، أمر الجزار رجاله بإفاقته؛ لينفرد به مع فارس ويخبره بالآتي:

- لـك منـي الأمـان طالمـا التزمْـتَ بـما سـأخبرك إيـاه، إكرامًـا لـروح أبي، وإكرامًـا للعـمّ مجـدي شـلش، لـن تمـوت، ولكـن لـن تعـود إلى بيتـك مـرة أخـرى، وإن فكـرتَ في العـودة حينهـا فقط، سـيُقتَل كل أفـراد أسرتـك أمـام عينـك، وأعتقـد أنـكَ رأيـتَ مـا يمكننـي فعلـه، سـتحيا، غريبًـا مطـرودًا بعيـدًا عنهـم.

لترتسـم الدهشـة عـلى وجـه يوسـف النعـماني، ربّـما الفـرح لأن موعـد موتـه لم يحـن بعـد، والحـزن لرحيلـه النهائـي عـن أحبائـه؛ ليعـود الجـزار مكمـلًا مـا بـدأه:

- سـأخبرك سرًا مـا، كفيـلٌ هـذا الـسر بـأن يجعلنـي أتلـذّذ مـا بقـي مـن حيـاتي، لـذة أكـبر بكثـير مـن قتلـك، هـل تعلـم مـن الـذي سـلمك لي؟

ليفقـد يوسـف النعـماني وعيَـه مـرة أخـرى حـين سـمع الاسـم، يتذكّـر فـارس جيـدًا تلـك اللحظـة، كانـت صدمـةً للجميـع، ولكـن لم يمهلـه الجـزار الوقـت للاندهـاش وامتصـاص الصدمـة، حـين أمـره بأخـذ الرجـل والرحيـل وإلا سـيعود فيـما قـرر مؤكـدًا:

- ألّا يـرى الرجـل بيتـه أو أسرتـه مـرة أخـرى؛ فليحيـا في وحـدة دائمـة، هـذا هـو الثمـن لمـن قَتـلَ ومـن تهـاون فيـما حـدث مـع أبي.

***

لتزداد القصة تعقيدًا على بركة متسائلًا:

- ومن الذي سلّم يوسف النعماني؟
- أنا سلمتُ كلاًّ من سيف المنصوري وسالم ابنه، أما ثالثهم يوسف النعماني لم أكن أنا من سلّمه، كان كريم نصر النعماني ويحيى يوسف النعماني!

ليُصدَم بركة وينعقد لسانه عن الكلام، ليكمل فارس:

- نعم.. يحيى يوسف النعماني باع أباه!

شرد بركة فيما سمع، ربّما قصة لم يكن يتخيلها في الأفلام؛ فما بالك وهي حقيقية أمامه.. يراها.. يلمس أبطالها.. يشعر بهم، ما هذا؟! شعر بالضيق من الخيانة التي تسري في عروق شباب السوالم، شعر بالمعاناة وهو يرَى عائلته التي بحث عنها تتمزق، شعر بالحزن على مُهاب وهو لا يعلم شيئًا، هل من الأصح أن يخبره؟! خاصة وأن نصف ميراثه لديه، وهل سيتقبّل مهاب هذا أم سيظنه نصابًا خائنًا؟! دخل بركة المتاهة برجلَيْه، يا ليته ما بحث ولا علم! يا ليته اقترب منهم واستمتع بتواجده معهم! يا ليته ما سمع فارس ولا تساءل عن كوابيسه، حقًا المعرفة وجع.

الوادي الجديد، ١٥\١٢\٢٠١٤م.

جلس يوسف وحيدًا أمام المنزل الذي يقطنُه بجوار الشجرة التي صارَت صديقَهُ الدائم والمطر الذي ازدادَ اليوم، ساءَت صحته، ضعف جسده، ازدادَ نحافةً، سقط بعضُ الشَّعرِ واكتمال الآخر اكتساءَه باللون الأبيض، ازدادَت حالته النفسية سوءًا أكثر منذ عرفَ بموعد زواج فرحة بكَرِيم، لم يتقبّله يومًا ولن يتقبله يومًا، ولا يرغب في أن يُرزَق حفيدًا منه، تذكّر مداعبته لها، كيف كان يخاف عليها من الهواء، من العيون، من كل شيء، كانت أميرته، كانت هبةَ الله له، يشتاق إلى مزاحها، يشتاق إلى جلوسِها على رجليه يضفّر لها شعرها، يشتاق إلى سماع نُكاتِها السخيفة، يشتاق إلى يوم واحد من أيامه معهم جميعًا، يشعر بالعجز وهو سجين الوادي هنا منذ أكثر من ثلاث سنوات، فلا خرُوج أو دخول، يحيا الرعبَ يوميًا، يا ليته ما وافق على شروط المختل محمد الجزار، يا ليته قتلَه مع سيف وابنه لكَان ارتاح، على الأقل لم يكن ليسمع ما سمع، وها هو فارس يفشَلُ في المفاوضات معه، لا زال يرفضُ عودته أو حتى أن يهاتف أسرته، لا زال يستمتع بتمزق هذه الأسرة، لم يذُق النومَ جيدًا منذ فترة، يرغبُ في العودة، ماذا يفعل؟! هل يكسر هذا الاتفاق، فكّر

كثيرًا قبل ذلك، ولكنه لم يكن قويًا بما يكفي لمعاداة الجزار، يخافُ على أسرته وهو يدري جيدًا ما يستطيع هذا المختل فعله بهم، بالإضافة إلى أنه لا يدري ماذا سيحدث ليحْيَى حين يراه، عاد الفكر الذي أصبح زائرًا يوميًا، لماذا فعل ابنى هكذا؟! ثم الإجابة ومحاولة التبرير، ثم الضيق، ثم الرغبة في مواجهته، ثم تتغلّبُ أبوّته فيقرّر الغفران، مختلطة جميع المشاعر، قطع كل الأفكار تلك جرسُ الهاتف القديم الذي يحمله للتواصل مع فارس، من غيره يتواصل معه، ليجيب:

- ألو، نعم يا فارس ماذا هناك؟! هل حاولتَ مرة أخرى مع الجزار؟ أدعو الله كثيرًا أن يوافق هذه المرة، أشعر أن الموت قريبٌ وأرغب في رؤية أسرتي، أرجو أن تحاول يا بني.

قالها وهو يذرف دموعه، فما أصعبها لحظات العجز وقلة الحيلة، فلا مجال أمامك، لا حق لك، لا إنسانية، ولا معونة، شعور الوحدة، شعور اللا أمل، بكَى بحرقة شديدة، تحوّلَت إلى فرحة شديدة حين أجابه فارس بشيء لم يكن يتوقعه أشد المتفائلين:

- مات الجزار منذ ثلاثة أيام بعد آخر مقابلة بيني وبينه، مات في حادثة سيارة، واليوم وأنا أقدّم التعازي للطبيب مدحت أخيه فوجئت بأنه طلب الاختلاء بي في غرفة مكتبه، ثم قرر

الآتي.. مـن اليـوم أنـتَ شـخص حـر، لم يكـن يرغـب في الدخـول إلى هـذا العـالم؛ الدمـاء.. القتـل.. الثـأر، يؤمـن أن الله يـردّ الحقـوق حتـى ولـو طـال الزمـن، يطلـبُ منـك المغفـرة عـمّا فعلـه أخـوه، ومـن اليـوم أنـت حـر طليـق، فلتعُـود وقتـمَا شِـئت، مـع الاتفـاق، أننـا لم نـرَ بعضنـا البعـض، لا تعلـم عنـا شـيئاَ ولا نعلـم عنـكَ شـيئاَ، اسـتجاب الله لـك يـا حـاج يوسـف.

لينهـي فـارس حديثـه؛ لتـدبّ الطاقـة والحيويـة في يوسـف المريـض النحيـل، ليقـف ويركـض حـول المنـزل أسـفل المطـر وكأنـه طفـلٌ في السادسـة مـن عمـره، كطفـلٍ اسـتجاب لـه أبـوه بإحضـار هديـة لـه وهـي لعبتـه المفضلـة... ليتوقـف لبرهـة هامسًـا داخلـه:

- ومـا هـي الخطـوات التـي يجـب أن آخذهـا للعـودة، كيـف سـتحدث؟! كيـف سـأخبرهم؟!

بني آدم، ٣١\١٢\٢٠١٤م.

جلس بركة وحيدًا في المنزل والقلق يسيطر عليه، لا يستطيع تحمل الانتظار، يرغب في معرفة ماذا سيحدث، اليوم سيعود يوسف النعماني إلى منزله، كيف سيستقبلونه؟! أحببتُ هذا الرجل وأشعر معه بالتعاطف، ماذا سيحدث اليوم؟ لمَ لَم يدعني فارس أرافقهم؟! الانتظار دائمًا قدري، أرجو أن تمرّ الأمور على خير، أرغب في عودته، وعودة ميراثي والعيش هنا، الوجود داخل عائلة.. أقارب.. أصدقاء، لا أرغب في العودة للقاهرة مرة أخرى، ماذا عليّ الآن؟ أنتظر؟! أم ماذا أفعل؟! نهشَت الأفكار عقلَه، ولكنه قرر الانتظار كما طلَبَ منه فارس حتى تتضّح الأمور، لا أحد يعلم ماذا سيحدث، أو يقوم بتناول العشاء ثم الذهاب لمهاب للجلوس معه.

على بُعدِ خمسين مترًا خارج منزل فارس مجدي شلش يقف يوسف أمام مدخل قرية بني آدم وهو ملثّم الوجه، لا يظهر منه سوى عيناه التي بدأ فصل المطر بها، تحاربُ الدمعة للخروج بصعوبة، فما أصعب دموع المقهور! ما أصعبها وما أوجعها؛ ففي خروجها خروج للروح، سقطت دمعات بسيطة، تنفّسَ الصعداء محاولًا تمالك نفسه... ثلاث سنوات مرّت منذ أن وطأَت قدمَه

خـارج القريـة، خـرج ولم يعـد، فَقَـدَ حياتـه وبيتـه ونفسـه، ثـلاث سـنوات مـرّت كدهـر لا يريـد الانتهـاء، ثـلاث سـنوات تعلّقَـت الـروح بـين المكـوث في جسـده أو الخـروج والانطـلاق منـه، حـربٌ شرسـة عاشـها، صراعـاتٌ فتكَـت بـكل قوتـه، أنهكَتْـه، أذلَّتْـه، قهرَتـه، وصراعـات لم تتوقـف ولم تنتـهِ، تذكّـر هـذا الحديـث الـذي دار بينـه وبـين فـارس حينهـا منـذ أكثـر مـن سـنة، فـارس الـذي يسـير أمامـه الآن ليكتشـف لـه الطريـق.. طريـق العـودة إلى منزلـه؛ ففـي الثـلاث سـنوات تغـير الحـال وتغـيّرَت بنـي آدم، قـرّر الرجـوع في الخفـاء والجلـوس أولًا مـع أسرتـه متفاديًـا أيـة مشـكلات قـد تحـدث ومحاولـة العبـور بهـم مـن تفاصيـل مـا حـدث، قـرّر الغفـران كـما فعـل هـذا الشـاب بَركَـة إحسـان، قـرّر هـو أيضًـا الغفـران لابنـه، يرغـبُ فقـط في معرفـة لمَ فعـل هـذا؟! وسـيكون هـذا بينهـما فقـط... عـاد بالذاكـرة لهـذا الحديـث الـذي كان بينـه وفـارس..

تذكـر حينـما أنهكـه العمـل في الـوادي الجديـد، حينـما كانـا يعمـلان في عمـل الزراعـة طيلـة النهـار وحامـلي وناقـلي بضائـع بالمسـاء، تذكـر هـذا اليـوم، أنهكَـه العمـل وأنهـكَ جسـدَه النحيـف، تغـيّر كليًـا، صـار يتحـرك بصعوبـة بالغـة؛ فيوسـف النعـماني المرفّـه صـارَ عامـلًا يشـقَى ويعـاني لأجـل الحيـاة، بعـد عمـل يـوم طويـل خـرج للجلـوس أمـام المنـزل أسـفل الشـجرة الخـضراء الجميلـة في ليلـة هواءهـا يعيـد إليـك الـروح، خـرج وجلـس وهـو يتأمـل السـماء والنجـوم والظـلام

والقمر المضيء، قطع فارس حبالَ تأمله، حين أحضر له كوب الشاي الذي أعده له خصيصًا، ثم ألقى بكلماته التي قطعت حبال التأمل الآن بشكل كامل:

- نصيحتي.. اتركها على الله يا حاج يوسف؛ فاللبن حين يسكب لا مجال لرجعوه ولا معنى للبكاء عليه.

ضحك يوسف وأجابه:

- لا زِلتَ تناديني كما وأني لا زلت الحاج يوسف كبير بني آدم، انتهى هذا يا بني.. انتهى.

هكذا أجاب يوسف وهو يتنهّد وكأنه يمنّي النفس أن يكون هذا مجرد كابوس وليس حقيقة؛ لينظر إليه فارس نظرة رحمة وشفقة على حاله، مكملًا حديثه في اتجاه آخر محاولًا إبعاده عن التفكير فيما لم يعد مفيدًا التفكير به:

- ستظل هكذا بالنسبة لي، والكثير من المرّات طلبتُ منكَ أن تستريح، أنت من ترغب في إجهاد نفسك بالعمل، أخبرتك أنني متكفّلٌ بكل ما تحتاجه، هذا ديني لك.

ابتسم يوسف ابتسامة حزينة:

- وماذا أيضًا يا فارس؟! هل ستتصدق عليّ، هل ستتكفّل بأن تتحمل معيشتي؟! ألهذه الدرجة صرتُ عالة!

ترقرقَت عيناه، وقفزَت الكلمات دون نطقها؛ فالعين تكفلت بإيصال المعنى، وكان حاله.. أنا يوسف النعماني عين أعيان المحافظة، أنا مَن كان يتكفّل بالجميع، وبإشارة من أصبعه يحرك الجميع، جاءه اليوم الذي يحتاج فيه إلى قوت يومه، جاء اليوم الذي صار فيه عالَةً على غيره، يوسف النعماني يتكفّل به مَن كان في يوم يحيا في خيره! هل مرَرْتَ يومًا بشعور سقوط كرة من اللهَب بفمك، فلا أنت قادر على الصراخ ولا قادر على تحمل الألم.. هذا ما كان يعانيه يوسف، وصلَت الكلمات دون نطقها، شعرَ بها فارس، شعر وكأنه زاد الهم بدلًا من أن يصرفه؛ فحاول تصحيح حديثه:

- لا وألف لا، لم أقصد هذا مطلقًا، خيرُك سيظل في رقبتي حتى مماتي، لن أنسَى لك حين دفعتَ ديني، لن أنسَى لك معاملتك الحسنة لي، فقط أرغب في إراحتك وأن تترك هذا التفكير القاتل، يجب أن تحيا الآن، هذا ما قصدتُ والله يعلم.

قالها مبتسمًا؛ فابتسم يوسف كرد فعل وأجابه:

- أنت شاب شهم، ونظرتي فيك لم تتغيّر، لكن كيف تطلب مني أن أنسَى، هل الأمر بهذه البساطة؟ أنسَى حياتي، زوجتي، ابنتي وابني! مهما طال الوقت وازدادَت العقبات لابد من التفكير في العودة، بل ولابد العودة، لابد..

قاطعه فارس:

- ولكنك أعلم بما اشترَطَه الجزار، وأنت أعلم بأنه رجلٌ مجنون، وقادر على فعل تهديده، يجب أن تضع في حسبانك أمانك وأمان أسرتك حتى ولو كان هذا مؤلمًا لك، فلا أمل، انتهى كل شيء.

تنهد يوسف ثم أكمل:

- أعلم يا فارس.. أعلم، ولكن لابد من التفكير وإيجاد حل... هل تعلم؟!

صمت وأسند رأسه على جذع الشجرة التي يجلس بجوارها، ورفع عينيه تجاه السماء كأنه سيخاطب الإله لا فارس، ثم أكمل:

- هذا هو الخطأ الوحيد الذي لم أرتكبه وتحمّلتُ نتيجته كاملة، بالطبع لا أعني أنني لم أخطئ أبدًا، ولكني لم أَقتُل، ربما ظلمتُ بعض الناس حين تحصّلتُ على أموالهم حين حلَّلْتُ الفائدة، ربما تسبَّبْتُ في فقرِ الناس بصورة أكبر، لكني لم أكن أعي حينها، لم أكن أقصد هذا، أعلم أني خنَثْتُ بعهدي للبلتاجي، لكن لم أقصد هذا، أشعر وكأن الله عاقبني على كل ما زرَعْت، في شيء لم أزرعه، جعلني أشعر بالظلم والقهر والضعف لعلي أتّعِظ.

ابتسم بسخرية من نفسه وصمت لبرهة، ثم أكمل:

- علمتُ الآن أن ما تزرعُه إياه تحصد أيضًا، لا شيء يموت، المسألة فقط مسألة توقيت!

تنحنح فارس واعتدل في جلسته، وألقى سؤالَه الفلسفي المعتاد في حياته:

- هل حقًا الرب ينتقم؟! هل يتسبّب في أذى لنا حتى أخطاءَنا؟! لمَ لا يقدّم العقاب حينها، ولِمَ لا يغفر دون عقاب؟! لمَ لا يسمع لنا، أوجاعنا، صراخنا، دموعنا التي لا تتوقّف ليل نهار، غامضٌ الرب بالنسبة لي!

قالها وصمت.

ليعود يوسف من شروده حين يصل إلى منزله؛ ليرى الجميع يحتفل، يرقص، يتغنَّى، وعلى مسافة قصيرة منه يجلس يحيَى متوسطًا مجموعة من أعيان القرية؛ لينهي كل هذا التأمل صوت فارس:

- حان الوقت.. الآن متاح أن ترى السيدة جميلة وفرحة على انفراد.

منزل يوسف النعماني، بني آدم، ٣١\١٢\٢٠١٤م

تزيّنَت قرية بني آدم بالزينة والأفراح، اكتسَت البيوت بالأنوار ودوّت أصوات الموسيقى والغناء في جميع أنحاء القرية بكاملها.

فرحة يوسف النعماني.. تقف أمام المرآة ثابتة لا تتحرك، كأنها جثة ميتَة منذ زمن، تنظر في سكوت وصمت يملأ أرجاء الغرفة، لا صوت، لا أنفاس، الباب مغلق والنوافذ مغلقة، تقف وحيدة أمام مرآتها تنظرُ نفسها، لا تتحدّث.. فقط تنظر، حديثها بالكامل يدور داخل عقلها وقلبها، يملأ وجهَها الجميل المزين الحزن والوجع المرير، عروسة في ليلة زفافها يكتسِي وجهها بأجمل الألوان والشعر مصفّف بأجمل تسريحاته، ويكسو جسدها فستان أبيض سواريه جميل، ولكن رغم تواجد كل معالم الفرحة؛ موسيقى.. غناء.. ملابس.. زينة، الجميع مبتهج.. الجميع يفرح، الجميع يتحدث، فرحة في ليلتها ورغم زينتها وبراءة وجمال وجهها الطبيعي ترتبط بحب عمرها، كل قِطَع العرس كاملة لتعطي لوحة كاملة الجمال، إلا أنها تكتسي بالحزن! الحزن الذي يعتصرها، تسقط من عينيها دمعة تجرّ خلفها دمعات محبوسة تحارب للخروج، بكَت ولم تستطع التوقف، صوت طرقات بباب غرفتها، تبكي ولا تعير الطرَقَات أي اهتمام، تبكي وهي تنظر فقط

لنفسها بالمرآة، تزداد الطرقات وصوت أمها جميلة ينادي بهدوء ثم بقوة ويعلو أكثر فأكثر.

- افتحي الباب يا عزيزتي، من أجلي افتحي.

تنتظر جميلة أن يُفتَح الباب في ليلة هي أجمل ليلة في أيام عمرها، تنتظر فتح الباب ولكن لا مجيب، تُحادِثها إحدى البنات الواقفات أمام غرفة فرحة بأنها أخرجتهم جميعًا، وأنها ترغَبُ في الجلوس وحدَها قليلًا، ينقبضُ حينها قلب جميلة أكثر مما هو موجوع؛ لتبدأ عيناها هي الأخرى في ذرف الدموع.. وتزداد طرقاتها على باب الغرفة، ويعلو صوتها أكثر.

- يا ابنتي، لا تتسببي في وجع قلبي، إن كان لي خاطر لديكِ افتحي لي، قلبي موجوع، أشعر وكأن روحي تُسحَب منّي.

ليرتفع صوت بكائها وتزداد طرقاتها أكثر، حينها تحنّ فرحة لوجع أمها وتتقبل أن تفتح أخيرًا باب غرفتها، تقف محاولةً إيقاف نهر الدموع الذي ينساب بقوة من عيونها، متجهة إلى الباب وفتحه... في اللحظة التي فُتِح بها الباب تحتضنها أمها وتغلق الباب خلفها مباشرة مانعة دخول أي شخص آخر، تحتضن جميلة ابنتها وتبكي وتحتضن فرحة أمها وتبكي، بكيتَا ما يكفي من البكاء في ليلة لا يصح فيها البكاء، تتمالك جميلة نفسها وتمسح الدموع التي تمكّنَت من الهروب من محبسها،

وملأت وجنتيها كاملة وتطلب من ابنتها التماسك، ولابد من سير الحياة، لابد من أن نقوَى وأن نصمُد، لا مجال للضعفاء، لا مجال لحزنٍ جديد، يكفي ما أخذه الحزن من العمر، هذا ما يريده يوسف إن كان متواجدًا، لم يكن يرغب أو يتقبّل برؤية أعيننا تدمع أو أننا سقطنا ولم نصمد، ليزيد الكلام في وجع فرحة:

- أمي، لي الحق أن أبكي في ليلة كهذه، لي الحق أن أُظهِر ضعفي، لي الحق أن أجد أبي بجواري يمسح هذه الدموع، كنتُ أتمنّى أن تشبكني يده وأسير بجواره حتى يسلمني بنفسه لكريم، حلمٌ تمنيته ولا زلتُ يا أمي، لو طلب منّي عمري مقابل هذه اللحظة لدفعته.

بَكت وكأنها تعوّض الثلاث سنوات السابقة في البكاء، وانهارت جميلة أكثر:

- وهل تعتقدين أنني لستُ مثلك، أنا أكثر سيدة موجوعة في هذا العالم، كل يوم أموت أكثر من مرة، ولكنه القدر يا حبيبتي، القدر شاء، ولا لنا سوى أن نتقبل، لو كان أبوكِ هنا لكان فعل كما فعلتُ، لأكمل الحياة، لو كان موجودًا لَما أراد رؤية هذه الدموع، كان دائمًا يخبرني "كل ما أرغبه في الحياة هو أن أترك لهم الأمان والسعادة".

- وأنا لا ارغب في شيء سواه، أرغب في أن أرتميَ في حضنه ولو

لمـرة أخـيرة يـا أمـي.

انهارَت جميلة حينها واحتضنَت ابنتها فَرحَة حضنًا قويًا..

- يا الله الرحمة، يكفينا وجع، يكفينا حزن، لم نعد نحتمل.

صـوت طرقـات خفيفـة ببـاب الغرفـة، حـاولَا تمالُـك أنفسـهِنّ، كلٌّ منهـنّ مسـحَت دموعهـنّ، تسـاءَلت جميلـة مـن الطـارق، أجابهـا الصـوت بـألم "فـارس يـا سـت جميلـة"، قالهـا وكأن كل حـرف يخـرج سـكّينة تالِـة تذبحـه، كان يمنّـي نفسـه بـأن يكـون هنـا اليـوم كعريس، ضحـك سـاخرًا مـن نفسـه داخلـه، الوجـع دائـمًا ونيـسُ صاحبـه، فـلا أحـد يـدري مـا بداخلـك، أنـت فقـط مـن تحـارب حروبًـا ضاريـة في قلبـك وعقلـك، أنـت فقـط ضحيـة ولا أحـد يعـيرك اهتمامـه؛ فـلا مجـال للإنسـانية اليـوم، أجابتـه جميلـة:

- وماذا تريد يا فارس؟

أشـار لحظتهـا يوسـف لـه بـأن يصمـت وسـيجيبها هـو، وقد أشـاح عـن وجهـه الشـال الـذي حجَب وجهـه عن الجميـع ولم يحجـب الجميع عنـه، أزال الشـال ولم يعرفـه أحـد! الفتيـات والسـيدات الواقفـات في الطرقـات القريبـة منـه لم يعِـرهُ أحـدٌ اهتمامًـا، مـن الطبيعـي ألا يتذكـره أحـد، لم يتوقّـع هـذا التجاهـل؛ فهـو يوسـف النعـماني، ولكنـه منـذ الثـلاث سـنوات حتـى الآن يكتشـف ويتعلـم مـا لم يكـن يعلمـه عـن نفسـه والآخريـن؛ فالجميـع ينسَـى، ألم يقُـل نجيـب محفـوظ "آفـة

حارتنا النسيان"، لا أحد يتذكر أحدًا ولا معروفَ أحد ولا شيء أيًا كان، اللحظة الراهنة والمصلحة الحاضرة والغد المؤتمن هم فقط من يحكموا الحياة، لا أحد ينظر للأمس؛ فما ذهب قد ذهب لا يعود أحد إليه، عاد من شروده بعدما أشار له فارس، بأن السيدة جميلة أعادَت سؤالها ماذا تريد، أجاب يوسف

- أنا شخص قريب منكِ ولديّ رسالة لكِ، وأرغب في رؤيتكِ وفرحَة على انفراد، ولا تقلقي مني؛ أنا أقرب شخص ليوسف، وهذه الإشارة (لديكِ وحمَةٌ في ظهركِ أسفل كتفكِ الأيسر).

اتسعَت عينا جميلة، كيف لهذا الغريب أن يعرف تلك المعلومة، أزاحت فرحَة خلفها، اتّجهَت للباب، فتحته لتنظر يوسف أمامها، ثم تهاوَت على الأرض كجسَدٍ خرجَت روحُه للتو.

سرايا سيف المنصوري، بني آدم، ٣١\١٢\٢٠١٤ م

ارتـدَت هـدى فسـتانًا جديـدًا أحـضره لهـا مهـاب، تخلّـت عـن كل الملابـس القديمـة، قـرّرَا البـدْءَ بـكل مـا هـو جديـد.. حتـى الملابـس، ارتـدَت فسـتانًا أخـضر، اللـون المفضـل لـمُهاب، لـون الحيـاة، خرجَـت إلى الحديقـة، اقتربَـت مـن مهـاب السـارح في ملكـوت الله، يتأمـل الأشـجار والعصافـير، ويلعـب مـع الكلـب الصغـير الـذي أحـضرَه لـه فـارس، يلعـبُ ويشـكر الله عـلى الفرصـة الجديـدة للحياة، يشـكره عـلى تعويضاتـه عـن كل شيء، يطلـبُ منـه الحكمـة في التصرف والقـرارات، اقتربَـت هـدى.. انحنَـت وطبعَـت قُبْلَـة عـلى يـده ورأسِـه وابتسـامة أنعشَـت روحـه، ردّ مهـاب لهـا الابتسـامة بأُخـرى وقُبلـةً عـلى يدهـا، ثـم أخبرهـا:

- أبلغِـي فرحـة بمباركتـي، أبلغِيهـا بـأن تفـرح وألا تعيـشَ فيـما مـضى، أخبريهـا أن تحيـا.

لتبتسـم هـدى نصـف ابتسـامة، ترغـب في مصاحبتـه وبشـدة، ترغـب في الخـروج والدخـول معـه، ترغـب في أن ينطلـق، لتجيبـه:

- ألَا زِلتَ عند رأيك، ترفض الذهاب؟

- نعـم، يحيـى وكريـم تـركاني في أشـد أوقـات احتياجـي، لا أسـتطيع

تجاهـل ذلـك، لا أكرهُهُـم ولكنـي لا زلـتُ أعـاني مـن الوجـع الـذي تسـبّبَا فيـه.

- ألم نقـرّر البـدء مـن جديـد؟ ألم نقـرر الغفـران؟ ألَم نقـرّر أن نبـدأ عـلى الحـب والصـدق والقـرب؟! انـسَ يـا مهـاب، ابـدأ كطفـل صغـير يكتشـف الحيـاة، كُـن كـما كان الله معنـا، كـما وهبنـا فرصـة لإصـلاح كل شيء، هِـبْ أنـت أيضًـا فرصـة أخـرى للإصـلاح، كـن أنـت جامـع شـتات السـوالم، يكفـي افتراقًـا، ويكفـي فرديـة، أثِـقُ فيـكَ وفيـما تفكـر وفيـما تقـرّر، كـن الأمـل يـا حبيبـي.

ليتنهّـد مهـاب وقـد لمسَـت كلماتهـا قلبـه كـما دائـمًا، ولكنـه لا زال يعـاني الوجـع، صمـت برهـة دون إجابـة، تنفـس الصعـداء ليقـرر:

- ليـس اليـوم يـا حبيبتـي، ولكـن لـكِ كلمتـي، سـأعيد التفكـير في كلماتـكِ، اذهبـي أنـتِ الآن كـي لا تتأخـري، اذهبـي وأنـتِ أجمـل مـن كل جميـل.

قالهـا وابتسـم، لتقـترب منـه هـدى تحتضنـه وتقبّلـه ثـم ترحـل، ليعـود مهـاب للتفكـير فيـما قالـت، يرغـب في الغفـران، يرغـب بشـدة ولكنـه لا يسـتطيع، شردَ فيـما حـدث مـن الجميـع وفيـما اكتشَـف، عـاد مـن شروده حـين سـمع صـوت بركـة:

- مهاب، مهاب، مهاب

- بركة، نعم!

- مـاذا بـكَ فيـما شردت يـا صديقـي؟ لقـد دخلـتُ للحديقـة وألقيـتُ السـلام أكثـر مـن مـرة وأنـت لسـت هنـا، مـاذا بـكَ؟ أأنـتَ بخـير؟!

- نعم بخير، كنت شاردًا قليلًا.

أحضر بركة كرسيًا وجلس بجوار مهاب، متسائلًا:

- فيما شردتَ يا صديقي؟

- فيما قصصتَ لي من يومين.

ليصمـت بركـة بعـض الوقـت، منتظـرًا اكتـمال الجملـة ولم يحـدث، ليجيـب:

- لم أقـص عليـك لغـرض سيء يـا مهـاب، ولا أريـد منـك شـيئًا، ربـما قصصـتُ عليـكَ لأني لا أحـبّ الأسرار، وصدقًـا لا أطلـب منـك شـيئًا.

- حتـى وإن لم تُـرِد شـيئًا هـذا حقـك، ربـما سـيؤثر هـذا عـليّ، ولكـن هـذا حقـك، ولسـتُ أنـا مـن يـأكل حـق غـيره، فـما بالـك وهـو حقّـك يـا ابـن العـم؟! أحببتُـك منـذ عـدت، ولـن أسـمح لـشيء يتسـبّب في التفرقـة بيننـا، أثـق فيـك ثقـة عميـاء، وبنـاءً عليـه تنازلـتُ لـكَ عـن الفيـلا التـي تـزوج فيهـا سـالم وهـدى؛ فهـي مـن حقـك، وتنازلـتُ لـك عـن جـزءٍ مـن مزرعـة السـالم، فقـط

مـا يتبقّـى توثيـق العقـود، ولـكَ وعـدي لـن أتسـبّب لـك في أذًى كـما فعـل أبي، أرجـو أن تثـق.

أنصـتَ بركـة لـكلّ كلمـة خرجَـت مـن فـمِ مهـاب، ومـع كل كلمـة وكل تأكيـد عـلى نزاهتـه وصدقـه انسـابَت دموعـه بكثـرة؛ لينهـض عـن كرسـيّه محتضنًـا مهـاب وبقـوة، ليشـاركه مهـاب البـكاء.

عـاد بركـة إلى الغرفـة المجـاورة للبوابـة، ثـم أحـضر منهـا بعـض المـاء السـاخن وكوبـان وبعـض الشـاي والسـكر، وبـدأ في إعـداد الشـاي لهـما؛ ليقاطعـه مهـاب:

- هـل هنـاك شيء آخـر يـا بركـة، أم كل مـا أخبرتنـي بـه هـو فقـط مـا حـدث؟!

لتتبـدّل ملامـح بركَـة يتوقـف عـن وضـع السـكر بالكـوب، يحـاول الحفـاظ عـلى ثباتـه الانفعـالي، يتذكّـر جيـدًا حـين أخـبره أن فـارس كان سـببًا مبـاشرًا في أن يظـلّ مهـاب حيًـا، كيـف أن فـارس لم يدَعـه يغيـب عـن ناظـره، كان حارسًـا شـخصيًا لـه، أخـبره أن العـم يوسـف النعـماني لم يمُـت، بـل وتقابـل معـه، أخـبره أن فـارس أنقـذَهُ مـن القتـل وقـد نجـح، بـل وأن فـارس حـاول إنقـاذ أبيـه وسـالم ولكنـه لم ينجـح، يعلـم برَكَـة أنـه كان يكـذب في تلـك الكلـمات الأخـيرة، إنهـا المـرة الأولى التـي يكـذب فيهـا، وعهـدًا عـلى نفسـه سـتكونُ المـرة الأخـيرة، كـذِبَ لأنـه علـم أن فـارس لم يكـن حـرًا فيـما فعـل، ربـما تراكـمات

السنين، فارس بطبعه الذي رآه طيبًا، ولكنه في النهاية إنسان محتمل أن يخطئَ، مارسَ سيف وابنه الضغط عليه حتى شوّهُوا كل شيء جميل داخله، كذِبَ ربما لأن فارس كما الجميع يستحق فرصة ثانية، كذبَ محاولة لحماية فارس ومهاب من توابِع ما قد يحدث إذا علِمَ الحقيقة، كذب ربما للحفاظ عليهما معًا، يرغب في عائلة وها هي؛ ليعود من شروده ويكمل إعداد أكواب الشاي، ويجيب بكل ثقة:

- نعم، لا شيء آخر.

أعد الشاي، وجلسا يضحكان ويمزحان ويشربان الشاي، منتظرًا عودة ضلعهم الثالث فارس من مهمته، ومع مرور الوقت ازداد توتر بركة؛ تأخر فارس كثيرًا، منذ أكثر من ثلاث ساعات قد وصل إلى منزل يوسف النعماني، ماذا هناك وماذا يحدث؟! لِمَ تأخر؟! شاركه مهاب التوتر فأخرج هاتفه وشرع في طلب فارس؛ ليسمعا صوت جرس هاتفه بجوار البوابة! ليتفاجأ به وهو يركض للداخل، ويسقط أمامهم، ينهض بركة مقتربًا منه، ويحضر له كوبًا من الماء، يقترب مهاب أيضًا متسائلًا:

- ماذا هناك، ماذا يحدث؟!

يحاولُ فارس التحكّم في أنفاسه، يساعده بركة،، ثم يجيب:

- يجب أن نرحل من هنا والآن يا بركة.

يندهش كلٌّ من مهاب وبركة متسائلين، لمَ، ماذا حدث؟

- توفّي يوسف النعماني.

- ماذا؟ ماذا تقول؟!

نطقَها مهاب وبركة في نفسٍ واحد، بشكل تلقائي والصدمة واضحة عليهم.

- سأخبركما بما حدث، دعونا ندخل للاستراحة.

جلس فارس وقصّ لهما ما حدث منذ وطِأَت أقدامه ويوسف بني آدم حتى التقَى بالسيدة جميلة، ثم اجتماعه بيحيَى والسيدة جميلة، يحيَى الذي رآه وهذا ما يُرعِبه، ثم لمْ تمرّ سوى نصف ساعة حتى خرجوا والدموع تملأ عيونهم، ثم عاد يحيى للأسفل مصطحبًا معه فرحة وقدّمها لكريم نصر النعماني، وتمت مراسم الزواج.

بكى فارس كثيرًا، بكَى كما لم يبكِ يوم وفاة والده، بكى وكأنه فقَدَ حياته للأبد، حاول تمالك نفسه، ثم أردف:

- أغلب الظن أن يوسف قصّ كل شيء لزوجته وابنه، والآن يعلمان علمَ اليقين أن كل الأسرار الخاصة بيوسف معي، أنا الآن خطرٌ عليهم، لن ينتظر يحيى أو كريم أو جميلة كثيرًا، سيسعون للتخلص مني.

تنهد، ليعود للبكاء، ثم أردف:

- ميت ميت لا محالة، دعوني أذهب لحال سبيلي، لا أحد لي هنا، كما كنت وسأظل جبانًا.. ضعيفًا.. خادمًا... لا ثمن لي كما كان أبي.

قالها وصمت، ليحاول بركة تهدئته:

- لستَ وحيدًا ولستَ رخيصًا، من اليوم مصيرك هو مصيري، لن أتركك يا أخي، قُم وانتصِب ولا تخَف مهما كان الأمر.

ليدخل مهاب في حوارهما:

- لن يستطيع أحد الاقترابَ منك، طالما أنا على قيد الحياة، اطمئِن يا فارس، من اليوم أنتَ في حمايتي، كلمتي لك.. لن يمسّك سوء، كما كنتَ مع أبي وأخي، كما حاولتَ إنقاذهم، سأحمل لك هذا المعروف طيلة العمر، كما كنتَ معي صديقًا، كما وقفتَ بجانبي ولم تتخلّ عني، لن أتخلّى عنكَ، اقترب.. اقترب.

ليخجل فارس مما سمع وينظر لبركة، الذي يكمل:

- ثِق في مهاب يا فارس، مُهاب يعلم أنك حاولت إنقاذ أبيه وأخيه، لقد أخبرتُه بذلك.

ليبكي فارس كطفلٍ صغيرٍ، ثم يقترب منهما، ويحتضن الثلاثة بعضهم .

مقابر يوسف النعماني، بني آدم، ٣\١\٢٠١٥ م

قبرٌ شيّد قريبًا منذ أقل من خمس سنوات، شيّدَه يوسف النعماني وقد شيّدَه بأفضل ما يكون، فلا مدفن مثله ببني آدم، اكتسَتْ جوانبه بالطوب الوردي، ومدخلُه برخام من أغلى الأنواع المستوردة ورخامة حفر عليها...

((مقابر آل يوسف النعماني))

وقف يحيى باسطًا يديه للسماء، انتهَى توّه من قراءة الفاتحة على روح أبيه، انتهَى وذَرفَ من الدموع ما لم يذرُفْه طيلة حياته، اقتربَ أكثر من قبر أبيه، تحسّسه بيده ثم تنفس الصعداء، همٌّ ثقيلٌ يحمله طيلة الثلاث سنوات السابقة، همٌّ سرق النوم من عينيه، سرق الراحة من نفسه، كيف فعلها؟ كيف قسى قلبه؟ مهما كانت الخلافات بينه وبين أبيه لم تكن لتصل لَما فعله، شابٌّ عاقٌ حقًا، بل مجنون، كيف تقبَّلَ أن يبيع أباه؟! يُسلّمه لعدوه بيده، كيف فعلها؟! حتى اليوم الكوابيس لم تفارقه، حتى اليوم لا زال الوجع ينخس في قلبه، لا زال يرَى مشهد خيانته كل يوم، لم يفارقه يومًا واحدًا... "الموت قريب منكَ ومن أبيك، من كل عائلة السوالم، لا أحدَ آمن"، ظلّ كريم يردّدها دائمًا دون توقف، كل يوم، كل جلسة، كل نقاش، كانت كنقَطِ ماء تتسرّب من

صنبـور رديء.. نقطـة نقطـة، ومـا أدراك مـاذا تفعـل؟ إنهـا تُفتّـت الصخـر، وهـو لم يكـن صخـرة، كان حبـة تربـة هشّـة ضعيفـة، ظـلّ كريـم يـدسّ كلماتـه كل يـوم، سـتُقتَل، الجـزار لـن يرحمـك، لابـد مـن الجلـوس، لابـد مـن عَقـدِ صفقـةٍ معـه، لا مشـكلة مـن التضحيـة بسِيف وابنـه، هكـذا بـدأ السـقوط، ومـا هـو السـقوط في القـاع سـوى بتنـازلات، تنـازُلٌ يجـرّ آخـر فآخـر حتـى تهـوَى إلى القـاع بقـوة، بـدأ التنـازل حـين جلـس وأعلـن تخلّيـه عـن سـيف وابنـه، ثـم توالَـت الجلسـات، حتـى تـم إقناعـه بالتنـازل عـن أبيـه مقابـل حياتـه وأمـه وأختـه! ليهمـس كريـم في أذنِـه طيلـة الوقـت المطـروح للتفكـير، لابـد مـن التضحيـة، كـن سياسـيًا، السـياسي يبحـث عـن المكاسـب الأكثـر حتـى ولـو ضحّـى ببعـض المكاسـب الأقـل، الاختيـار هـو أن تتقبّـل شرًّا أهـون لتفـادي شر أعظـم، الاختيـار أن تتحمـل خسـارة الأب ولا تتحمـل خسـارة الأم والأخـت... هـل نسـيتَ كـم كان أبوك قاسـيًا؟! كـم مـن الإهانـات التـي تسـبَّبَ فيهـا لـك؟ كـم مـن المـرات التـي أصرّ فيهـا عـلى إصراف مالكـم عـلى غيركـم؟ كـم مـن المـرات أَصرّ عـلى التقليـل مـن شـأنك؟ كـم مـن المـرات قـدّم اعتـذارات بالنيابـة عنـكَ لمـن تشـاجرت معهـم؟ كـم مـن المـرات... كـم؟! أبـوك ليـس مثلكـم ولـن يكـون، أبـوك إن ظـل هكـذا سيتسـبب في إفلاسـكم قريبًـا، يكفـي أنـه حتـى الآن لا يعطيـك حـق التـصرف في المـال وأنـت متـزوج ولديـك ابـن، الآن أنـت في موضـع اختيـار، ولا أحـد يختـار

كل شيء، إما وإما... نصيحتي لك انجُ بنفسك؛ فالمكاسب حينها أكثر وأفضل، حياة والدتك.. أختك.. حياتك.. المال والتحكم، يتذكر كيف أن الكلمات دخلت واستقرت في رأسه، استسلم لها، لا يعلم كيف، لا يدري كيف، جلس حينها مع الجزار وعقد الصفقة وسلّم أباه، لم يهنأ بعدها بيوم واحد، كل يوم يمر كان الندم يأكل من روحه، حتى قبل أيام قليلة حين اكتشفَ أن أباه لم يمُت، حين جلس وجهًا لوجه أمامه في غرفته، جلس وأبوه أمامه وأمه وفرحة بجواره، فرح كثيرًا، أبوه لم يمت! لم يفهم ما يحدث، ولكنه كان في زهوة فرحِه، وقمة حزنِه وخجَلِه، لم يتمكّن من رفع عينه في عين أبيه، كان منكسَ الرأس، ارتمى أمام أرجل أبيه، بكى وبكى وبكى، لم ينطِق حرفًا واحدًا، حتى سمعَ جملة وحيدة أعادت له الحياة:

- غفرتُ لك يا بني، قُم.. ما فات قد فات، دعنا ننظر لما هو آتٍ.

قالها يوسف حينها وبكى، أقامَه واحتضنه بقوة، احتضنه كأبٍ يحتضن طفلًا غاب عنه سنوات ووجده، لا كطفل أخطأ! لتنضمّ لهما جميلة وفرحة وتكتمل دائرة الأمان.

- فلننسى ما مرّ، أخبرني أبوك بما حدث، لن أتكلم اكثر من هذا؛ فهذا بيني وبينك ويوسف، خطؤك لا يغتفر يا بني، ولكن كما أراد أبوك، يكفي أنه بيننا الآن، هذه بالحياة وما فيها.

هكـذا شـاركتهم أمـه بعـد صمـت طويـل وعيـون داميـة، وجـع معرفـة الحقيقـة الغائبـة، الصادمـة والقاتلـة، كيـف هـانَ عـلى ابنهـا تسـليم أبيـه كعجـل للذبـح! حاولَـت الصمـود وجمـعَ مـا يمكـن جمعـه ومعالجـة مـا يمكـن علاجـه بأقـل الخسـائر، اقتربَـت منـه واقـترب أبوه وأختـه، احتضنـوا بعضهـم بعضًـا وبكـوا تعويضًـا عـمّا مـرّ؛ ليسـقط منهـم يوسـف ميتًـا! يتذكّـر الآن يحيـى كل صـورة بالمشـهد، سـقط هـو عـلى الكـرسي المجـاور لـه مصدومًـا، لم ينبَـثّ بحـرف واحـد، فرحـة فقـدَت وعيهـا، وقفَـت جميلـة في حالـة ذهـول، يتذكّـر شـكلها حتـى الآن، كانـت كامـرأة تخطّـت التسـعين عامًـا! كامـرأة حملَـت همًـا لسـنوات مديـدة! ثـم فجـأة تنفسّـت الصعـداء، اقتربَـت منـه حاولـت إخراجـه مـن الصدمـة! أفاقـت فرحـة! حملنـا أبي للسريـر! قـرّرَت أمـي الآتي وهـي تبكـي بغـزارة.

- سـندفن يوسـف سرًا دون أن يعلـم أحـد، سـيكتمل عُـرسَ فرحـة وكريـم، تعامَلُـوا كـما ولـو كان الأمـر طبيعيًـا؛ فيوسـف قـد مـات في نظـر الجميـع، أبنائـي.. لا أرغـب في خسـارة أحـد منكـما.

وحـدثَ مـا أرادت، يرغـبُ لـو عـاد الزمـن، يرغـبُ لـو أعـاد الله لـه الاختيـار؛ لـكان تغـيّر كل شيء.

قطع شروده جرس هاتفه، ليجيب:

- نعم يا كريم؟!

- يكفى حزنًا يا صديقي.. يكفي، أنا مثلك، كانت لحظاتٍ من التهور، الانتقام الغبي منا، أخطأنا، ولكن انتهى ما انتهى، المشكلة الكبرى الآن فيما نحن فيه.

لتسيطر ملامح الغضب على وجه يحيى متسائلًا:

- ما نحن فيه؟!

- فارس مجدي شلش.

- ما به فارس؟!

- يعلم كل شيء عن أبيك وعنّا، فارس خطر علينا، ولا بد لنا من التخلص منه أولًا؟! نحن في أزمة حقيقية يا يحيى.

يتنفّس بصعوبة، يغمضُ يحيى عينيه، ثم ينفجر غضبًا ملقيًا بهاتفه جانبًا، يشعر كأنه شيطانه، كأنه سمٌّ اندسّ في عسلِه، يحثّه الآن على قتل فارس، شرد فيما سمع، شرد حين علم أن فارس أصبح فعلًا خطرًا كبيرًا، فما يعرفه كارثة، فما اختيار سوى قتله! ولكنه منذ قليل كان يدعو الله لو عاد الاختيار؛ لكان حينها تغيّر، ها هو الآن في اختيار جديد، فهل سيُعيد نفس الاختيار أم سيغيره؟! حياته.. حياة كريم.. أسرته.. فارس، اقترب من قبر أبيه، ثم جثا على ركبتيه وأسند رأسه على القبر وبكى، ماذا يفعل؟!

لتبدأ بني آدم فصلًا جديدًا، ما زالت الديون لم تسدّد بعد، ما

زالت بعض الخطايا لم يكفَّر عنها بعد، ما زالت بعض الألغاز لم تُحلّ... ثِق أنه لا شيء يموت، ما كان سرًا اليوم سيُعلَن فوق الأسطح غدًا، لا شيء يموت! ولا شيء يأتي من العدم؛ فلكلِّ نتيجة سبب، ولكل حدث اختيار سببه، انظر إلى حالك ولكل ما حولك، كل شيء كنتَ أنتَ سببًا فيه، كل شيء حدث كنتَ طرفًا، حتى ولو مجرد محفز لحدوثه، فكلُّ شيء كنت أنتَ من يقرره ويختاره، حتى عندما تركتَ الآخرين ليختاروا عنك، كنتَ أنت من سمَحَ لهم، هل أدركتَ الآن سببَ ما أنت فيه، هل علمتَ لغز بني آدم؟! كلنا نقف في مفترق طرق طيلة الوقت!

تمت بحمد الله

هاني صموئيل